أحمد طالب الإبراهيمي

# مذكرات جزائري



الجزء الأول

أحلام ومحن

(1932-1965)

دار الغرب الإسلامي

تونس

أحمد طالب الإبراهيمي

# مذكرات جزائري

## الجزء الأول
## أحلام ومحن
(1932-1965)

طبعة ثانية
مزيدة ومنقحة

دار الغرب الإسلامي
تونس

أحمد طالب الإبراهيمي

# مذكرات جزائري

## الجزء الأول

## أحلام ومحن

(1932-1965)

طبعة ثانية

مزيدة ومنقحة

دار الغرب الإسلامي

تونس

© دار الغرب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
2011 م

الطبعة الأولى
دار القصبة، الجزائر، 2006 م

دار الغرب الإسلامي
العنوان: ص. ب. 677، تونس 1035

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق إستعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل كان، أو بواسطة وسائل الكترونية، أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من الناشر.

# صدر للمؤلّف

- مساهمة في تاريخ الطب العربي في المغرب العربي؛ أطروحة دكتوراه في الطب ـ الجزائر ـ 1963.
- رسائل من السجن؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1966، الطبعة الثالثة، دار الأمة، الجزائر، 2001.
- من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية؛ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973.
- الأزمة والحلّ، دار الأمة، الجزائر، 1996؛ الطبعة الثالثة، الجزائر، 1999.
- الشاب المسلم Le Jeune Musulman؛ دورية نصف شهرية 1952 ـ 1954؛ طبعة مصورة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.
- مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام ومحن (1932 ـ 1965)، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.
- مذكرات جزائري، الجزء الثاني: هاجس البناء (1965 ـ 1978)، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2008.

# إهداء

- إلى روح والدتي التي غرست في نفسي احترام الذات واحترام الآخرين.
- إلى روح والدي الذي علّمني معنى الإنسانية ومعنى الشرف ومعنى التاريخ.
- إلى الشبيبة الجزائرية حتّى تتذكّر دائماً ولا تنسى أبداً.

بسم الله الرحمن الرحيم

# توضيح

عندما عزمت على كتابة مذكراتي، رجعت إلى أرشيفي الشخصي، وبدأت أفحص كل الوثائق والقصاصات والملاحظات التي دأبت على تدوينها منذ أربعة عقود على الأقل، وقد كنت حريصاً كل الحرص على إصدار الجزء الأول في آن واحد باللغتين العربية والفرنسية تعميماً للفائدة.

ولكنّي وجدت أن الوثائق والمراجع المتوفّرة حول الفترة الزمنية الممتدة من تاريخ ميلادي حتى سنة 1965 مكتوبة في جلها باللغة الفرنسية، وأنّها تتعرض إلى مواقف رجال جمعني بهم القدر في مرحلة معينة ولا يزالون على قيد الحياة، بمعنى أن الشهادة لو نشرت بعدهم لفقدت كل قيمة تاريخية وضعفت مصداقيتها ولتساءل الناس: لماذا الآن وليس قبل اليوم؟.

لهذا السبب كتبت الجزء الأول بالفرنسية ودفعت به إلى المطبعة كسباً للوقت، . ثم تطوع الأستاذ عبد العزيز بوباكير مشكوراً بترجمته وقمت بمراجعة هذه الترجمة مع بعض الإضافات حتى تتلاءم مع

الهدف المنشود في أداء المعنى والمطابقة للمراد.

وها هو الجزء الأول من «مذكرات جزائري» يصدر معرباً بفارق زمني لا يتعدى بضعة أسابيع عن الطبعة الفرنسية، وسوف أسهر بحول اللّه في الأجزاء القادمة. على إصدار الطبعتين معاً دون تقديم أو تأخير إحداهما عن الأخرى حتى لا يشعر قراء هذه اللغة أو تلك، بأي تقصير في حقهم وهم معذورون.

**المؤلف**

# توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل واحد وخمسين عاماً، اندلعت الثورة المسلحة الجزائرية التي قادت البلاد إلى التحرير والنصر، إنها حدث عظيم من أحداث النصف الثاني من القرن العشرين غيّر مصير الوطن وأهله، وقلّب العديد من التوازنات الجيوسياسية والاستراتيجية التي تمخّضت عنها الحرب العالمية الثانية.

نصف قرن كامل مضى وانقضى، وكتب لنا أن نعيشه، وأرواح شهدائنا الأبرار تحوم حولنا سائلة بدون انقطاع: هل أدّيتم الأمانة، وهل حافظتم على العهد أيّها الرفاق؟.

إنّ خمسينية أي حدث، سواء كان ذا طابع تاريخي أو ذا صبغة خاصة، تشكّل دوماً وقفة لاستحضار الماضي، والتأمّل والتمعّن في الدروس والعبر التي يجب استخلاصها، والالتزامات التي ينبغي تجديدها حتّى لا ننحرف عن جادّة الصواب، وذكرى غرّة نوفمبر لا تشذّ عن هذه القاعدة.

إنّ هذه المناسبة الهامة ـ ولئن أعدّت لها الدولة ما يليق بها من

تظاهرات واحتفالات - هي أيضاً معلم تاريخي بارز استوقف العديد من الجزائريين، خاصّة منهم أولئك الذين عاشوا تلك الفترة، ودفعهم إلى إعادة النظر بعين النقد في هذه المرحلة من حياتهم، فلم يدلوا بشهاداتهم من قبل كما أدلوا بها هذه المرّة، ابتداء من الفاعلين الأساسيين الذين غيّروا مجرى التاريخ، مروراً بمناضلي القضية الوطنية الذين حافظوا على جذوة الأمل، وصولاً إلى المواطنين العاديين.

إنني واحد من هؤلاء الذين شعروا بهذه الضرورة، وهي تزداد إلحاحاً كلّما تذكّرت أنني أنتمي إلى جيل محظوظ فضّله اللّه على غيره بأن جعله يعيش ثلاث مراحل حاسمة في تاريخنا: مرحلة الحشرجات الأخيرة للوحش الاستعماري، ومرحلة حرب التحرير الوطني، وأخيراً العشريات الأولى التي تلت انتزاع الاستقلال واستعادة السيادة الوطنية، لقد سمحت هذه المكرمة الإلٰهية لكلّ فرد منا، أيّاً كان موقعه في المجتمع، أن يحدّد اختياراته الأساسية إزاء التاريخ وإزاء مصيره الشخصي.

وفيما يعنيني شخصياً، كان اختياري واضحاً منذ كنت في العشرين من عمري، بين «اللّهو» بالمعنى الذي يضفيه Pascal على هذه الكلمة، وبين «التنبيه» كما كان يفهمه الأمير عبد القادر، فقد التزمت بقضية بلادي التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار، التزاماً أعطى لحياتي معنى، وأي معنى، وكان هذا الالتزام الثابت قائماً على قناعة مزدوجة: وهي من جهة أن موت المؤمن بفناء جسده ليس نهاية له، بل هو انتقال من دار ممرّ إلى دار مقرّ، وهي من جهة أخرى أنّ الملاذ الآمن الوحيد، أمام تذبذب الرجال وتناقضات المجتمع وهباء

متاع الدنيا، هو اللّٰه جلّ جلاله.

* * * * *

إنّ حظّ الانتماء إلى هذا الجيل المتميّز - بالمعني التاريخي للكلمة والذي كانت حياتي من دونه ستكون أقرب إلى العدم - يفرض عليّ في المقابل جملة من الالتزامات أهمّها الاضطلاع بواجب الذاكرة عن طريق تقديم شهادة أمينة وموضوعية قدر الإمكان، استجابة لحقّ الجزائريين اليوم في معرفة ماذا حدث فعلاً خلال الاحتلال الاستعماري لبلادنا، وأثناء الثورة المسلحة وبعدها في عهد الاستقلال، وعلاوة على ذلك تشكّل هذه الشهادة مادة مفيدة للمؤرّخ عندما ينكبّ على دراسة هذه الفترة من حياتنا.

لهذه الأسباب مجتمعة قرّرت - بعد ما اقتنعت أن السكوت ضرب من الإثم وأن الكتابة دين في عنقي وواجب لا مناص من تأديته - أن أسرد ذكرياتي، فأسوق الوقائع كما عشتها ورأيتها في صدق وأمانة وتجرّد، تاركاً للمؤرّخ مهمّة تحرّي الحقيقة على ضوء دراسة الأحداث واستجلاء أسبابها، وأنا أفعل ذلك من غير قصد في إعطاء الدروس، فأنا كما قال Montaigne «لا أعلّم بل أروي، وربّما حين يروي المرء من غير نيّة في إعطاء الدروس، يعلّم أفضل». أروي إذن ببساطة ما كنت شاهداً عليه، أو طرفاً فاعلاً فيه، متجنّباً إطلاق الأحكام القيمية، غير أني، والحقّ يقال، لا أروي كلّ شيء، عملا بقول الإمام علي كرّم اللّٰه وجهه «ما كلّ ما يعرف يقال»، ولم يكن البتّ في هذا الأمر بالسّهل الهيّن لشعوري بأنّني ربّما أبقي على الضبابية في بعض الحالات، ولكنّني اضطررت إلى اتّخاذ قرار صعب

لما قد يبدو فيه من إجحاف في حقّ الأجيال الناشئة، فحذفت بعض المقاطع يقيناً مني بأنها لا تفيد القارىء في شيء، لأنها أقرب إلى السيكولوجيا منها إلى التاريخ، وإلى تصرّفات الأفراد منها إلى التطوّر الجماعي، وأنا أتحمّل بضمير مرتاح تبعات هذا الخيار، وأعي في نفس الوقت أنه يمكن أن يعزّز بعض الأوهام إلى حين.

استحضرت بطبيعة الحال ذاكرتي، ثم اعتمدت على مجموعة كبيرة من الملاحظات كنت سجلتها بهذه المناسبة أو تلك، وكانت مساعدة على تدقيق التواريخ، وأسماء الأماكن والأعلام، وهنا يقتضي واجب العرفان بالجميل الإشارة إلى أنني لجأت إلى أصدقاء من الجزائر وخارجها من الذين قاسموني بعض لحظات الحياة ـ سواء في الجامعة أو في السجن أو في الحياية النضالية ـ فصحّحوا لي معلومة أو دقّقوا فيها أو أثروها بكل لطف ـ وأنا ممتنّ وشاكر لهم جهدهم واهتمامهم بالموضوع.

لو ترك كلّ واحد من أبناء جيلي شهادته، لوضع تحت تصرف المؤرّخ الجزائري المادة الضرورية للكتابة والتأليف، مادة تقطع الطريق على كلّ من يريد تنميق الأباطيل، وتلفيق الأكاذيب، ولكن للأسف الشديد رحل الكثير من أولئك الذين أدّوا أدواراً هامة سواء في الحركة الوطنية أو أثناء الكفاح المسلّح، دون أن يخلّفوا لنا حرفاً واحداً، فكان رحيلهم مرادفاً لضياع جزء من الذاكرة الجماعية للشعب.

وها هي الذكرى الخمسون لاندلاع الثورة المسلّحة المباركة لا تستوقف الأفراد فحسب، بل تثير أيضاً ردود أفعال الاختصاصيين والمؤسّسات والدول، خاصّة الطرفين الأساسيين لهذا الحدث، أعني الجزائر وفرنسا اللتين اُلتقتا مرّة أخرى في معركة تصفية الاستعمار

أمام امتحان للحقيقة التاريخية كما يراها كلّ منهما. وهنا لا يسع المرء إلاّ أن يستنكر موقف البرلمان الفرنسي الذي انتظر حلول هذه الذكرى واستعداد الجزائر لتخليدها، للتصويت على قانون 23 فيفري 2005 الذي يوصي أساتذة التاريخ بإبراز محاسن الاستعمار وإيجابياته في المدارس والجامعات.

إن أعضاء البرلمان الفرنسي لم يفعلوا ـ بتصرّفهم هذا ـ سوى السير على خطى العديد من المؤرخين والباحثين من أبناء جلدتهم ممن تعمّدوا التعتيم على العهد الإسلامي في شمال إفريقيا حتّى إن إميل فيلكس جوتيي E.F. Gauthier وصفه بـ «القرون المظلمة».

إنّ الهدف من ذلك واضح وبيّن، فقد كان بالأمس يتمثّل في القفز فوق هذه الحقبة الذهبية من أجل اختصار تاريخ الجزائر في الوجود الروماني والاحتلال الفرنسي، وكأنّ القرون الثلاثة عشر التي تلت الفتح الإسلامي لهذه الربوع لا أثر لها، وكأنّ العمق التاريخي الذي يعكسه تراثنا الأمازيغي مجرّد ظاهرة زائلة، أما الهدف اليوم فهو إحياء سمفونية «رسالة فرنسا التمدينية»، وكأن الجرائم التي رافقت الغزو الاستعماري أوهام لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة.

إنّ باريس التي يعاودها الحنين إلى مجد إمبراطوريتها الغابرة، إنما تريد بسنّ قانون 23 فيفري أن تبعث من مرقده «مؤرخ الأمير»، كما هو معروف في التراث الأوروبي، على غرار ما حفلت به الدول الأموية والعباسية والفاطمية من شعراء وفقهاء البلاط.

ومهما يكن من أمر، فلا يمكن لأيّ منصف أن ينكر أن الاستعمار الفرنسي خلّف ملايين الضحايا: ألم يلجأ هذا الاستعمار في القرن التاسع عشر باسم «الرسالة التمدينية» إلى الإبادة بشنّ

الغارات، وترحيل السكان، وتسليط العقوبات الجماعية، والقتل خنقاً في مغارات مسدودة، وأخيراً إحكام الخناق على الشعب بتفقيره ومصادرة ممتلكاته وأراضيه، ومحاولة عزله فكرياً وثقافياً بتشويه مقوّماته الروحية ومنعه من التحدّث بلغته والتواصل مع أشقائه؟ ألم يلجأ هذا الاستعمار في القرن العشرين، وباسم نظرية «التهدئة»، إلى أساليب «التمشيط»، و«الإعدامات الفورية» والمقابر الجماعية، وفتح المحتشدات، وممارسة التعذيب، والقصف بالنابالم؟.

إزاء هذه الوقائع التي لا تخلو قرية جزائرية واحدة من شاهد عليها، تبدو كتابة تاريخ الجزائر في القرنين الأخيرين ضربا من العبث إذا لم نسلّم بتلك البديهية التي شهد بها شاهد من أهلها وجعلها عنواناً لكتابه وهي أن «الاستعمار هو إبادة أولاً وقبل كل شيء»(1).

ومن الجانب الجزائري لم تنجح أكثر من أربعين سنة من الاستقلال في تحرير تاريخ الثورة كلّية من قبضة الاستعمار، وزحزحة احتكار الأقلام الفرنسية عنه، على الرغم مما بُذِلَ من جهد في تدوين الوقائع، وإقامة النصب التذكارية وبناء المتاحف، وإحياء المناسبات، ولا عجب، والحالة هذه أن يقوم آخرون بسدّ هذا النقص، لأنه كما علمنا أحد رجالنا الكبار: «حين لا يكتب شعب تاريخه، فإن آخرين يتكفّلون به، وعلى طريقتهم الخاصّة»(2).

---

(1) Olivier le Cour Grand maison «Coloniser exterminer», Ed. Casbah, Alger. 2005.

(2) هو عبد القادر محداد (انظر «رسائل من السجن» للمؤلف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1966.

إن تاريخ الكفاح من أجل التحرير الوطني يظلّ من بين ما ينبغي إعادة كتابته بروح علمية ووطنية، فلا التمجيد المطلق كما حصل مباشرة بعد الاستقلال، ولا النقد العنيف الشامل الذي طغى منذ أحداث أكتوبر 1988.

إن أفضل طريقة لتجنب هذين الشططين ـ النرجسية والتدمير الذاتي ـ هي أن ندرس برصانة وهدوء حرب التحرير بكلّ ما فيها من جوانب منيرة ومن زوايا مظلمة. من الأكيد أن هناك مؤلفات رصينة وجدّية نشرت، لحسن الحظ، في الأربعين سنة الأخيرة. لكن مؤلفات أخرى، وما أكثرها، لم تستطع أن تتفادى متاهات المغالطات بفصل الأحداث عن سياقها التاريخي، وبتجاهلها للمحيط والزمان اللذين كان يتحرّك فيهما صانعو تلك الأحداث. كما لم تستطع أن تتفادى النزعة المانوية بنسبها للعدو أفعالاً هي في الحقيقة من صنعنا، أو بنكرانها لوجود أفراد منحرفين في أوساطنا، ولم تنجح في تفادي النزعة الذاتية حين تسمح لنفسها بإصدار أحكام عامة ومتسرّعة، وتسحب بهذ الصورة أحكاماً جائرة مفضوحة في حق الفاعلين في الساحة السياسية، فقط لأنهم لا ينتمون إلى عصبة من العصب، ومن دون تجشيم أنفسهم مشّقة التحرّي في آثار حياتهم، أو تحليل ما خلّفوه من أعمال.

ومن جهة أخرى، فإن مدرسة الوطنية، التي أنا مدين لها بتكويني، علّمتني الربط الوثيق بين المصير الفردي وصيرورة الأمة. وما هذه «المذكرات» إلاّ مثل ساطع على ذلك.

إنّ هذه المذكرات ستصدر تباعاً إن شاء اللّه في أربعة أجزاء، يتناول الجزء الأول الذي يُنشر اليوم الفترة الممتدة من سنة 1932 إلى

سنة 1965 ويغطي مرحلة الطفولة والمراهقة والنضال والسجن والخطوات الأولى في مهنة الطبّ وفي الجزائر المستقلّة.

وإن أطال الله عمري ووفّقني لإتمام ما شرعت فيه، فسأخصّص الأجزاء القادمة على التوالي للسنوات التي قضيتها في الحكومة في عهدي الرئيس الراحل هواري بومدين (1965 ـ 1978) والرئيس الأسبق الشاذلي بن جديد (1979 ـ 1988) على أن يتناول الجزء الرابع أزمة التسعينيات بخلفياتها وأبعادها (1988 ـ 2004) وهي أزمة متعددة الجوانب كشفت في أحد أوجهها عن عدم توفيق جيلنا في نقل قيم الثورة إلى الأجيال الصاعدة.

إنّ أمنيتي هي أن يستفيد المؤرخ من هذه المذكرات المتواضعة واللّه ولي العون.

**أحمد طالب الإبراهيمي**

**الجزائر في غرة نوفمبر 2005**

# 1

# طفل في تلمسان (1932 ـ 1945)

«المرء شيء من طفولته مثلما هو شيء من وطنه». كم كان محقاً صاحب هذه المقولة!. فنحن نرث من طفولتنا كلّ ما في شخصيّتنا من أصالة وتفرّد.

ولدت في الخامس من جانفي 1932 بسطيف، مدينة في الشرق الجزائري، لأسرة يقال إنها ترقى بنسبها إلى الصحابي الجليل أبي بكر الصديق، خليفة رسول اللّه (ﷺ). قد يكون هذا صحيحاً، وقد يكون وهماً من تلك الأوهام التي دأب أهل المغرب منذ قرون على نسجها بنسبة أنفسهم إلى أصول من شبه الجزيرة العربية. وحتى صاحب المقدمة نفسه، العبقري ابن خلدون، لم يشذّ عن هذه القاعدة، حين وقّع مؤلفاته باسم عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، نسبة إلى حضرموت.

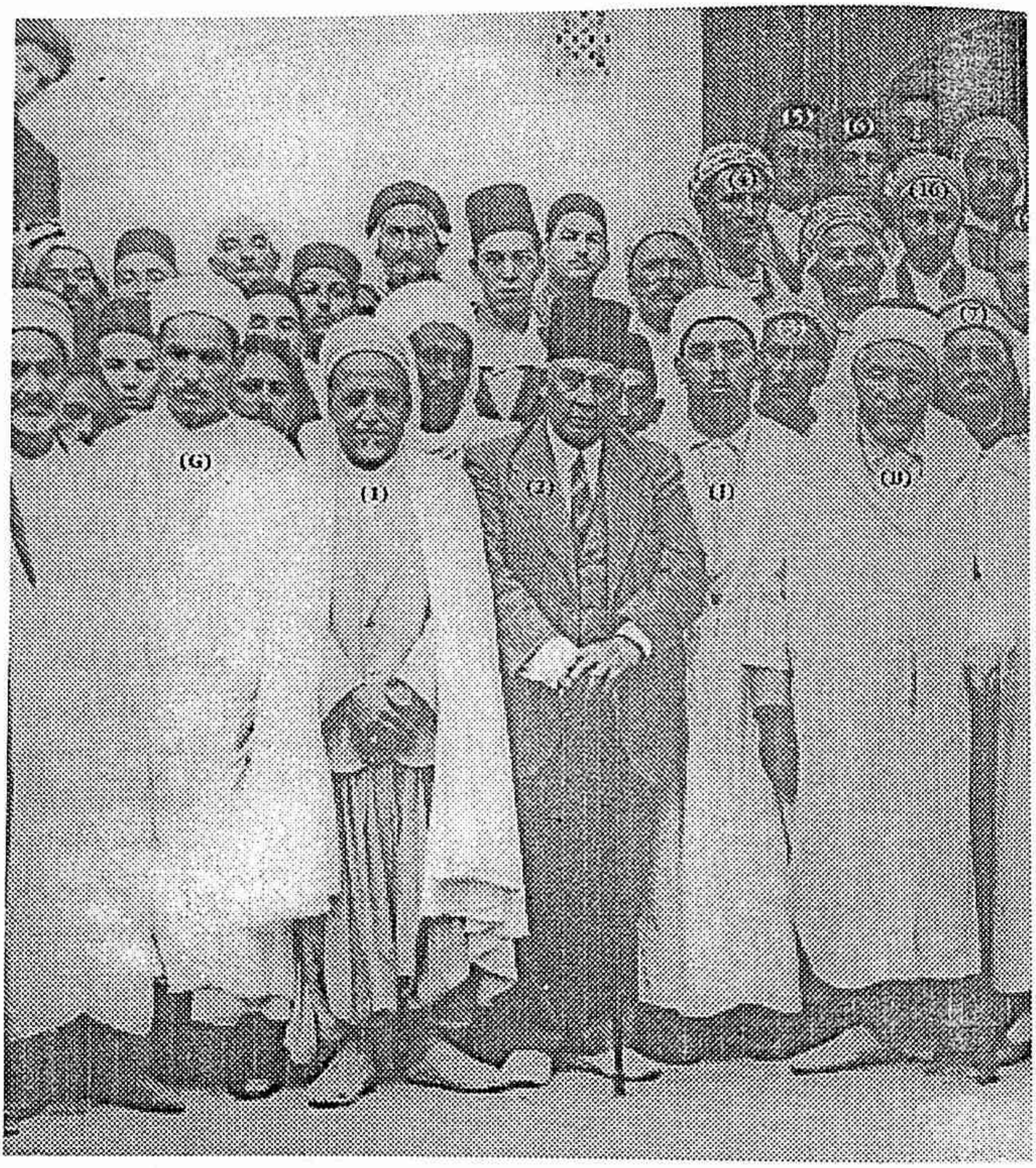
وقد أنجبت عائلتي سلالة من العلماء تجاوزت شهرتهم حدود المنطقة. ويبدو أنها كانت خلال الغزو الفرنسي، سنة 1830، تشتغل بالثقافة والزراعة. لم تتوّقف مقاومة الشعب الجزائري الباسلة سواء

تلمسان سنة 1937، تدشين دار «الحديث».




العلمـــاء:

(A) عبد الحميد بن باديس. (B) البشير الإبراهيمي. (C) أحمد كتاني. (D) إبراهيم معيزة. (E) محمد العيد آل خليفة. (F) العربي التبسي. (G) محمد خير الدين. (H) السعيد صالحي. (I) حمزة بكوشة. (J) فرحات الدراجي.



أهل التلمسان:
(1) محمد بن سليمان منصوري. (2) عبد السلام طالب. (3) غوتي بكشي. (4) بلقاسم (الجزار). (5)مختار صبان. (6)محمد بابا أحمد. (7)بن ديمراد. (8)محمد الصغير بوصالح. (9) بن عودة بوعياد. (10) عبد القادر كاراجة. (11) بن عودة بن شقرون. (12) عبد القادر غوار. (13) عمر حساين. (14) محمد بن مرزوق. (15) عبد الكريم بربر. (16) بومدين دالي يوسف. (*) محمد طالب الإبراهيمي (شقيق المؤلف).

بانتهاء مقاومة الأمير عبد القادر سنة 1847، بعد ما خاض حرباً ضروساً دامت سبع عشرة سنة من الكفاح البطولي أو بتلاشي مقاومة أحمد باي[1] في الأوراس، فخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر توالت الانتفاضات بدون توقف، وعمّت البلاد كلّها، وشاركت فيها كلّ فئات الشعب. وكان كلّما ثار هذا الشعب وانتفض، سنّت فرنسا قوانين لتسلبه أراضيه وتحرمه في آن واحد من مقوّماته الروحية. لذلك كان أجدادي، وهم يقاومون، يجمعون بين حب الكتاب وحب الأرض. فبعد قانون سيناتيس كونسليت SENATUS CONSULTE لسنة 1863، الذي أتاح للمعمرين تملّك الأراضي، وبعد قانون فارنيي WARNIER لسنة 1873، الذي شجّع تفكيك النظام القبلي، وبعد مصادرة مساحات شاسعة من الأراضي، عقب انتفاضة المقراني[2] سنة 1871، انصرف أجدادي، وقد نهبت أراضيهم، إلى التعليم كليّة. وهكذا اشتهر المكي الإبراهيمي، عمّ أبي، بما كان يلقيه من دروس على مئات الطلبة الذين كانوا يتوافدون عليه من كل أنحاء الشرق الجزائري. وكان هو الذي رسّخ عند والدي حب العلم والزهد في المادّة. أما جدي، سعدي الإبراهيمي، فقد كانت خصوماته مع الإدارة الاستعمارية معروفة، وعانى منها كثيراً، حتى إنه اضطر سنة 1910، بسبب قانون الأهالي CODE DE L'INDIGÉNAT[3] لسنة 1881، إلى الهجرة إلى المدينة المنوّرة، حيث التحق به والدي، ابنه الوحيد، في السنة الموالية.

وكان نداء الشرق هذا حقيقة ملموسة في جزائر نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ولعل تفسير ذلك هو أن الجزائريين كانوا مفتونين بالبقاع المقدسة، إلى درجة أن كثيراً منهم كانوا يحلمون بقضاء ما تبقى لهم من عمر قرب قبر الرسول (ﷺ).

ومن جهة أخرى، فإن ما قام به الفرنسيون من تحطيم لكل الفضاءات الثقافية الإسلامية دفع الشباب الجزائري المتعطش إلى العلم والمعرفة إلى الالتحاق بالمدارس المشرقية، وعلى رأسها الأزهر الشريف. وأخيراً، فإن إقامة الأمير عبد القادر بسوريا منذ سنة 1856 ليست غريبة عن هذه الظاهرة. وإلا كيف نفسّر أن أكبر جالية للمغتربين الجزائريين توجد في دمشق؟. ويمكن أن نضيف إلى ذلك كلّه زيارة الشيخ محمد عبده إلى الجزائر سنة 1903، التي تركت آثاراً ليست هيّنة، كما يتصور بعض الناس. هل كانت لها أصداء في تلك البلدة القصيّة، غير البعيدة عن سطيف، عند جدي سعدي وأخيه المكي؟.

كانت أسرتي تحمل دائماً اسم الإبراهيمي مفتخرة بانتمائها إلى قبيلة أولاد إبراهيم. وحين قرّرت فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر أن تفرض الألقاب على كل الجزائريين[4]، ظهر اسم طالب. كيف تمّ ذلك؟ كان ضابط «الشؤون الأهلية» يقرّر إطلاق أسماء المهن والعاهات وظروف اللحظة على العائلات. فيسمّيك «حداد» أو «نجار» إذا كان رب العائلة حداداً أو نجاراً، «لعور» أو «لعرج» إذا كان أعور أو أعرج، بوبقرة إذا كان يملك بقرة. وسمّيت عائلتي طالب لأنها كانت عائلة من المعلّمين، فالطالب في عاميتنا يعني معلّم المدرسة. وهكذا فإن بطاقة تعريف والدي، المؤرخة في 1938، تحمل لقب طالب، واسم البشير، وكنية الشيخ الإبراهيمي، ومكان الولادة كولبير[5]، وتاريخ الميلاد 1891[6]، والمهنة أستاذ حر، والجنسية فرنسي مسلم، أهلي غير متجّنس[7].

ولم تسترجع الأسرة اسمها الأصلي إلاّ بعد الاستقلال، وكان الوالد يتمنّى أنّ اسم «الإبراهيمي» يُرسّم بدل «طالب»، ولكنّنا ـ أنا

وأخي محمّد ـ أقنعناه، قبل وفاته، بالجمع بين الاسمين حتّى يصبح اسم العائلة «طالب الإبراهيمي» عوض «طالب» وذلك بقرار من العدالة[8].

ومن جهة الأم، تنحدر أمي حليمة شوكاتلي من أصول تركية. واسمها محرّف عن اسم توقاتلي، نسبة إلى مدينة توقات بالأناضول. ولدت في تونس سنة 1904، وهاجرت مع أسرتها إلى المدينة المنوّرة، وهي في السادسة من عمرها. وفي المدينة تعرّف والدي على جدّي من الأم. وفي دمشق، حيث عيّن والدي أستاذاً في مكتب عنبر، أول ثانوية عصرية في سوريا، تزوّج من أمي سنة 1919. وفي دمشق دفن جدّاي من أبي وأمّي. وفي 1920 قرّر والدي العودة إلى أرض الوطن هارباً من الفرنسيين، وهم يحتلون سوريا، وحاملاً معه المشروع الذي طالما تحدث بشأنه مع الشيخ عبد الحميد بن باديس[9]. حين حج هذا الأخير إلى مكة سنة 1913. وبعد توّقف لمدة أشهر بتونس، حيث سعدت أمي بلقاء أهلها، استقر بسطيف، وفيها أنجب أولاده الثلاثة: محمد، رشيدة، وأحمد.

لا أحتفظ عن مسقط رأسي بأية ذكرى. لأن والديّ غادراه في بداية سنة 1933، حين كان عمري سنة واحدة، للإقامة في تلمسان، بأقصى الحدود الغربية للجزائر.

ولدت بعد عامين من احتفال فرنسا ببذخ وقح بمئوية احتلالها[10] لبلدي، وبعد عام من إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان والدي أحد مؤسسيها وروادها. إن تلازم هذين الحدثين ليس عرضياً. فقد كان عمل الجمعية، في ذهن عبد الحميد ابن باديس والبشير الإبراهيمي، يندرج في سياق الردّ على التحدي

الذي مثّلته الاحتفالات بمئوية الاحتلال، التي أراد لها المستعمر أن تعلن نهاية الإسلام واللغة العربية في الجزائر. وفي الوقت نفسه يعترف ابن باديس والإبراهيمي بفضل أفكار كلّ من جمال الدين الأفغاني، الذي يرى بأن محاربة الطغيان تقود إلى سعادة الشعوب، ومحمد عبده، الذي ينادي بتطوير التعليم كسبيل يؤدي إلى التحرّر. في سنة 1933 أسندت إلى والدي مهمة الإشراف على نشاطات جمعية العلماء في الغرب الجزائري، فاختار تلمسان، تلك العاصمة التاريخية، مقراً لعمله. ولهذا السبب ارتبطت ذكريات طفولتي بمدينة تلمسان، حيث عشت من 1933 إلى 1941 ومن 1942 إلى 1945.

كان بودي لو وجدت للحديث عن منزل طفولتي عبارة مقتضبة كتلك التي استعملها أحد الشعراء الفرنسيين: «كنت طفلاً في عهد الجمهورية الثالثة، أسكن في الدائرة الرابعة عشرة، في بيت من القرن التاسع عشر». لكن مسرح طفولتي عرف العديد من البيوت.

سكنّا في البداية بيتا، أو قل هو بقايا بيت، بحديقة شاسعة في أغادير، بأطراف المدينة، كانت أمي تحتل الطابق الأول مع أبنائها، محمد الذي ولد في 1924، ورشيدة التي ولدت عام 1928، وأنا في 1932، وعرفت فيما بعد أن والديّ فقدا بنتاً اسمها حبيبة ولدت سنة 1926، وسيفقدان في ذلك البيت، في أغادير، ابناً اسمه علي، ولد سنة 1935، وفي الطابق السفلي كانت تسكن عمّتي مباركة مع أبنائها الأربعة، السعيد الذي ولد عام 1918، وحفصة التي ولدت في 1921، وقمرة في 1924، وعائشة في 1928، وكذلك ابن عمّة أخرى، هو الأخضر الذي ولد عام 1912.

إن حضور عمّتي وأبناء وبنات عمتيّ سببه أن والدي وجد بعد

عودته إلى الجزائر سنة 1921، بعد أن أقام في المشرق عشر سنوات، وجد أخته مباركة بدون عائل، وستصبح أرملة بعد سنوات، فكفلها هي وأطفالها وكذلك الأخضر، ابن أخته اليتيم.

أحتفظ من هذا البيت الذي احتضن طفولتي بذكريات ضبابية: كان خرير ماء النافورة هو الوحيد الذي يكسّر الصمت المخيّم على المكان كلّه، وفي سائر الأرجاء لم تكن ترى سوى الخضرة وأشجار الدلب والحور الباسقة. وكان هذا البيت يحتضن كل عام تجمعاً كبيراً بمناسبة المولد النبوي الشريف. فكانت تقام منصة في باحته حيث يجلس مئات تلاميذ والدي للاستماع إلى مدائح دينية وأناشيد وطنية ويشاهدون مسرحية. وكنت أشعر بفخر عظيم وأنا أستمع إلى والدي يلقى في صمت مهيب خطاب الاختتام، أو حين يلقي أخي، ولما يتجاوز العاشرة، قصيدة أو كلمة عن حياة الرسول (ﷺ) بعربية مهذّبة.

وفي هذا البيت الذي يعجّ بالأطفال كان والدي يحاول تحقيق الاكتفاء الذاتي للتقليل من المصاريف. وكان الأخضر يسهر على كل شيء. فكان هو الذي يتولى أمور الحديقة والمدجنة. وكان هو الذي يهيىء البغل كل يوم في الخامسة صباحاً ليحمل والدي إلى المدينة. وكان هو الذي يرافق أمي وعمتي والأطفال إلى الحمّام بسيارة أجرة. ويعود بهم في المساء.

وأدركت فيما بعد أن ابنّي عمتيّ، الأخضر والسعيد، كانا هما الملاكين الحارسين لطفولتي. لقد حملاني على أكتافهما وحافظا عليّ من كل الأخطار. وتعلّمت منهما الدارجة السطايفية، وفيما بعد سمعت والدي يتعجب كيف أن كلامي لم يشبه أيّ تأثير من اللهجة

التلمسانية. وهما اللذان علّماني ذلك الحنين إلى سطيف الذي ما يزال ساكناً في أعماقي إلى اليوم.

كان والدي في المرحلة الأولى يلقي دروسه في أماكن مختلفة، وراح عمله يتطور في الامتداد والعمق. وإذا كان تعليمه يجلب كثيراً من الأتباع، فقد أثار بالمقابل ضغينة الإدارة الفرنسية والزوايا الموالية لها. وهكذا تعرّض إلى العديد من الاستفزازات، بل حتى إلى محاولات اغتيال، كما حدث في معسكر. ولم يكن عمله منحصراً في عاصمة الزيانيين[11]، بل كان يتنقل إلى ندرومة، ومغنية، وسيدي بلعباس، ووهران، وسيق، وبيريغو (المحمدية)، وغيرها من المدن من أجل إقناع السكان بمنافع فتح المدارس والمساجد والنوادي الثقافية. وكان يسافر مرة في السنة إلى الجزائر العاصمة لحضور اجتماع المكتب الإداري لجمعية العلماء. وكان ذلك بالنسبة إليّ وأنا طفل، مصدر فرح كبير لأنّ والدي كان يعود دائماً بلعب يهديها إليّ.

في 1936 غادرنا بيت أغادير الهادىء الفسيح المخضرّ لنقيم في وسط المدينة، بشارع سيدي إبراهيم بالقرب من مسجد سيدي إبراهيم المصمودي، في بيت يقع بزقاق يكاد يبدو لي فيه كل شيء ضيّقاً: الزنقة المفضيّة إليه، وصحن الدار، والغرف، ناهيك عن الجدران والضجيج والجيران.

كان والدي لا يكلّ ولا يبالي بالتعب. فعند الفجر كان يلقي دروساً في حلقة من خمسين شاباً من شباب تلمسان، وبعد الظهر كان يخطب في ناد حول ماضي الجزائر أو مستقبلها، وفي المساء كان يجمع حوله أتباعه بعد درس في تفسير القرآن الكريم من أجل تجسيد المشروع الذي طالما راوده وشرع في تنفيذه، وهو بناء «دار

الحديث»، وهو مجمّع تربوي وديني حقيقي يضم قاعة للصلاة في الطابق السفلي، لأن الإدارة الفرنسية منعته من الوعظ والإرشاد في المساجد الرسمية، وقاعة للمحاضرات في الطابق الأول، وقاعات للتدريس في الطابق الثاني.

وقد سمّاه «دار الحديث» تيّمناً بالمدرسة التي تحمل الاسم نفسه في دمشق (التي أسّسها نور الدين زنكي) وتخليداً لذكرى نظام الملك وصلاح الدين الأيوبي اللذين اشتهرا بتأسيس المدارس. وترمز هذه المؤسسة إلى عمل جمعية العلماء في الجزائر المتمثل في بناء مدارس للأطفال لتدريس اللغة العربية والتاريخ والعلوم، ونواد للشباب لإقامة نشاطات ثقافية وفنية ورياضية، ومساجد لجميع الناس.

لماذا كانت كلّ هذه المؤسسات تنعت بـ «الحرّة»؟ كان ذلك تمييزاً لها عن دار العسكري، النادي «الأهلي» الذي كان يتردّد عليه قدماء المحاربين المسلمين في الجيش الفرنسي للحصول على الصدقة، وتمييزاً لها أيضاً عن المساجد العديدة التي استولت عليها فرنسا عند احتلال الجزائر، وأشرفت علي تسييرها.

أليس من العار أن تعيّن الإدارة الاستعمارية أئمة المسلمين على أساس الولاء وليس وفق معايير الورع والعلم، وهو عكس ما تفعله مع رجال الكنيسة والمعابد اليهودية؟ كنّا نجد أنفسنا أمام مثل هذا المشهد المحزن: وهو أن أصحاب الوظائف التي أسّست لمجد الإسلام، والذين كانوا معارضين للخليفة نفسه، أصبحوا في الجزائر مثار سخرية. هل يمكن تصوّر مفت شبه أميّ، وإمام مخبر للشرطة، وقاض سكير؟ أجل عرفت ذلك في الجزائر في العهد الاستعماري. وهو ما يفسّر كون أحد المطالب الأساسية لجمعية العلماء كان يتمثل

في فصل الدين الإسلامي عن الدولة الفرنسية[12]. وفقاً لقانون 1905 حول اللائكية الذي رفضت فرنسا تطبيقه في الجزائر.

يمكن القول إن تلمسان شهدت في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي ثورة ثقافية حقيقية: فكان «نادي الشبيبة» و«نادي السعادة» عبارة عن حلقات يلتفّ حولها الناس للنقاش، وهم يشربون الشاي بالنعناع، أو يستمعون إلى محاضرة أو يحضرون حفلة موسيقية. وكان والدي من مشجّعي إنشاء «أصدقاء الكتاب»، وهي مكتبة يمكن أن تستعير منها مختلف المؤلفات في الأدب والتاريخ والفلسفة باللغتين العربية والفرنسية. وكان هو، أيضاً، وراء إنشاء مطبعة ابن خلدون المقابلة لكوليج دي سلان[13]، (يا له من رمز في التقاء المؤرخ ومترجمه!) ووراء ازدهار الحركة الكشفية، ووراء ميلاد المسرح، حيث كان طلّابه يؤدون أدواراً في مسرحيات الشاعر الكبير أحمد شوقي.

وبالإضافة إلى هذا العمل في العمق، نجح في إصلاح ذات البين بين الكراغلة المنحدرين من أصول تركية وبين الحضريين، الذين كانوا قبل مجيئه إلى تلمسان في خصومة دائمة، تشتد كلّما اقتربت الانتخابات البلدية. ونجح في لمّ شملهم في حزب واحد هو حزب «الإبراهيميين»، كما كانوا يسمّونهم، أو «الإصلاحيين» الذين انتصروا في الانتخابات البلدية سنة 1935، والذين كان قادتهم يشكّلون الحرس المقرب من الشيخ، من وجهاء المدينة الذين يحترمهم السكان من أمثال: محمد بن مرزوق، وعبد القادر قاراجة، وعبد الرحمن القورصو، وعمر حساين، وبومدين دالي يوسف، وعبد القادر قوار، وعبد السلام ومحمد الصغير بوصالح، وعبد الكريم بربر، وعبد اللّه

بريكسي، وهبري الشافعي، وعمر بن قرط، وغوتي بخشي، وعبد الكريم بوشناق، وبن علي بوعياد إلخ... أما الأساذ عبد السلام طالب ومحمد بن سليمان منصوري، فقد كانا يؤدّيان بمهارة دور التوازن بين هذا الفريق من الوطنيين وبين الإدارة الاستعمارية. ولن أنسى، من بين هذا الحرس المقرّب، بلقاسم الجزّار، تلك الشخصية خفيفة الروح. كان عملاقاً، يجلس دائماً في الصفوف الأولي، حين كان والدي يتناول الكلمة، وكان دائماً مستعداً للعراك، ويقوم بدور الحارس الخاص.

كما أنّني لم أنس محمد قاضي القلعي الذي كان الوالد يعتبره صديقاً، ولكن القلعي يتحاشى الظهور بجانب صديقه لأنّه موظّف عند السلطات الاستعمارية كوكيل قضائي، ولم يكن مسموحاً للموظّف أن يتردّد على رجال الحركة الوطنية، ومن جهة أخرى فإنّ القلعي من منطقة تيارت ولم يندمج تماماً في المجتمع التلمساني.

وما يجمع الرجلين هو شغفهما بالشعر الجزائري العامي (الملحون). كلّ منهما يحفظ آلاف الأبيات، وكان كل منهما يُكمل الآخر: فالوالد وهو ينشد قصائد من الشرق الجزائري كان يكتشف مع صديقه كبار شعراء الغرب الجزائري الذين نشر القلعي بعض إنتاجهم في أوّل ديوان عن الشعر الملحون الجزائري[14].

وكان العديد من أنصار الشيخ منضوين في حزب الشعب الجزائري[15]. ولم يكونوا يجدون أي تناقض في النضال في الحركتين في آن واحد. وكانوا يعتبرون الحركتين متكاملتين: حزب الشعب الجزائري يوقد فيهم جذوة استقلال الجزائر، وجمعية العلماء تسند أسس وطنيتهم (الإسلام واللغة العربية). وكانت الحركتان

تنشدان الأهداف نفسها، وإن اختلفتا في الوسائل. الأولى كانت تولي الأهمية للعمل السياسي، أما الثانية فقد كانت تعطي الأفضلية للتربية. وسيثبت التاريخ أن اقتران هاتين الحركتن الوحيدتين اللتين نفذتا إلى عمق الجزائر، هو الذي سيهيىء، ببطء لكن بالتأكيد، من سيصبحون مجاهدين في المستقبل.

ونجح الشيخ، أيضاً، في التقريب بين المتعلمين بالعربية، وأغلبهم من طلبته؛ وبين خريجي الجامعات الفرنسية. وإذا كان بعض هؤلاء يتفادون لقاءه والاتصال به خشية بطش السلطات، فإن أغلبهم كانوا يتقربون إليه، إما بالحضور علناً في محاضراته أو بالمساهمة بحذر في الجمعية التي أسّسها لتسيير «دار الحديث». وكان من هؤلاء أطباء مثل علال ومرابط، وصيادلة مثل بن عليوة وتريكي، وأطباء أسنان مثل بريكسي ومصلي، ومهندسون معماريون مثل عبد الرحمن بوشامة. ومحامون مثل عمر بوقلي حسن، ومعلمون مثل بلخروبي، وذهب بعضهم إلى حد النضال النشيط في صفوف جمعية العلماء، مثل البروفيسور عبد القادر محداد.

ما زلت أحتفظ بذكريات حيّة عن السنوات التي قضيتها في هذا المنزل بشارع سيدي إبراهيم:

● كان ابن عمتي الأخضر يشتغل بناءً، وكان لا يعود إلى البيت إلا في وقت متأخر. لذلك أصبح السعيد ابن عمتي هو ملاكي الحارس. وكان عاملاً في مطبعة، وفي أيام الآحاد كان يقودني في نزهة إلى أرباض تلمسان، مثل البرّية، وقبر لالاّ ستّي، وسيدي بومدين، وشلالات الوريط، وعين الحوت، وعين فزة، وآثار المنصورة إلخ. . . ولعل حبي للنزهة مشياً يرجع إلى هذه الفترة. وبعد النزهة

كان السعيد يحملني معه إلى نادي السعادة الذي كان كثير التردد عليه، وحيث كان رواده يتحدثون عن حزب الشعب الجزائري ومصالي الحاج[16]، وعن كرة القدم (لم تتأسس بعد الشبيبة الرياضية الإسلامية لتلمسان لتنافس الاتحاد الفرنسي العربي لكرة القدم)، وعن السينما، وعن الموسيقى الأندلسية، حيث بدأ اسم الشيخ العربي بن صاري يحجب اسم الشيخة طيطما.

• وأحتفظ بصورة أمي التي كانت صارمة مع أبنائها، سواء في قواعد النظافة أو في القيم الأخلاقية. وقد تعلّمت منها أغاني وحكايات وأمثالاً وأحاجي، باختصار كل ما في مخزون ثقافتنا الشعبية، التي شكّلت أفضل ترياق واق من الاغتراب، بتمجيدها لمقاومة المحتل، وفضحها للشعوذة، وغرسها لحب الوطن في النفوس.

• وأذكر اليوم الأول لصيامي. كنت في السادسة من العمر. وكان التقليد الشائع في العائلات الجزائرية أن يصوم الطفل يوماً من أيام شهر رمضان، كدربة للنفس على مشاق هذا الشهر الفضيل. وكانت العائلات تحتفل بهذا اليوم. لبست أجمل ثيابي، وكنت محط أنظار الجميع، وكان من حقي ساعتا نزهة على متن سيارة من نوع بانهارت، إذا لم تخني ذاكرتي. وكانت ملكاً لأحد أنصار والدي من أثرياء المدينة.

• وما زالت ذكريات زيارات الشيخ عبد الحميد بن باديس العديدة إلى والدي عالقة بذهني. كانا يصلان إلى البيت مساء. وكنت أنا الذي أصب من إبريق نحاسي ماء وضوئهما. وكانا يسهران طويلاً، وفي الصباح الباكر كان ابن باديس يركب القطار باتجاه الجزائر

العاصمة. ويومذاك كنت ألحظ المفارقة الأخّاذة بين جسده الزاهد النحيل وصوته الجهوري الأخّاذ، بين نظرته العذبة و«حضوره» الساحق. كان يضع يده على رأسي، ويدعو لي ببعض الأدعية. وترك ذلك عليّ كطفل، انطباع الرجل الذي يجسد القداسة.

ويوم تدشين «دار الحديث»، سنة 1937، خرج آلاف التلمسانيين في مسيرة ضخمة لاستقباله ومرافقته من محطّة القطار إلى المدرسة. أذكر أنّي بكيت في ذلك اليوم بدموع حرّى، لأني وصلت، بعد أن غسلتني أمي ومشطت شعري وألبستني أفضل ثيابي، متأخراً إلى الاحتفال بالتدشين.

• كان هناك زائر مرموق آخر يأتي مرتين في السنة على الأقل، وهو إبراهيم الكتّاني[17]، مبعوث الحركة الوطنية المغربية. وكان الغموض والسرية يكتنفان زياراته. ولم يكن والدي يستقبله في «دار الحديث»، وإنما في البيت، بعيداً عن أنظار وأعين الإدارة الفرنسية، وما أكثرها!. وكان هو الذي يخبر والدي بنشاطات الحركة الوطنية ومحن زعيمها علال الفاسي. والجهود الإصلاحية للشيخ محمد بلعربي العلوي، وعن الظهير البربري[18] إلخ...

وكان هو، أيضاً، من يطلع والدي على كل ما كان ينشر بالمغرب الأقصى من نصوص قديمة ومجلات وجرائد ومؤلفات حديثة. وليس صدفة أن يكون هو الشخصية غير الجزائرية الوحيدة التي حضرت تدشين «دار الحديث»، وكأني بالوطنيين المغربيين، الذين لم ينكروا يوماً تأثير جمعية العلماء الجزائريين في عملهم، أرادوا بذلك تثمين هذا الحدث.

وحين سيدرس المؤرخون العلاقات المغاربية في الفترة

الاستعمارية، سيسجلّون بكل تأكيد دور إبراهيم الكتاني كرائد للعلاقات الجزائرية المغربية، وكهمزة وصل بين الوطنيين في المغرب الأقصى والجزائر.

● كما أتذكّر أربعة طلاّب عراقيين يَدرسون في جامعات ألمانية استطاعوا اختراق الستار الحديدي الذي يفصل بين مغربنا ومشرقنا بالسفر للجزائر في رحلة دراسية مكنّتهم من زيارة الوالد بتلمسان حيث استقبلوا بحفاوة، ولم يبقَ في ذاكرتي من الطلاّب الأربعة إلاّ اسم عبد الجبّار الجومرد الذي أصبح فيما بعد أستاذاً بجامعة بغداد وأصدر عدّة مؤلفات تاريخية.

● وإن نسيت فلن أنسى سفري الأول في القطار. فقد صادفت أيام عطلتي اجتماعاً للمكتب الإداري للجمعية، فقرّر والدي اصطحابي معه إلى الجزائر العاصمة. وقد أذهلتني زيارتي الأولى هذه إلى العاصمة، وأدهشني اكتشافي البحر. أكيد أن البحر كان يَفْتِنُني باتساعه ومجاهله وأهواله، لكني لم أتعلق به رغم عشقي للحرية.

كان كل أعضاء المكتب الإداري للجمعية ينزلون في فندق «الديوان»، القريب من نادي الترقي[19]، مقر الاجتماع. وكان الشيخ ابن باديس يطرق باب غرفة والدي كل صباح قائلاً له: «سأدعك تكتب في هدوء، وآخذ أحمد معي». وكنت فخوراً أن يأخذني هذا الرجل من يدي، والناس يحيّونه، إما من على بعد بتحية احترام، وإما بمصافحة حارة، وإما بتقبيله على الرأس.

وكان يقوم بنزهته اليومية سيراً على الأقدام من ساحة الحكومة إلى ساحة بروسون[20]، مروراً بشارع باب عزون، ثم يعود سالكاً

طريق الكورنيش المطل على البحر الأبيض المتوسط بعد استراحة على مقعد في الساحة. وحين نعود إلى الفندق نجد والدي لا يزال منهمكاً في الكتابة.

• أعتقد أن أسعد لحظات طفولتي عشتها في بيت آخر، هو مسكن ثانوي يعود لأحد أصدقاء والدي، هو جلول حاج سليمان، الذي كان يضعه تحت تصرّفنا كل صيف. فهو لا يبعد عن تلمسان إلا ببضعة كيلومترات، ويقع في الوريط، ويشبه إلى حد بعيد بيت أغادير، بوسائل راحة أقل، لكن بمجرى ماء يقطعه وينحدر من شلّالات الوريط الشهيرة. كانت العائلة كلّها تتمتع فيه كل صيف طيلة شهر كامل بدفء الشمس ونقاء الهواء ولطافة الجو، دون أن ننسى السباحة الصاخبة التي لم أكن أسأم منها قطّ. ولكن كانت خيبتي كبيرة من قصر هذا الشهر، لما كنت مضطراً إلى العودة إلى كآبة حي سيدي إبراهيم والدخول المدرسي. وربما كان والدي يحمل من حين لآخر كل أسرته الكبيرة، هروباً من هذه الكآبة، للتنزه في الهواء الطلق في غابات تلمسان المجاورة. وأصبحنا، حتماً، عائلة تهوى الريف والأكل في أحضان الطبيعة.

• أتذكر، أيضاً، طبيبين من تلمسان كانا يترددان على بيتنا ملبّيَيْن، من دون تردد، دعوتنا. وهما الدكتور علال بهيئته المهيبة، والدكتور مرابط الخدوم الودود. ولما كثر عدد الأطباء في المدينة، كان والدي ينصح ويشجع أصحاب الشهادات الجدد بالاستقرار في حواضر أخرى من منطقة وهران. وهكذا أصبح الدكتور بلخوجة شخصية تحظى باحترام كبير، بعد أن استقر في مدينة سيدي بلعباس.

• كان العمل الإصلاحي الديني والاجتماعي الذي شرع فيه

والدي يشمل أيضاً العادات والسلوك: كان يشجع تعليم البنات، وتيسير الزواج بمحاربة مطالب أهل الخطيبة المبالغ فيها بفرض مهر رمزي، ويحارب الطلاق السهل إلخ. . .

قرب مسكننا بشارع سيدي إبراهيم يوجد مسجد صغير يسمّى سيدي بو عبد الله حُوِّل إلى مدرسة قرآنية. تم تسجيلنا فيها (أختي رشيدة وابنة عمتي عائشة، كلتاهما بلغتا الثامنة من العمر) وأنا. ويشرف على المدرسة رجل أدّى، بلا ريب، دوراً لا يستهان به في نهضة تلمسان، وهو الشيخ بكار، واسمه الحقيقي هو أبو بكر مراح. وكان يستخدم قاعة الصلاة كمدرسة لتحفيظ القرآن، ويلقي دروساً في قواعد اللغة العربية في قاعة صغيرة مجاورة. وإذا كانت أختي وابنة عمتي نجحتا في حفظ القرآن عن ظهر قلب في ظرف سنتين، فلم أحفظ أنا إلا قصار السور وبعض مبادىء اللغة العربية، لأني التحقت ابتداء من الدخول المدرسي لسنة 1937 بالمدرسة الفرنسية. وخلال هذه الأشهر القليلة تلقيت عقوبة «الفلقة»[21] بسبب إهمال لحفظ درس أو غياب غير مبرر. وإيّاك أن تختفي في ركن لإغفاءة قصيرة أو للثرثرة.

يبدو لي اليوم أن الشيخ بكار كان يمثل مرحلة انتقالية بين المدرسة القرآنية التقليدية، حيث كان التلاميذ يتلون بشكل آلي النص القرآني مطوّرين لديهم ملكة الحفظ، ومدرسةَ جمعية العلماء التي كانت عبارة عن مدرسة حديثة، تدرّس فيها الآداب والعلوم، حيث تطلق بشكل منسجم ملكات الطفل كلّها. وعلى المستوى المادي بلغت هذه المدرسة ما بلغته المدرسة الفرنسية.

كان والدي معارضاً للالتحاق بالمدرسة الفرنسية بسبب محتواها

الاغترابي. والدليل على ذلك هو أن أخي، الذي كان عمره تسع سنوات حين قدمنا إلى تلمسان سنة 1933، لم يدخلها. والشيخ ابن باديس هو الذي أقنع والدي بفوائد تعلّم الفرنسية خلال زيارته إلى تلمسان في السنة نفسها. وقد روى لي أخي بأنه كان شاهداً على حديث مثير بين الرجلين بشأنه. وكان ابن باديس يرى أن اللغة الفرنسية ستساعدنا في كفاحنا، مستشهداً بمثال الأمين العمودي[22]، الذي برع في اللغتين، وأفاد بذلك الجمعية. وابن باديس، نفسه، هو الذي رافق أخي إلى أقرب مدرسة من أغادير، وهي مدرسة ديسيو التي سيتردد عليها، ويتابع في الوقت نفسه دروس والدي. وقد مكّنه ذلك من اتقان اللغتين بامتياز.

وكان أخي هو الذي سجلني في مدرسة ديفو DUFAU. وكان لقائي الأول بالمدرسة الفرنسية صدمة حقيقية. فقد شعرت بالغربة وسط زملائي، وغالبيتهم فرنسيون يتحدثون لغة أسمعها لأول مرة. وهنا أيضاً اكتشفت الغيرية. وأردت الهروب عدة مرات، لكن معلّمتي، السيدة ديكرو، نجحت برقّتها ورحابة صدرها أن تحبّب إلى نفسي المدرسة واللغة الفرنسية في آن واحد. فبعد أن شعرت بالشقاء في اليوم الأول، سرعان ما أصبحت مهتماً بشغف. وبفضلها أصبحت تلميذاً نجيباً خلال السنوات اللاحقة. كنت في غالب الأحيان الأول في القسم، وكنت أصدم في كبريائي حين كنت أحصل على الرتبة الثانية، وأنا أرى والدي يوّقع على كشف النقاط. وقد واصلت مثابرتي في التحصيل طوال المرحلة الابتدائية، ويرجع الفضل في ذلك إلى أمي التي حمتني بصرامتها من شرور الشارع وعشرة السوء.

في العاشر من أفريل 1940 صدمت صدمة أخرى جعلتني

أكتشف بشكل عنيف الظاهرة الاستعمارية. ففي الساعة الخامسة صباحاً اقتحمت الشرطة الفرنسية بيتنا لاعتقال والدي واقتادته بعنفٍ نحو وجهة مجهولة.

لقد أقلقت الحركة الشعبية التي كان والدي يقودها في تلمسان السلطات الفرنسية التي انتهى بهم الأمر إلى «تحييد أذاه» بإبعاده عن تلمسان بمئات الكيلومترات. وقد علمت فيما بعد أن السبب المباشر لنفيه هو رفضه القاطع لتأييد فرنسا في حربها مع ألمانيا.

في الأول من سبتمبر 1939 عبرت الجيوش الألمانية حدود بولونيا، وفي الثالث منه أعلنت بريطانيا العظمى وفرنسا الحرب على ألمانيا. وابتداء من هذا التاريخ قرّرت فرنسا تحييد الوطنيين الجزائريين ليستتب لها الأمر في الجزائر. كان مصالي الحاج في السجن، وكان ابن باديس مصاباً بمرض عضال وكانت أيامه معدودة، ولم يبق إلا الإبراهيمي، الذي جعل من تلمسان مركز إشعاع للإسلام والوطنية.

في نهاية 1939 قام القاضي محمد بن حورة برحلة أولى من الجزائر العاصمة إلى تلمسان، وكلّفه النقيب شون SCHOEN مسؤول مصلحة الاتصال في شمال إفريقيا، (أي مصالح المخابرات في الواقع) بإقناع الشيخ الإبراهيمي بتحديد موقفه عبر أمواج إذاعة الجزائر من النزاع العالمي، لكن الشيخ رفض متحججاً بكون الشعب الجزائري لا ناقة له ولا جمل في هذه الحرب، حتى وإن أرغم أبناؤه على أن يحاربوا إلى جانب فرنسا، وأمام هذا الرفض أغلقت مدرسة «دار الحديث» بأمر من الوالي.

وفي مطلع عام 1940 كرّر ابن حورة خلال زيارته الثانية إلى

تلمسان الطلب باسم الحاكم العام للجزائر، مشفوعاً بوعد بإنشاء منصب شيخ الإسلام (مفتي الديار الجزائرية) يسند إلى الشيخ الإبراهيمي. وأمام رفضه للمرة الثانية، قرّرت فرنسا كما سبق وضعه تحت الإقامة الجبرية بأفلو على بعد مئات الكيلومترات.

بعد مضي عشرة أيام انتهى إلى علم العائلة أنّ والدي يوجد تحت الإقامة الجبرية بأفلو، وهي قرية في الجنوب الوهراني، وأن أهله وأصدقاءه ممنوعون من زيارته. لقد غمرنا، والحق يقال، تلاميذه في مدرسة «دار الحديث» بأسمى صور التعاطف، ويبدو هذا الأمر طبيعياً. لكن حين اختلى بي جانباً ذات يوم معلمي، السيد بيرسيل Persil، وسألني عن أخبار والدي شعرت بالدهشة والتأثر. وقد ظلّ التلمسانيون يتذكرون طويلاً هذا المعلّم الفرنسي، عضو الحزب الشيوعي، الذي كان يحلو له ترديد: «أحبّ تعليم الأطفال الجزائريين. إنها طريقتي الخاصة في التكفير عن ذنوب بلدي الذي حمل إليكم، بحد السيف، الإنجيل والكحول والسيفليس». أجل. الإنجيل لتنصيرنا، والكحول لإفسادنا، والسيفليس (الزهري) للقضاء علينا.

ولم يكتف هذا المعلّم بتثقيفنا، بل حوّل بعض تلامذته - وأنا منهم - إلى هواة جمع الطوابع البريدية، ولعل إفراطي في التدقيق مصدره ذلك الاعتناء بترتيب الطوابع.

وكان علينا انتظار صيف 1941 لكي ترّخص السلطات الفرنسية لأسرتنا تحديداً (أمي وأبناؤها الأربعة) الالتحاق بوالدي.

بمجرد وصوله إلى أفلو أقام والدي بالفندق الوحيد في القرية، فندق جبل عمور، الذي كانت تديره عائلة هرنانداس، ونزل في الغرفة رقم 7. وهناك علم برحيل رفيق دربه الشيخ عبد الحميد بن باديس

الذي توفّاه اللّه يوم 16 أفريل. وحين علم الشيخ ابن باديس برفض صديقه ما عرضته عليه فرنسا، وما ترتّب عن ذلك من وضعه تحت الإقامة الجبرية، بعث إليه خطاباً مؤرخاً بـ 13 أفريل، ربما هو آخر ما كتبه، يعبّر له فيه عن تضامنه وإعجابه، ويقول فيه: «فقد بلغني موقفكم الشريف الجليل العادل فأقول لكم: «الآن يا عمر»، فقد صنتَ العلم والدين صانك اللّه وحفظك وتركتك، وعظمتَهما عظّم اللّه قدرك في الدنيا والآخرة، وأعززتهما أعزك اللّه أمام التاريخ الصادق، وبيّضت محياهما، بيّض اللّه محياك يوم لقائه، وثبّتك على الصراط المستقيم». وإنني أتصوّر مدى تأثر والدي بهذا المصاب الجلل المتمثل في وفاة الشيخ ابن باديس، ونجد أصداء ذلك في ما خلّفه من كتابات في تلك الفترة.

كان والدي في أيامه الأولى بأفلو يشعر بعزلة زاد من هولها تجنّب سكان أفلو بصفة عامة زيارة الضيف المبعد من تلمسان خشية انتقام الإدارة. لكن سرعان ما شرع بعض المتعلمين في القرية. من أمثال محمد بن داود ومحمد مريّح، في زيارته باستمرار في فندق جبل عمور.

في أوت 1941، وبعد الحصول على ترخيص للأسرة بالالتحاق بوالدي، اكترى شقّة متواضعة لاستقبالنا، أمي وأخي محمد وأختي رشيدة وأختي الأخرى زينب التي ولدت في غرة نوفمبر 1938 بتلمسان.

إن التلمسانيين، بعد صدمة الإبعاد القسري لشيخهم، لم يهنوا، وعندما سمحتْ لهم السلطات الاستعمارية بزيارته هبّوا، وكان أوّل مَن توجّه إلى أفلو السيدان علي كرّوم ومحمد بن زيان بن سنوس،

اللذان برهنا على شجاعة ووفاء نادرين، واللذان فتحا الباب لزيارات أخرى.

لقد وضعت، بالتأكيد، الحكومة الفرنسية بنفيها لوالدي حداً لتعليمه ولعمله بصفة عامة في الغرب الجزائري. لكنها قدّمت، من حيث لا تقصد، خدمة جليلة لأبنائه الذين أصبحوا لأول مرة ينعمون بحضوره وعلمه. فبعد صلاة الفجر في كل يوم كان والدي ومحمد ورشيدة يتلون جزءاً من القرآن الكريم، ثم نجلس حول مائدة وكل واحد منا يحمل كرّاساً. وكان والدي يملي علينا آية قرآنية، أو حديثاً نبوياً، أو أبياتاً من الشعر العربي. وكانت أول آية فسّرها لنا هي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾، وأول حديث شريف شرحه لنا هو: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**». وأول شعر حفظته عنه هو هذان البيتان:

رضينـــا قسمـة الجبــار فينا لنـا علـم وللجهال مال

فإن المال يفنى عن قريب وإنّ العلم باق لا يزال

ثم بعد ذلك يخوض في تعليقات على ما أملاه، متبوعة باستطرادات فلسفية وأخلاقية وتاريخية. وكان في بعض الأحيان يلقي علينا درساً حقيقياً في التاريخ، حيث يتوقف مليّاً عند التيارات الكبرى أكثر من توقفه عند الحوادث. باختصار، أعتقد أنني مدين إلى هذه الفترة فيما تعلّمته بالعربية.

التأم لأول مرة شمل الأسرة. وهكذا كان لديّ متسع من الوقت لملاحظة الوالدين.

كانت أمي في الأربعين من العمر، تنعم بالصحة والصفاء.

وكان وجهها يوحي بالطمأنينة ويتسم بالإشعاع، ميزتها صبر جميل وهي ترعى الجميع، وتسهر على كل شيء، أعتقد أن ورعها الرزين ساعدها على تخطي المحن التي ألمّت بها.

وكان والدي قد جاوز الخمسين، وكان متوسط الطول، ذا بنية قوية. وكان في عنفوان نشاطه. وكانت عيناه براقتين، وأسنانه لامعة، بسحنة بيضاء، ولحية مقدودة، وكان يحمل عصا بسبب عرج أصيب به في طفولته. وكان يتألّق طيبة. وكانت ابتسامته الرقيقة تخلق من النظرة الأولى وداً مدهشاً يسمح له بالتواصل مع أقل الناس انقياداً.

كان مناخ أفلو قاريا حاراً جداً صيفاً وشديد البرودة شتاء بثلوج غزيرة. وكان والدي مضطراً كل يوم اثنين أن يقطع، ومهما تكن حالة الطقس، أكثر من كيلومتر مشياً على قدميه ليذهب إلى مقر «الجندرمة» في الطرف الآخر من القرية من أجل التوقيع على وثيقة تشهد أنه لم يغادر أفلو.

كنت مسجلاً في المدرسة البلدية في السنة الخامسة ابتدائي. وكان مدرّسنا هو السيد مارشال، مدير المدرسة نفسه. وكانت أقلّية من الفرنسيين تدرس معي، منهم ابن الحاكم الإداري غيزولفي GHISOLFI. وكانت القرية تبدو معزولة عن العالم الخارجي وعن السياسة والحرب. باستثناء صباح الاثنين حين كان المدرّسون والتلاميذ يحضرون في ساحة المدرسة لرفع الألوان الفرنسية وإنشاد نشيد «أيها المارشال[23]، ها نحن على استعداد».

كان المدرّسان الجزائريان الوحيدان بالمدرسة هما السيد محمد العيد وأحمد صبار. وكانا يزوران من حين إلى آخر والدي، وكان

صبّار متزوجاً بمعلّمة فرنسية قادمة من فرنسا، وعندما وضعت هذه الأخيرة بنتاً[24] عشية شهر رمضان ونظراً لعدم وجود مَن يحضّر لهما الطعام، قرر الوالد أن تتولى الوالدة إعداد الإفطار لهما طيلة الشهر، وهكذا كنتُ يومياً قبيل الأذان أحمل الأكل من بيتنا إلى المدرسة حيث كانا يقيمان. وكان أكثر سكّان أفلو مداومة على هذه الزيارات هو عمار سليمان طالب الذي سيصبح سكرتيراً لوالدي، وهو منحدر من منطقة القبائل الكبرى، وكان قد درس في مدرسة المعلّمين ببوزريعة، واضطر إلى تركها حين توفي أبوه وخلفه في دكانه بأفلو من أجل إعالة أسرته الكثيرة العدد. أما أخوه الأصغر السعيد، الذي ولد في 1930، فقد أصبح رفيقي وصديقي. وقد تقدمنا لنيل شهادة التعليم الابتدائي معاً في تيارت في جوان 1942، فقرّر والدي عدم ترك السعيد يضيع في أفلو وسجّله معي في آن واحد في السنة الأولى إعدادي في ثانوية دي سلان DE SLANE بتلمسان.

ها أنا ذا من جديد في تلمسان في أكتوبر 1942، لكن هذه المرة من دون والديّ اللذين بقيا في أفلو. وسكنّا، أنا والسعيد، عند عمتي.

يجب أن أعترف أنني كنت تلميذاً ممتازاً خلال دراستي الابتدائية، لكنني أصبحت كسولاً في المتوسطة، على الأقل خلال السنتين الأوليين. وكنت أذهب إلى «الحوض الكبير»[25]، رفقة السعيد. لألعب كرة القدم، وكنا نتردد على دور السينما مرة في الأسبوع. وكانت أفلامنا المفضلة هي أفلام جيمس كاغني وروبير تايلور وبيير بلانشار. وكنا نستأجر دراجات ونقوم برحلات طويلة في أرباض تلمسان.

لم يكن الناس في أفلو يشعرون بالفاقة من جراء الحرب. فلم يكونوا يجدون ما يشترونه إلا نادراً. وكانوا يتزودون بالحليب والزبدة والبيض والدجاج من السكان أنفسهم، وكان أكبر مشكل واجهنا هو فقدان الأحذية في السوق، وقد لبستُ حذاءاً مصنوعاً من بقايا العجلات المطاطية للسيارات، مدعّماً في فصل الشتاء بجوارب صوف من صنع أختي رشيدة. لكن الوضع في تلمسان، كما في كل المراكز الحضرية، بالتأكيد، كان مغايراً. فقد كان الجوع حقيقة صارخة، وغيّر تقنين المواد الغذائية من عادات السكان. وكان الشمندر والخرشف هما القوت اليومي. وكان اللحم مفقوداً، وانتشرت المواد البديلة، فعوّض الحمص البنّ، واستبدل السكر بالتمر.

وبعد ثلاث سنوات من الإقامة الجبرية في أفلو، أطلق سراح والدي في جانفي 1943، بعد ما استقبله في الجزائر العاصمة الجنرال هنري جيرو، الحاكم المدني والعسكري للجزائر في 23 ديسمبر، رفقة عمار سليمان طالب، ثم التحق بتلمسان حيث استقبل بحفاوة منقطعة النظير.

وفتحت مدرسة «دار الحديث» أبوابها من جديد. وكنت أنا والسعيد نتابع فيها دروسنا، بالإضافة إلى دروس المتوسطة الفرنسية بجدية، لأن عودة أمي إلى تلمسان قلّلت من خروجنا ودفعتنا إلى المثابرة في التحصيل باللغتين العربية والفرنسية.

وكان المدرّسون في «دار الحديث» من تلاميذة والدي، أمثال محمد بابا أحمد، وعبد الوهاب بن منصور، ومولاي حسن القادري، وجيلالي حجاج، ومختار الصبّان، وعبد اللّه بوعنان، ومحمد

ملوكة، وأحمد شاوي، ومنير شلبي. وقد واصل بعض تلاميذ والدي دراستهم بالفرنسية حتى شهادة الباكالوريا، مثل بومدين الشافعي الذي هاجر إلى مصر، وأصبح مختصاً مشهوراً في علم النفس، وبشير قليل الذي عجّل به الموت، والتيجيني هدام[26]، وعبد المجيد مزيان[27]، اللذين اشتهرا في الجزائر المستقلة. الأول كطبيب جراح، والثاني كعالم اجتماع.

وكلّهم يذكرون دروس والدي بطرق مختلفة. بعضهم يثمّن فيه معرفته الجيدة للغة العربية، وبعضهم الآخر يتوقف عند قدرته على الارتجال، وآخرون معجبون بسعة اطلاعه. لكنهم كلّهم، بدون استثناء، يتفقون على التأكيد على فصاحته التي كانت تنسيهم رتابة خطب الجمعة التي تعوّدوا عليها. وفضلاً عن ذلك، كانوا كلّهم يعترفون بدفئه الإنساني وذاكرته الخارقة، وجمعه بين الموهبة الأدبية وتفقهه في الدين. أما العلماء الذين عرفوهم من قبله، فقد كانوا إما فقهاء وإما أدباء.

في دار الحديث حفظنا عن ظهر قلب قصيدة للشاعر المصري محمود غنيم كانت صدرت في مجلة «الرسالة» سنة 1935 تحت عنوان «وقفة على طلل» من أجمل أبياتها:

أنّى اتجهتَ إلى الإسلام في بلد     تجده كالطير مقصوصاً جناحاه

ويحَ العروبة كان الكونُ مسرحها     فأصبحت تتوارى في زواياه

كم صرّفتنا يدٌ كنّا نصرّفها     وبات يملكنا شعب ملكناه

وقد لحنّها أحد الفنانين اسمه «حدّادي» وأصبحنا نُنشدها في المناسبات بجانب أناشيدنا الوطنية.

ذات يوم تناول السيد بابا أحمد في درسه تاريخ الزيانيين والمرينيين[28] وتأسيس المنصورة[29]. وكان درسه بمثابة المنبه الذي فتح عيوننا على أشياء جديدة. وبدأنا مع مجموعة من الأصدقاء نزور هذه الآثار كل يوم أحد. ولم يكن الدافع الذي يحرّكنا هو الحنين الكئيب إلى هذه الرسوم، لكن الرغبة في العودة إلى المنابع. وكنا نتساءل إذا كان أجدادنا قادرين على تشييد مدن كهذه والدفاع عنها، فما الذي يمنعنا نحن من طرد الغزاة وإقامة العمران؟ ذات مرة ركبنا حافلة باتجاه أبعد إلى ندرومة، مسقط رأس عبد المؤمن بن علي[30]، الذي وحّد منطقة المغرب العربي، وأصبح بطلنا الوطني منذ قدّم لنا السيد بابا أحمد صورة تقريظية عنه.

ومن جهة أخرى، ومنذ الأيام الأولى لارتيادي مدرسة دي سلان، استدعى المدير غالان GALLAND كل التلاميذ المسجلين في السنة الأولى متوسط ليطرح عليهم هذا السؤال الغريب: ما هي اللغة الأجنبية الأولى التي تختارونها: هل هي العربية، أو الإنكليزية، أو الألمانية؟.

إذا كان الأساتذة ـ في أغلبهم ـ ذوي كفاءة عالية، فإن مادّة الأدب لم تكن بِمَنْأَى عن السياسة: على سبيل المثال فإنّ «أغنية رولان»، بمسيحييها الأبطال ومسلميها السيئين، لم تؤثّر في نفسي لأنّني اكتسبتُ مناعة بفضل أساتذة «دار الحديث»، وبعد عقود أدركتُ أنّ هذا المنهج الفكري السائد في القرن الحادي عشر الميلادي هو الذي مهّد لكل الأنظمة الشمولية والذي ما زال ممثّلاً في القرن الحادي والعشرين مع بوش وحربه الصليبية.

ويجب أن أعترف، أيضاً، أن الفضل في نجاحي في الثانوية

يرجع بالدرجة الأولى إلى أمي. ففي غياب والدي، الذي كان دائماً إما في جولة، وإمّا في المنفى، وإما في السجن، كانت أمي صارمة إزائي، وكنت أضيق ذرعاً بها أحياناً، لكنني فيما بعد أصبحت ممتناً لها، وحاولت أن أعبّر لها عن عرفاني بطريقة غير موفقة.

وخلال هذه السنوات الثلاث التي قضيتها في تلمسان (1942 ـ 1945) حيث كنت في آن واحد تلميذاً في «دار الحديث» وفي ثانوية دي سلان، نشأت علاقة ودية بيني وبين زميلين في الدراسة، هما محمد بغدادلي وعبد اللّه سلعاجي. وبدأ اهتمامي بالسياسة يزداد نمواً إلى أن بلغ أوجه خلال حوادث 8 ماي 1945[31].

لم نكن نتحدث في السياسة في الثانوية، لكننا في المدرسة كنا نتابع بتعاطف، يشجعنا في ذلك معلمونا، حركة أحباب البيان والحرية[32]، وكنا نشاهد على جدران المدينة كتابات مثل «أطلقوا سراح مصالي، والإبراهيمي وعباس»[33]. وفي تلمسان جاءني خبر اعتقال والدي في الجزائر العاصمة يوم 27 ماي 1945 مرفوقاً بتفتيش دقيق لمنزلنا في القبة.

كان والدي نشطاً منذ أن أطلق سراحه من أفلو في جانفي 1943، ليس في الغرب الجزائري فحسب، بل في عموم الجزائر بحكم رئاسته لجمعية العلماء. ويبدو أنه كان مصمّماً على تجاوز الإطار الثقافي لدخول المعترك السياسي. ويتجلى ذلك بمناسبة زيارة لجنة برلمانية أرسلتها الحكومة الفرنسية بهدف إعداد تقرير حول «الإصلاحات الإسلامية في الجزائر»، والتي اتصلت لهذا الغرض بشخصيات إسلامية، من بينهم الشيخ الإبراهيمي. يجدر التوقف عند إجابته على هذه اللجنة. فبعد أن اقترح إصلاحات في مجالات القضاء

والتعليم والمساجد، وهو ليس بالشيء الجديد في مساعيه، تطرق إلى إصلاحات سياسية لخّصها في خمس نقاط:

«**أولاً**: إنشاء جنسية جزائرية تشمل جميع الطوائف التي تعيش بهذا الوطن بغير تمييز بين أصولهم وأديانهم، يتساوون بموجبها في الحقوق والواجبات.

**ثانياً**: استبدال جميع التشكيلات الاستعمارية(34)، بحكومة تسمّى «الحكومة الجزائرية» تكون مسؤولة أمام مجلس تشريعي جزائري (برلمان).

**ثالثاً**: إسناد الوظائف الإدارية لجميع الجزائريين على أساس الكفاءة الشخصية.

**رابعاً**: اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في المعارف والإدارات بجانب اللغة الفرنسية.

**خامساً**: يحفظ لأهل كل دين حقّهم في إقامة شعائر دينهم، وتصرفهم المطلق في معابدهم وأوقافهم بواسطة تشكيلات حرّة يرتضونها لأنفسهم».

هل ينبغي لي أن أشير إلى أن هذا النص الذي وجّه إلى الحكومة الفرنسية حرّر في 1944، أي عشر سنوات قبل انطلاق الثورة و18 سنة قبل استعادة الاستقلال؟.

وبنفس التوجه والمسعى شارك الإبراهيمي مشاركة فعّالة في اجتماعات «أحباب البيان والحرية» التي كانت تجمع أتباع مصالي الحاج وأنصار عباس فرحات، وهي الحركة التي كانت تنشد كهدف دائم لها وحدة الوطنيين.

رفض أحباب البيان والحرية أمرية 1944[35]، وكان ديغول هو ملهمها، لأنها تجاهلت إنشاء الدولة الجزائرية.

ولنفس المسعى استقبل والدي في تلمسان في جويلية 1944 المخيم الفيدرالي للكشافة الإسلامية الجزائرية. وقد كان دائماً من داعمي الحركة الكشفية، وبرز كمنظم من الطراز الأول، حين حثّ سكان تلمسان على إيواء 400 مشارك كانوا مخيّمين في موقع لالاّ ستّي الرائع، ويتناولون طعامهم عند العائلات التلمسانية. وقد اندهشت وتأثرت بالاستعراض الذي قام به هؤلاء الشباب في شوارع المدينة. وقد استشهد البعض منهم أثناء حوادث ماي 1945.

ويجدر التذكير هنا بأنّه في الوقت الذي كان يحتفل فيه الحلفاء بـ 8 ماي 1945، معتقدين أنهم تخلّصوا نهائياً من الفاشية والنازية، كايديولوجيات قاهرة لإرادة الشعوب، وفي الوقت الذي أنجز فيه ميثاق الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو انضمت الجزائر إلى هذه الاحتفالات بتنظيم مظاهرات في شوارع سطيف وقالمة وخراطة وغيرها، لتظهر للعالم أن الانتصار على النازية هو أيضاً انتصار لحق الشعوب في تقرير مصيرها. وبدل أن يتعامل الجيش الفرنسي مع هذه الفرحة العارمة بصفة إيجابية، ردّ على أهلها، بلا رحمة وبلا شفقة، وأزهق 45000 من الأرواح. وكان من بين الضحايا عائلات جنود جزائريين مجندين في الجيش الفرنسي شاركوا في تحرير فرنسا من النير النازي. تصوّروا، لحظة، كيف كان تفكيرهم وشعورهم حين عادوا إلى أرض الوطن ولم يجدوا أهلهم وذويهم.

أما بالنسبة إلينا، نحن تلاميذ «دار الحديث» وثانوية دي سلان، فـإن مجـازر 8 مـاي 1945 دقـت نـاقـوس نهـايـة الأطـروحـات

الاندماجية[36]، (التي ابتذلت في نظرنا) وأضاءت لنا الدرب، وهو أن الاستقلال آت لا محالة. وإذا كانت فرنسا تملك القدرة على القمع، فمن واجبنا أن نصمد وأن نقاوم، وفي 14 مايو 1945 قررت الحكومة الفرنسية حلّ حركة «أحباب البيان والحرية» وغلق مدارس جمعية العلماء، ثم اعتقل والدي يوم 27 ماي 1945 بتهمة التحريض على هذه المظاهرات. وبعد أن عانى عدة أشهر من الحبس الشاق في السجن العسكري بالجزائر العاصمة[37]. نقل إلى المستشفى العسكري في قسنطينة، قبل أن يطلق سراحه في مارس 1946.

إن حوادث ماي 1945 والمذابح التي راح ضحيتها آلاف الجزائريين جعلتني أدرك حقيقة القمع الاستعماري بكل حدته وبشاعته. ومنذ ذلك الوقت بدأت أهتم بالمشاكل السياسية المرتبطة بمستقبل بلدي. ليس فقط لأن والدي كان مسجوناً، ولكن لأن كلمات مثل «الوطن» و«الاستقلال» لم تعد مجرد كلمات، وإنما أصبحت تثير في نفسي كثيراً من الانفعال والتأثر.

## هوامش الفصل الأول

(1) أحمد باي: كان حاكماً للناحية الشرقية من الجزائر، ومقرّه قسنطينة. وعند احتلال الفرنسيين لمدينة الجزائر قاد المقاومة في الشرق الجزائري حتى سنة 1848 حيث قُبِضَ عليه. وتوفي في الأسر في سنة 1850.

(2) المقراني: هو محمد المقراني، القائد العسكري لثورة 1871، التي شملت مناطق واسعة في شرق الجزائر ووسطها، استشهد في 5 مايو 1871.

(3) قانون الأهالي: (الأنديجينا) مجموعة نصوص وإجراءات قمعية أصدرتها فرنسا ابتداء من سنة 1871، ولا تُطَبَّقُ إلا على الجزائريين لمجرد الشك فيهم. ولم يُلْغَ هذا القانون إلا في سنة 1944.

(4) قانون 23 مارس 1882.

(5) كُولْبِيرْ: هي عين وَلْمَان الآن.

(6) ورد في مخطوط لجدّي أنّ والدي ازداد في 14 شوال 1306 الموافق لـ 13 يونيو 1889.

(7) «غير متجنس» عبارة أطلقها الفرنسيون قبل 1944 على الجزائريين الذين رفضوا التخلي عن أحكام الشريعة الإسلامية في أحوالهم الشخصية من زواج، وطلاق، وميراث...

(8) الجريدة الرسمية بتاريخ 26 يوليو 1970.

(9) عبد الحميد ابن باديس: (1889 ـ 1940)، رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر، مؤسس جريدة «المنتقد»، ومجلة «الشهاب»، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ تأسيسها في 5/ 5/ 1931 إلى وفاته في 1940.

(10) مِئَوِيَّة الاحتلال: هي احتفالات ضخمة استفزازية أقامها الفرنسيون في 1930 بمناسبة مرور مائة سنة على احتلالهم الجزائر. وقد بَدَأوا يُعِدُّون لها منذ 1925.

(11) عاصمة الزيانيين هي مدينة تلمسان، والزيانيون أَسَّسُوا الدولة الزيانية التي دامت من سنة 633 هـ إلى سنة 957 هـ.

(12) مطالبة جمعية العلماء بفصل الدين عن الدولة ليس إيماناً منها بالفصل بين الدين والدولة في الإسلام؛ ولكن لأن الدولة هنا هي الدولة الفرنسية اللائكية في المظهر، المسيحية في المخبر، والتي كانت تشرف على شؤون الدين الإسلامي، وتسيطر على أوقافه.

(13) دي سلان (1801 ـ 1878) مستشرق إرلندي الأصل، فرنسي الجنسية. كان مترجماً في وزارة الحربية ثم مترجماً رئيسياً في الولاية الفرنسية العامة في الجزائر. ترجم تاريخ ابن خلدون ومقدمته.

(14) «الدرّ المكنون في الشعر الملحون».

(15) حزب الشعب الجزائري (P.P.A): أُسِّس في سنة 1937 بعدما

حَلَّت السلطات الفرنسية حزب نجم شمال إفريقيا. وقد حَلَّتْه هو أيضاً في خريف سنة 1939. زعيمه هو مصالي الحاج.

(16) أحمد مصالي الحاج: زعيم سياسي (1898 ـ 1974) نادى باستقلال الجزائر. بدأ نضاله السياسي في فرنسا يسارياً، ثم تخلى عن مبادىء اليسار. قاد حزب «نجم شمال إفريقيا»، ثم «حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية». وعندما اندلعت الثورة في 1954 رفض الانضمام إليها، وعارضها بتشكيل تنظيم سياسي سماه «الحركة الوطنية الجزائرية» (M.N.A)، مما أثر على الثورة في بعض مراحلها.

(17) لا علاقة له بعبد الحي الكتاني، أبرز وجوه الزوايا المغربية، الذي استعملته فرنسا ضد الملك محمد الخامس، مما أثار حفيظة والدي والذي عبّر عنها في مقالات عديدة (انظر آثار الشيخ البشير الإبراهيمي ـ الجزء الثالث ـ دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997).

(18) الظهير البربري: «الظهير» في الاصطلاح المغربي هو النص القانوني الذي يصدره الملك. والظهير البربري قانون أصدرته السلطات الفرنسية في المغرب في 16 مايو 1930 تلزم بموجِبِه الأمازيغ في المغرب الأقصى بالتحاكم إلى العرف البربري في الأحوال الشخصية بَدَلاً من الشريعة الإسلامية.

(19) نادي التَّرَقِّي: أشهر نَادٍ ثقافي في مدينة الجزائر، أُسِّسَ في عام 1927. وقد شهد عدة حوادث هامة أهمها تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931)، وجلسات «المؤتمر الإسلامي» (1936).

(20) ساحة الشهداء اليوم. ساحة بورسعيد اليوم.

(21) «الفَلَقَة» هي الضَّرْبُ بقضيب على أخمص القدمين.

(22) محمد الأمين العمودي: (1891 ـ 1957) أحد المثقفين باللغتين العربية والفرنسية. انتخب أميناً عاماً لجمعية العلماء (1931 ـ 1936) أسس جريدة «الدفاع» بالفرنسية. شارك في إصدار جريدة «الجحيم» لنقد الطرقيين. اغتالته عصابة «اليد الحمراء» الفرنسية في 1957.

(23) «أيها المارشال»، المقصود هو المارشال بيتان. رئيس دولة فرنسا. وقَّع هدنة مع هتلر. اتهم بالخيانة وحُكِم عليه بالإعدام عقب الحرب العالمية الثانية.. وأبدل الحكم إلى السجن المؤبد (ت 1951).

(24) هي ليلى صبّار التي أصبحت قاصة وكاتبة مشهورة في فرنسا.

(25) الحوض الكبير، أو «الصهريج» حوض كبير طوله حوالي 200م، وعرضه حوالي 140، وعمقه 3 أمتار. شيده السلطان الزياني أبو تاشفين الأول، عبد الرحمن، حوالي 735 هـ. جلب إليه الماء.. لسقي البساتين ولتعليم السباحة.. ثم صار ملعباً للأطفال.

(26) التيجاني هدام: طبيب، مناضل. وزير للصحّة ثم للأوقاف، سفير، عميد مسجد باريس. عضو المجلس الأعلى للدولة في 1992.

(27) عبد المجيد مزيان، مناضل، عميد جامعة الجزائر، وزير، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

(28) الزيانيون، أسرة أسست دولة، عاصمتها تلمسان وقد استمرت هذه الدولة من عام 633 هـ إلى عام 957 هـ. والمرينيون، أو بنو

مرين، أسرة أسست دولة في المغرب الأقصى وقد استمرت من 668 هـ/ إلى 956 هـ.

(29) المنصورة مدينة تقع غرب مدينة تلمسان. بناها السلطان المريني يوسف بن يعقوب في 698 هـ في أثناء حصاره لمدينة تلمسان الذي دام حوالي تسع سنوات.

(30) عبد المؤمن بن علي. صاحب المهدي بن تومرت، وهو المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين في 524 هـ إلى أن توفي في 558 هـ.

(31) حوادث 8 ماي 1945: التي قتل فيها الفرنسيون 45 ألف جزائري لخروجهم في مظاهرات سلمية في نهاية الحرب العالمية الثانية، للمطالبة بحقوقهم الوطنية، وأكثر المناطق تضرراً هي سطيف، خراطة، ڤالمة...

(32) حركة أحباب البيان والحرية: تجمع سياسي، أُسِّسَ في بداية عام 1944. ضمَّ الهيئات السياسية الرئيسية في الجزائر، (جمعية العلماء، حزب الشعب الجزائري، أنصار فرحات عباس) للمطالبة بحقوق الجزائريين بعد التضحيات التي بذلوها في الحرب العالمية الثانية.

(33) عباس: هو فرحات عبّاس (1899 ـ 1985) زعيم سياسي، تطورت مواقفه السياسية من الاندماج في فرنسا إلى الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني، رأس أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية (سبتمبر 1958)، ورأس أول جمعية جزائرية (برلمان) (1962)..

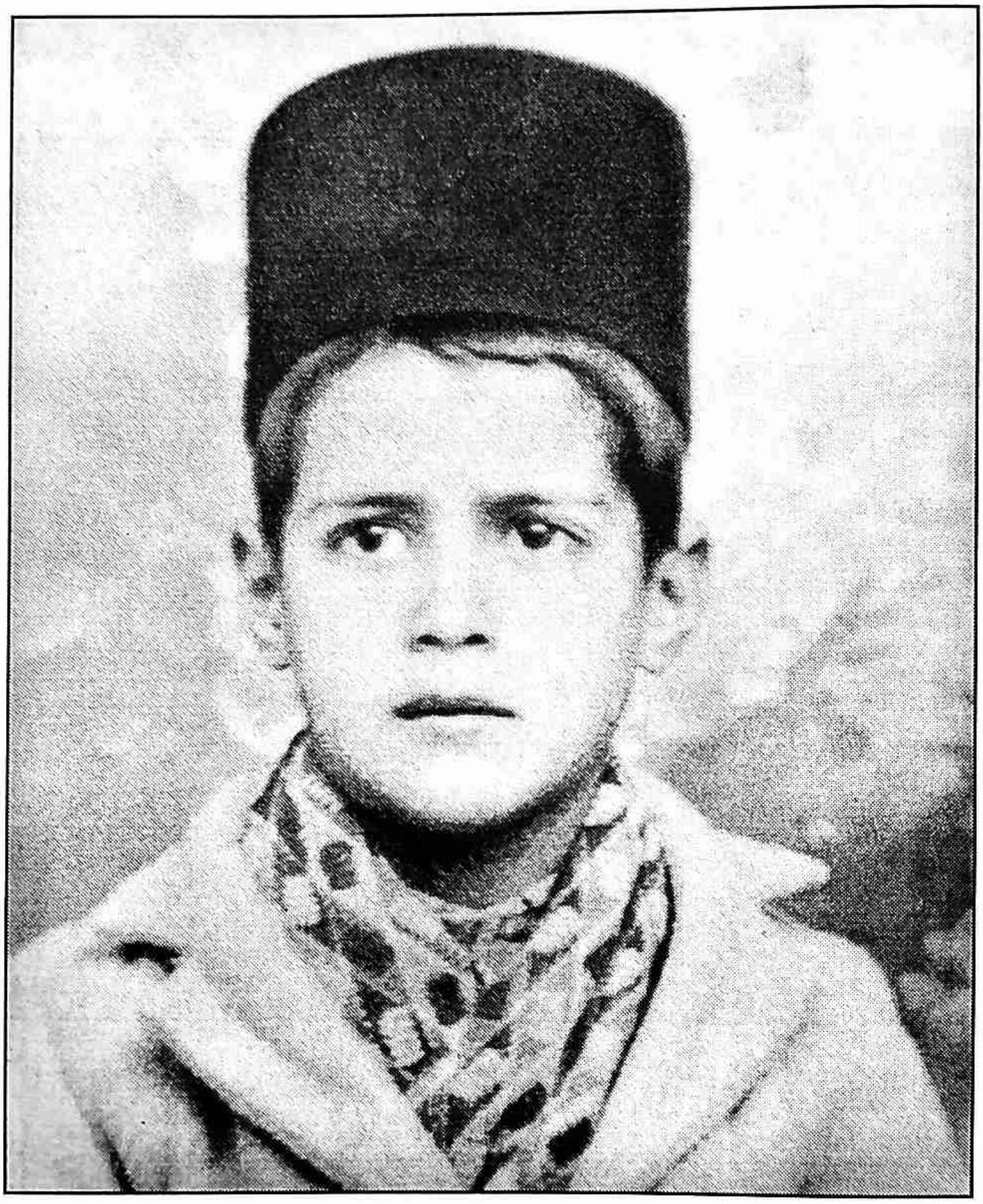
(34) التشكيلات الاستعمارية، هي المؤسسات السياسية التي أنشأتها الحكومة الفرنسية لتسيير شؤون الجزائر، وأهم هذه التشكيلات

«الولاية العامة»، وهي تتبع وزارة الداخلية في فرنسا، ويرأسها والٍ عام. و«المجلس المالي» وهو الذي يقرر ميزانية الجزائر، بما يخدم الأقلية الفرنسية.

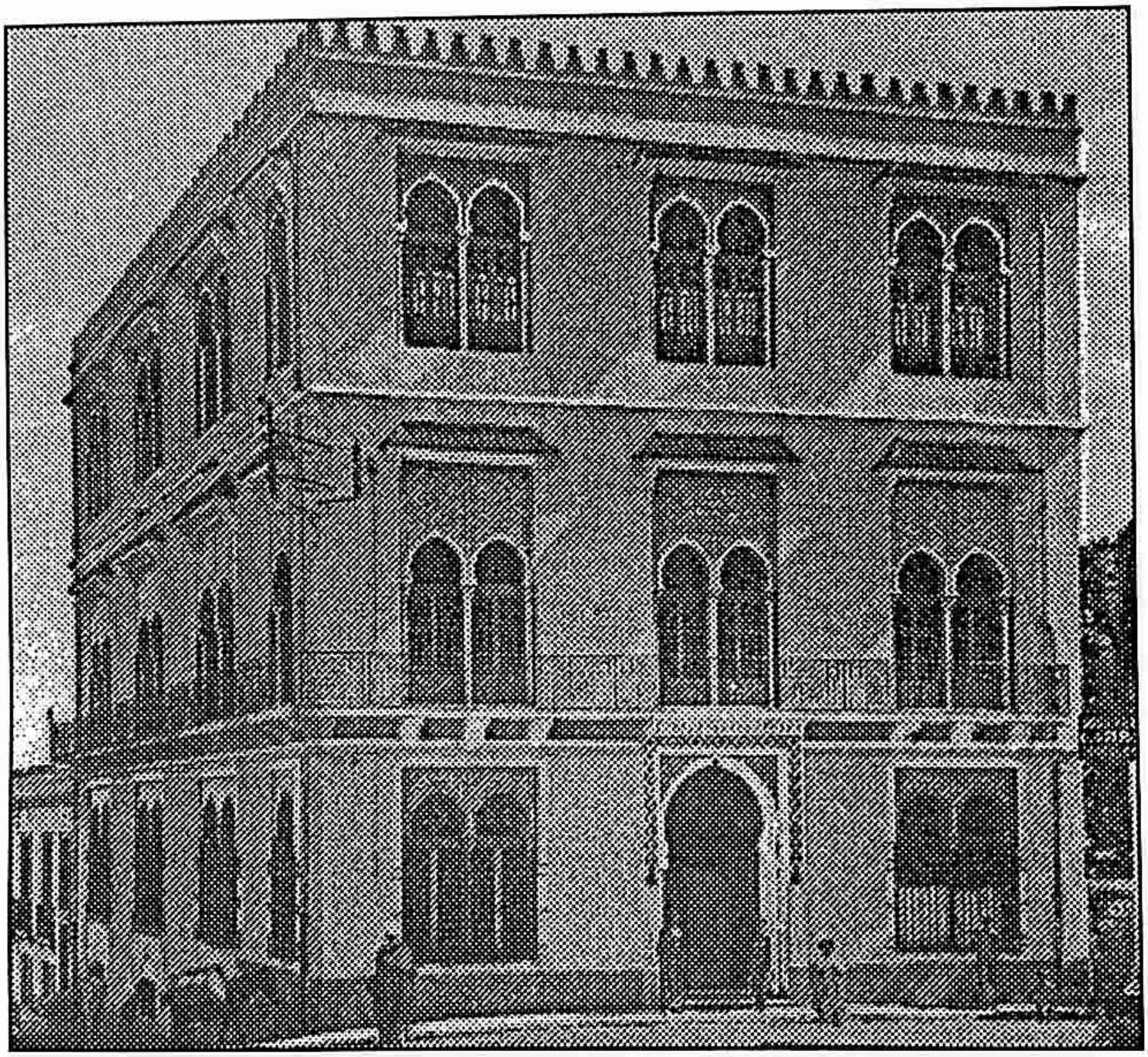
(35) أمرية 1944، صدرت في 7 مارس 1944 عن حكومة فرنسا الحرة برئاسة الجنرال دوغول، ينال بموجبها ما بين 50 و70 ألف جزائري الجنسية الفرنسية دون التخلي عن أحكام الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية، وتوسيع فئة المنتخِبين الجزائريين، ورفع تمثيلهم في المجالس المحلية من الثلث إلى الخُمُسَين.. ويحصل الجزائريون على بعض المكاسب الإدارية والاقتصادية..

(36) الأطروحات الاندماجية هي التي كان ينادي أصحابها (بعض الجزائريين، وبعض الفرنسيين) بإدماج الجزائر والجزائريين كلياً في فرنسا... وكانت جمعية العلماء والحركة الوطنية (نجم شمال إفريقيا، وحزب الشعب الجزائري، وحركة الانتصار من أجل الحرية والديمقراطية) ضد الإدماج..

(37) مقر المديرية العامّة للأمن الوطني اليوم.



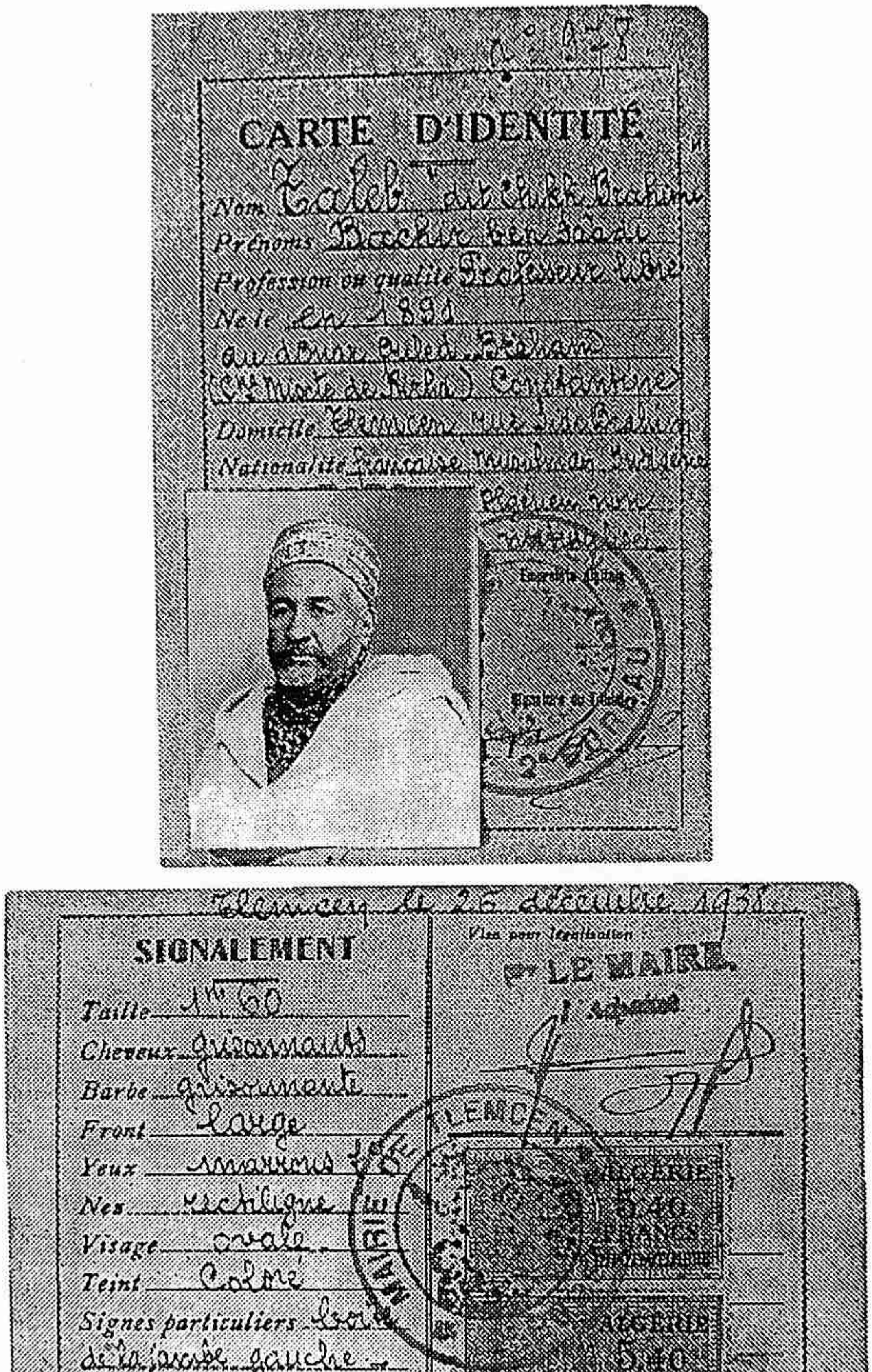
المؤلف سنة 1938 في تلمسان



تلمسان : مدرسة «دار الحديث»



تلمسان سنة 1937 (من اليسار إلى اليمين) :
البشير الإبراهيمي ، عبد الحميد بن باديس ، ابراهيم الكتاني .




بطاقة تعريف الشيخ البشير الإبراهيمي

# 2

# مراهق في العاصمة (1945 ـ 1949)

لمّا كان عمل جمعية العلماء يتطوّر بشكل معتبر عبر التراب الوطني، اضطر والدي إلى الإقامة في العاصمة، بعد توليه رئاسة الجمعية مباشرة إثر رحيل ابن باديس سنة 1940. وهكذا انتقلت العائلة من تلمسان إلى العاصمة في جانفي 1945. وبسبب دراستي لم ألتحق بها إلا في جويلية، لكن غياب والدي الذي اعتقل عقب حوادث 8 ماي 1945 عكّر فرحة اللقاء.

أقمنا بمنزل بحيّ القبّة في أعالي الجزائر، وكانت الحديقة بورودها وأشجارها تذكّرنا بمنزل أغادير، ولو أنه أقلّ مساحة، لكننا كنّا نتمتع بمنظر رائع على خليج الجزائر يمتد إلى طرف رأس ماتيفو[1].

واضطر أخي الذي كان طالباً في المدرسة العليا للتجارة إلى هجر دراسته والبحث عن عمل كمحاسب لدى أحد الوكلاء في الأسواق المركزية. ذلك أنه أصبح بعد اعتقال والدي هو القائم على أمور العائلة. ولمّا يتجاوز عمره الواحدة والعشرين. وأنهك نفسه لتسجيلي في ثانوية من ثانويات العاصمة، لكنه اصطدم برفض قاطع.

فقد كان يستحيل تسجيل ابن عدو لفرنسا وأكثر من ذلك سجين. وبعد أن أعيته الحيلة، اضطر إلى تسجيلي في ثانوية خاصة، أي مدفوعة الأجر، أسّستها الجالية اليهودية في العاصمة بعد قرار حكومة فيشي (Vichy) برفض التلاميذ اليهود في الثانويات الفرنسية، هي ثانوية ابن ميمون التي قضيت بها ثلاث سنوات.

وكنّا خمسة أو ستّة تلاميذ مسلمين حطّت بنا الأقدار في هذه الثانوية، ربّما للأسباب نفسها. ولست أدري هل كان القائمون على هذه المؤسسة يقبلونني بعد سنوات لو علموا أن والدي سيرأس سنة 1948 اللجنة الوطنية لمساندة فلسطين(2).

كانت ثانوية ابن ميمون تقع في شارع إميل موبا، على بعد خطوات من المكتبة الوطنية، وكانت عبارة عن منزل موريسكي من ثلاثة طوابق. وكان يسهر على تسييرها مدير نشط، هو هنري شمويلي، يساعده أساتذة أكفاء. ما زلت أذكر من بينهم رافائيل جيان، أستاذنا في اللغة الفرنسية، الذي كان يعشق الأدب إلى درجة الجنون. وكان يحثني على الحديث في القسم، بتشجيعي على تقديم عروض أمام زملائي في قضايا مختلفة كان هو يختارها. وهكذا كنت أقضي ساعات طوالا بالمكتبة الوطنية لتحضير بحوث حول «القرآن»، أو «ألف ليلة وليلة»، أو «جان جاك روسو رائد الرومانسية». وكان يعلي من شأن شكسبير ويضعه في أعلى منزلة. وكان بلا شك صاحب ذوق رفيع. ولم يخطىء إلا عندما نسب لي موهبة قول الشعر، في حين لم أكن إلاّ ناظماً متكلّفاً.

وفي يوم من الأيام التقيتُ بأحد زملائي اسمه سنتيس في التّراموي الذي يُقلّنا إلى الثانوية، وبينما نحن في ساحة الحكومة(3)

مررنا بمصوّر متنقِّل مسلم علّق على آلته صورة جميلة للشيخ محمد عبده، فسألني زميلي «مَن هو هذا الشخص؟» فأجبتُ: «عالم مصري كبير»، واستعملت كلمة savant وأنا أجهل أنّ كلمة théologien أنسب، فسألني زميلي وهو يبتسم ابتسامة خبيثة: «وماذا اخترع هذا العالم؟»، فاجأني بهذا السؤال ولكنني سارعتُ بالردّ: «اخترع مُنَبِّهًا خاصاً... منبّه الضمائر»، وقد اقتبست هذه العبارة من إحدى محاضرات الوالد التي كان يُلقيها في شهر رمضان والتي وصف فيها الأفغاني وعبده بأنهما موقظا الضمائر.

ولما حزت الطورالأول من الباكالوريا في جوان 1948 سجّلت، بدون مشقّة، في القسم النهائي لفرع الفلسفة بثانوية بيجو[4].

شرع والدي بعد أن أطلق سراحه في مارس 1946 في البحث عن مقر لجمعية العلماء. ووقع اختياره في نهاية المطاف على بيت من طراز موريسكي، يقع في 12 شارع بومبي في قلب العاصمة العتيقة.

وأصبح هذا المقر مسرحاً لكل اجتماعات المكتب الإداري للجمعية، وللاجتماعات الأسبوعية للجنة التنفيذية، وللأحاديث الدينية اليومية للشيخ الإبراهيمي خلال شهر رمضان، ولمحادثاته مع قادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية[5] والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري[6] والحزب الشيوعي الجزائري. وهكذا تعرفت على حسين لحول[7] وحسين عسلة[8]، وأحمد بوده[9] وفرحات عباس، وأحمد فرنسيس[10]، وأحمد بومنجل[11]، وعمار أوزقان[12]، والدكتور شريف سعدان الذي أفناه مرض السّل، وهو شاحب الوجه يسبح في معطف أنيق يرتديه صيفاً شتاء، ولولا نظرته الوديعة الحزينة لحسبتَه

من الأشباح. ذات يوم التقيت عباس فرحات بأحد الأروقة. قال لي بنبرة خطابية: «إذا أردت أن تعرف حقيقة الاستعمار الفرنسي، عليك بقراءة رسائل سانت أرنو»[13]. وكانت الشخصية الجزائرية الوحيدة التي يستقبلها والدي في بيته، وليس في مكتبه، هي الدكتور محمد أمين الدباغين[14]. وكان الفضول يعتصرني لمعرفة فحوى هذه المباحثات التي كانت منتظمة ومتواترة، وتجري دائماً على انفراد. وبحكم معرفتي بالرجلين فإني أكاد أجزم اليوم أنهما كانا يبحثان عن مد الجسور بين حركة انتصار الحريات الديمقراطية وجمعية العلماء. وكان الدكتور أمين الدباغين، الرجل الكتوم وبلا شك الشخصية الأعمق في الوطنية الجزائرية وأحد أعمدة حزب الشعب، قد أدرك قبل غيره النزعة التسلطية لمصالي، وحاول بلا جدوى محاربتها داخل حزب الشعب، ثم في حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

كان والدي يستقبل أيضاً في مكتبه بمقر الجمعية صحافيين أجانب وشخصيات مشهورة في عالم الثقافة والسياسة عند زياراتها للجزائر، مثل الباكستاني إنعام اللّه خان، الأمين العام للمؤتمر الإسلامي الذي ناقش معه وسائل دعم التضامن بين البلدان الإسلامية، والذي سيلتقي به فيما بعد في باكستان.

واستقبل أيضاً روجي غارودي رفقة عمار أوزقان. ويمكن أن نكوّن فكرة عن حديث والدي مع محاوريه الأجانب من خلال السرد المفصل الذي قدمه روجي غارودي في «وصيته الفلسفية». فقد استعرض أولاً الخطوط الكبرى للكفاح الذي قاده الإبراهيمي مع ابن باديس من أجل إسلام حر ومتسامح ومنفتح. ثم ذكر بعد ذلك مصادر إلهامه، وهي الأفغاني وعبده ورشيد رضا، والعراقيل التي وضعتها

السلطات الفرنسية في طريقه والنتائج الملموسة لرسالته.

وقد أثارت بشكل خاص انتباه روجي غارودي جملة قالها الشيخ الإبراهيمي إلى درجة وصفه بالعالم التقدمي وهي: «أسوأ عيب في أولئك الذين تبنوا الثقافة الغربية هي جهلهم المطبق بحقائق الإسلام، وأسوأ عيب في من يتبنون الثقافة الإسلامية هو جهلهم التام بمشاكل ومتطلبات عصرنا[15]».

ويخلص غارودي إلى القول: «ولأنهما تشرّبا بهذه الحقيقة القرآنية، فقد بذل ابن باديس الإبراهيمي جهداً جباراً في مجال التربية موّجهاً في آن واحد ضد مدرسة المحتل الاغترابية التي كانت تسعى إلى استئصال الطفل الجزائري عن جذور الثقافة العربية الإسلامية، وضد ظلامية الطرقية بخرافاتها وأباطيلها وتشفّعها المنافية لروح الإسلام وبخدمتها للمهمة التي أوكلتها لها السلطات الاستعمارية، وضد التعليم الإسلامي البالي الذي تحنط وأصبح عقيماً باجتراره للماضي». إن ذكر الحديث مع الشيخ الإبراهيمي في مطلع الفصل المخصص للإسلام من مؤلفه يدل على أن غارودي اعتبر زيارته لوالدي بداية رحلته في الطريق إلى اعتناق الإسلام ببعديه اللذين لا ينفصمان: السمو بالمعنى الفلسفي والانتماء إلى جماعة.

وأذكر من هذه السنوات الأربع (1945 ـ 1949) التي قضيتها في الجزائر بالثانوية تنقلاتي اليومية بالترولي والتّرام من القبة إلى وسط المدينة ذهاباً وإياباً. وكنت في بعض الأيام لا أجد متسعاً من الوقت لتناول الغداء في البيت، فكنت أكتفي بموزتين أتناولهما في مقر الجمعية، حيث كنت أقضي معظم الوقت في القراءة في مكتب صديقي عطاء الله سوفاري.

وكان المال القليل الذي يعطيه لي والدي للأكل أخصصه لشراء الكتب. فأصبحت زبوناً وفياً لسوق الكتب القديمة الذي كان يوجد في ساحة لا لير[15]، وكوّنت مكتبة لمشاهير الأدب من أمثال غوته، وهيغو، وبلزاك، وتولستوي، وفلوبير وغيرهم من الكتّاب، وخاصة الكتب التي كانت تصدرها دار «نيلسون» للنشر.

ولدت ومعي ميل إلى المطالعة. وكنت دائماً محاطاً بالكتب. وكانت مكتبة والدي تصحبنا من مسكن إلى آخر. وكانت هي غرفة نومي المفضلة. وفي تلمسان لم تبرحني صورة الخزائن الأربع من الخشب المنقوش، كتبت عليها عبارات بالعربية منها بيت شعر للمتنبي:

أعزّ مكان في الدنى سرج سابح وخير جليس في الأنام كتاب

وأضيفت في العاصمة خزانة خامسة لتملأها كتب بالفرنسية اقتنيناها أخي وأنا.

وفي تلك الفترة مررت بتجربة زهد صوفي، أو بالأحرى بورع مغالى فيه، مصحوب بإرادة في تعويد جسدي على امتحان شديد. مثل الاستحمام بالماء البارد شتاء، والطعام البسيط الخالي من اللحم، وقراءة القرآن إلى ساعة متأخرة من الليل.

ذات مساء وصلت إلى البيت منهوك القوى بعد يوم طويل في الثانوية وطلبت من أختي زينب أن تجلب لي الماء للوضوء، فسمعت والدي يوبّخني بشدة: «توضّأ وصلّ في سرك، واعلم أن اللّه يحب أن تعبده في السر».

وفي أيام الآحاد كنت ألتقي الصديقين اللذين تعرفت عليهما في

الجزائـر العاصمة: علي بلاّل ومراد بليلي. وكنا نذهب إما إلى الملعب لمناصرة فريـق مولودية الجزائر لكـرة القدم، وإمـا نتردد علـى دور السينما القليلة التي كانت تعرض أفلاماً مصرية. ورغم اعترافنا بتكلف الحوارات وتفاهة السيناريو، إلا أننا كنا نذهب لمشاهدة هذه الأفلام لأنها كانت تصلنا بعالم كان الفرنسيون يريدون فصلنا عنه، ولأن الممثلين كانوا يتحدثون اللغة العربية. فيما بعد تطورت الإشكالية نحو المواضيع التاريخية، وهكذا فإن فيلم «فجر الإسلام» شدّ إليه في الجزائر انتباه عشرات الآلاف من المشاهدين والمشاهدات(17).

وقد دعمت زيارة فرقة يوسف وهبي المسرحية التقاء العروض السينمائية والمسرحية بالحركة الوطنية. فقد استقبل الشعب الجزائري هذا الممثل المصري القدير كما يستقبل زعيماً سياسياً. وقد عبّر يوسف وهبي في مذكراته عن تأثره بهذا الترحيب. فقد استقبلته الأحزاب السياسية في مقراتها، أما والدي فقد دعاه إلى البيت مع زكي طليمات والممثلين والممثلات الرئيسيين للفرقة. أما الإدارة الفرنسية فقد حذرت يوسف وهبي من هذه «التجاوزات». وتكرّر السيناريو نفسه خلال زيارة وفد من الصحافيين من المشرق العربي يقوده حبيب جماتي.

وجدير بالذكر أنه قبل هذه الفترة، وبالتحديد في الثلاثينيات من القرن الماضي، لعبت مجلّة «الرسالة» المصرية، التي كان والدي مداوماً على قراءتها وكانت تباع بمكتبة مصطفى باغلي بتلمسان، دوراً حاسماً في تطوير ميل واضح لدى بعض الشباب الجزائري إلى لغة عربية في خدمة قضية عادلة: التقاء الثقافي بالسياسي.

ومن جهة أخرى، كانت تصل والدي بانتظام طرود من الكتب من صديق شبابه في جدة بالسعودية محمد نصيف. وكان نصيف ينحدر من أسرة معروفة في الحجاز. وكان بيته ملتقى لمشاهير العالم الإسلامي الذين كانوا يحجون إلى البقاع المقدسة. وكانت مكتبته مفتوحة أمام كل الباحثين. وبفضل هذه الإرسالات كان والدي على علم بكل ما كان ينشر في مكة وبغداد ودمشق ومصر في ميادين الفقه والحديث وتفسير القرآن.

وقد تدعمت بوضوح هذه النزعة العروبية بعد الحرب العالمية الثانية وإنشاء جامعة الدول العربية. وبعد ما كان استقلال بلدان المغرب حلماً أصبح من الممكنات. وهكذا رأيت والدي يهتز لأول مرة للنبأ الذي أعلنته هيئة الإذاعة البريطانية عن انعقاد أول اجتماع لرؤساء وملوك الدول العربية في القاهرة. وتوّج بالتوقيع على ميثاق جامعة الدول العربية من طرف قادة الدول السبع «المستقلة» آنذاك: مصر، سوريا، العراق، لبنان، الأردن، المملكة العربية السعودية واليمن.

* * * * *

وفي إحدى الصائفات رافقت والدي في إحدى جولاته التي استمر يقوم بها عبر الوطن والتي كانت تختم عادة بتدشين مدرسة أو مسجد أو ناد ثقافي. وكانت هذه المرّة رحلة إلى الشرق الجزائري، كنت خلالها شديد التأثر باكتشاف مسقط رأسي، سطيف، لأول مرة. كيف نفسر إذن هذا الإحساس - الذى لم أجد سبيلاً إلى مقاومته - إلاّ بوجود حبل سري بين الكائن البشري ومسقط رأسه؟.

واكتشفت في هذه المنطقة، كما في غيرها من مناطق البلاد، أن

الأماكن أعيدت تسميتها، فعوّضت أسماء توكفيل، وسانت أرنو، وكونروبير الأسماء القديمة، كما هي الحال بالنسبة إلى مونتانياك، ولاموريسيير، وتريزل في الغرب، وغيدون، وروفيغو في الوسط. وإذا أضفنا إلى ذلك في العاصمة منحدر بيجو، وسوق كلوزيل، وثكنة بليسيي، وشارع كافينياك لمسنا بوضوح لدى المحتل إرادة تخليد أسماء المسؤولين العسكريين منظري وممارسي إبادة الشعب الجزائري في القرن التاسع عشر، وقاطعي الرؤوس، ومنفذي الغارات، ومرتكبي المجازر، والقتل خنقاً في مغارات مسدودة، وعزل القبائل في المحتشدات. وقد انبثق ذلك من الاستراتيجية الاستعمارية الرامية إلى محاولة استئصال الجذور ومحو الذاكرة. وكأنهم يريدون أن يقولوا لنا أن لا مكان لنا في بلدنا.

وخلال هذه الرحلات بالسيارة اكتشفت أن لا أحد يعرف الجزائر مثلما يعرفها والدي. فما من مكان زرناه إلا كان مناسبة بالنسبة إليه ليذكر أصناف حيواناته، وأنواع نباتاته، والقبائل التي تقطنه، وخصائص لهجتها، وشعراء الملحون الذين تغنوا به، والمعارك التي كان مسرحاً لها خلال الاحتلال الفرنسي الخ. . .

وكان والدي يُستقبل في كل مدينة يزورها من طرف حشود متحمسة تصغي إليه بخشوع وهو يخطب فيها، ويحثها بلغة سهلة بسيطة على الوحدة والتضحية بالغالي والنفيس من أجل تعليم الشباب. وكان يشدد على فكرة أن ما ينقذ الجزائر في نهاية المطاف هو تماسك أبنائها وتعلقهم بشخصيتهم واكتسابهم للعلوم والمعارف الحديثة. وفي نهاية كل خطبة كان الفرع المحلي للجمعية يقوم بجمع المال لشراء قطعة أرض أو الإنفاق على ما بقي من مشروع: طابق

مدرسة أو جناح مسجد.

أعتقد أن العلماء خرجوا منتصرين من المعركة التي خاضوها في آن واحد ضد الاستعمار وضد الزوايا التي كانت تدعمه، لأنهم نجحوا في أن يجعلوا من الشعب حليفهم حين أتقنوا الجمع بفطنة بين بناء المدارس وتربية الناشئة، بين البحث العلمي والمطبعة، بين التعليم والصحافة.

وفي هذه الفترة بدأت أسمع الناس يتحدثون عن القانون الأساسي للجزائر لسنة 1947[18]. وكانت الأحاديث كلّها تجمع على شيء واحد وهو أن مآل هذا القانون هو الفشل، لأنه من جهة لا يستجيب لتطلعاتنا، ومن جهة أخرى لأنه لم يستخلص الدروس من حوادث 8 ماي 1945. وفضلاً عن ذلك عيّنت فرنسا لتطبيقه حاكماً عاماً جديداً، هو مارسيل أدمون نيجلين، وهو اشتراكي مزعوم أصبح اسمه مرادفاً لفن التزوير في الانتخابات.

ويقدم المجلس الجزائري الذي انبثق عن هذا الوضع القانوني صورة مدهشة عن الوضعية الحقيقية للجزائر في منتصف القرن العشرين: الظلم (9 ملايين من الجزائريين المسلمين يحق لهم انتخاب العدد نفسه من الممثلين الذين ينتخبهم مليون أوروبي)، والإهانة (ممثلو المسلمين المعينون أو المفروضون خلال انتخابات صورية هم في أغلبهم إما أميون وإما مرتشون). واضطر ملاحظ مجرب إلى الاعتراف: «لقد أرادت فرنسا حقاً أن تكون هناك جمعية جزائرية بشرط أن تقوم بتعيين كل الأعضاء الجزائريين تقريباً»[19]. ويضيف ملاحظ آخر أكثر دقة: «إن غياب ممثلين حقيقيين للشعب الجزائري أدى إلى تعيين رجل لا يقرأ ولا يكتب على رأس لجنة التربية الوطنية

في المجلس الجزائري»[20].

* * * * *

بعد أن حزت الطور الأول من الباكالوريا في جوان 1948، أدركت أن طلب العلم في المدرسة الاستعمارية ليس عملاً بريئاً. فهو مصحوب حتماً بمثاقفة: الانبهار بالثقافة المهيمنة واحتقار الثقافة الخاضعة. وهكذا اكتشفت مندهشاً بحكم الوسط الذي كنت أدرس فيه أنني أكتب بالفرنسية أفضل وأسهل من الكتابة بالعربية.

فقرّرت أن أدعم السنتين اللتين درستهما في «دار الحديث» (1943 ـ 1945) واللتين أسندتا ما تعلّمته أثناء الإقامة في أفلو (1941 ـ 1942). وكرّست العطلة الصيفية كلّها لقراءة مكثفة لمؤلفات باللغة العربية. وبدأت بما كان متوافراً من أعمال طه حسين بدءاً بـ «الأيام» مروراً بـ«على هامش السيرة» وانتهاء بـ«الفتنة الكبرى». ثم قرأت مؤلفات المنفلوطي، خاصة «العبرات»، و«عبقريات» العقاد. وبرمجت للقراءة خلال عطلة صيف 49 ثلاثية أحمد أمين التي كان والدي يوصي بقراءتها ويعتبرها أفضل خلاصة حول تاريخ الحضارة الإسلامية. وقد تأكدت من ذلك بعد حيازتي على الطور الثاني من الباكالوريا. غير أن الجهد في العودة إلى المنابع قصد إعادة التوازن بين تكويني بالعربية والفرنسية ظل ناقصاً. ولم يتسن لي إلا لاحقاً أن أسدّ بعض الثغرات حين رحت أنهل من أمهات المؤلفات الأدبية العربية الكلاسيكية.

كنتُ أشتري كل هذا الكتب العربية من مكتبة بشارع شارتر (شارع عمار القامة اليوم) يملكها عبد القادر ميموني الذي عرفته في

الحركة الكشفية والذي شجّعه والدي على إنشاء أوّل دار نشر جزائرية «دار النهضة»[21].

يتفق الجميع على أن المراهق الذي يصل إلى قسم الفلسفة يصاب بالغرور، معتقداً أنه بلغ ذرى المعرفة. وأنا لا أشذّ عن هذه القاعدة. فقد شغفت بقضاياالحرية والحتمية ووجود اللّٰه والأخلاق الكانطية، وكنت أزعم أن أستاذ الفلسفة كان مفرطاً في الحذر. لكنني سرعان ما عدلت عن هذه الفكرة. ذات مساء من شهر ديسمبر سألني والدي عن برنامجي في الثانوية، فأجبته بكثير من الادعاء أننا الآن ندرس علم النفس في انتظار الشروع في دروس الأخلاق ثم المنطق وأخيراً الميتافيزيقا. وحين عرف أن آخر درس كان مخصصاً لِـ «العادة»، راح يلقي عرضاً حقيقياً عن وليام جيمس والبراغماتية، ثم عرّج على نظرية التطور عند داروين، ثم جون ستيوارت ميل الذي لم أكن قد سمعت به من قبل. ووقفت مبهوراً أمام هذا الرجل الذي كنت أعتقد أنه متضلع فقط في التفسير والحديث والفقه والآداب، فضلاً عن كونه لم يكن يحسن أي لغة أجنبية. فمن أين جاءته هذه المعارف كلّها؟ فيما بعد وجدت تفسيراً لذلك. ففي شبابه كان من الحريصين على مطالعة مجلة «المقتطف» المصرية التي أدّت دوراً رئيسياً في نشر وتعميم الأفكار العلمية في المشرق في مطلع القرن العشرين. واليوم أعتقد، صادقاً، أنني تخلصت بفضل محاورتي لوالدي من عيب خطير هو غرور التلاميذ النجباء، وتعلمت أن المعرفة نسبية، وتعلمت أيضاً كيف أسمو فوق اليقينيات المزهوة، وكيف أحصن نفسي ضد العلموية والاقتصادوية وما شابه ذلك... إن العلم الذي أجزل والدي في عطائه لا علاقة له بالخطاب التفاخري الذي يسعى إلى الإدهاش، وإنما هو علم صقله الذكاء والتواضع.

وبفضل هذه المحاورات بدأت أدرك أن الإسلام يقدم رؤية شاملة عن الإنسان والكون. وقد استوقفتني بصفة خاصة الآية القرآنية الكريمة التي تقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾(سورة فصلت الآية 53). واكتشفت فيها دعوة صريحة إلى دراسة العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية. وبقي لي أن أعبر عن هذه الأفكار التي تتزاحم في رأسي لأنه مهما تكن قناعة المرء قوية، فهي في حاجة إلى إيضاح كامل من أجل التواصل مع الآخرين. وستساعدني قراءة مفكرين مسيحيين في السنوات التالية على الاقتراب من هذا الهدف: قراءة بيغي وبرنانوس وماريتين، كل واحد منهم بطريقته الخاصة. واستوقفني أكثر اكتشافي لايمانويل مونيي الذي ساعدني على إجلاء أدق الأمور.

* * * * *

ما الذي بقي من سنوات دراستي للفلسفة في «جعبة ذاكرتي» كما قال رابلي؟ أشياء ضبابية مشوّشة تبرز منها صور لأستاذين وزميلين وكتابين.

أستاذ الفلسفة، أَلأَفْوَانْ، الضامر النحيف المنتصب كالعود. كان كلاسيكياً اتباعياً إلى درجة أنه كان يتحاشى ذكر أسماء سارتر أو ميرلوبونتي أو مونيي، لكن تواضعه ورصانته كانتا تنمّان عن صرامة أخلاقية صلبة.

أما أستاذ اللغة العربية حمزة بوبكر[22]. فقد كان مستديراً. وكان يذكرنا بتاجر مشرقي. وكانت دروسه تجري على نمط واحد لا يتغير: نصف ساعة للثرثرة حول أمور لا صلة لها باللغة العربية

والواقع. وكان يتمتع بموهبة رائعة في الحكي. ثم يملي علينا نصاً جميلاً لمؤلف قديم أو معاصر، وحين تقاطعه دقات الجرس كان يردّد: «سنشرح النص في الحصة القادمة». لكن السيناريو نفسه كان يتكرّر في الحصص القادمة مع نص جديد. ولم يشرح لنا أي شيء.

كان إسماعيل آيت جعفر واحداً من خمسة أو ستة جزائريين في القسم. كان ذكياً ومثقفاً، لكنه خجول بشكل مرضي. وكانت لقاءاتنا تنتهي حتماً بالحديث عن الإبداع الأدبي، تتخللها استشهادات من أشعار لشعراء فرنسيين كبار من القرن التاسع عشر. وكان يردد دائماً: «أنت تحب أزهار الشر»، لكنها لا ترقى إلى مستوى القصائد النثرية لبودلير. وأنت مغرم «بالمركب السكران»، لكن يجب أن تقرأ «إشراقات» رامبو. ولم أندهش حين عرفت بعد سنتين أن آيت جعفر نشر إحدى أجمل القصائد في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، والتي ظلت للأسف الشديد مغمورة، وهي «شكوى متسولين عرب في القصبة» والصغيرة ياسمين التي قتلها أبوها»[23].

زميلي الآخر هو روجي أسان. وكان رقيق المشاعر مثابراً وكتوماً. وكنا نتبارى من أجل الظفر بالمرتبة الأولى في قسم الفلسفة، لكننا كنا أصدقاء. كان ابن طبيب، وأصبح هو نفسه مختصاً لامعاً في مرض السكري. وكان يدعوني إلى بيته في الشراقة، وكان يحثني على قراءة فولكنر، وكنت أحدثه عن شغفي بمقالات ألبير كامو في جريدة «كومبا».

أما الكتابان اللذان أثرا فيّ وساهما أكثر في توجيهي نحو الطب فهما «مدخل إلى دراسة الطب التجريبي» لكلود برنار و«الإنسان ذلك المجهول» لألكسيس كاريل.

* * * * *

بعد أن حصل والدي على مقر لجمعية العلماء أعاد في سنة 1947 إصدار أسبوعية «البصائر» التي توقفت عن الظهور عام 1939 بسبب الحرب. وستضفي هذه الدورية على الجمعية رونقاً لا مثيل له عبر العالم الإسلامي، خاصة بفضل قلم البشير الإبراهيمي. وكانت بعض الصحف والدوريات العربية تعيد نشر افتتاحياته حول وضع الإسلام واللغة العربية في الجزائر المقهورة، وحول المأساة الفلسطينية، ودور مصر الرائد، واستقلال ليبيا، ووفاة منصف باي(24) ونفي محمد الخامس. وقد ألهمه موقفه ضد تنحية سلطان المغرب محمد الخامس(25) مقالات لاذعة رائعة ضد الجلاوي باشا مراكش، وضد عبد الحي الكتّاني(26) حفظها آلاف المغاربة عن ظهر قلب إلى درجة أن «البصائر» أصبحت من أكثر الجرائد المقروءة في المغرب الأقصى.

تحدث ملك المغرب الحسن الثاني بعد عدّة سنوات في كتابه «التحدي» عن السياسة القمعية التي مارستها فرنسا في المغرب، التي بلغت أوجها بعزل والده ونفيه إلى مدغشقر في أوت 1953. ثم عرّج على الندوة الفرنسية المغربية التي عقدت في «إكس لي بان» برئاسة أنطوان بيني، وقرّرت إعادة محمد الخامس إلى العرش. وانتهز الفرصة في هذا الكتاب لتقديم اعترافه بالجميل لكل الفرنسيين، من سياسيين ومحامين وصحافيين، الذين ساندوا أباه في محنته، متجاهلاً هبّة التضامن التي شهدها العالم الإسلامي وكذلك مقالات «البصائر» التي ألهبت حماس وإصرار المناضلين المغربيين.

وأخطر من ذلك لم يشرح الحسن الثاني التغير الذي طرأ على السياسة الفرنسية بشأن قضية بلاده بين 1953 و1955. وهو التغير الذي كانت وراءه بالتأكيد المقاومة المغربية، التي يمر عليها المؤلف

مرور الكرام، لكنه لم يشر بكلمة واحدة إلى أول نوفمبر 1954، تاريخ اندلاع الثورة الجزائرية، التي ساهمت بكل ثقلها في إعادة صياغة السياسة الفرنسية إزاء المغرب وتونس، بل وفي إفريقيا قاطبة.

اقتضت متطلبات العمل في «البصائر» من والدي أن يقلل من جولاته عبر التراب الوطني. فلم يكن يكتفي بكتابة الافتتاحيات، لكنه كان يهتم بكل صغيرة وكبيرة. فكان يعيد كتابة بعض المقالات، ويتدخل في الإخراج، ويصحح البروفات في المطبعة إلى حيث كنت أرافقه لمد يد العون له قدر استطاعتي. وشيئاً فشيئاً التحق به معاونون، ذوو هيبة واعتبار، للتخفيف من أعبائه الثقيلة من أمثال: حمزة بكوشة، وأحمد توفيق المدني، وبعزيز بن عمر، ومحمود بوزوزو، وأحمد سحنون، وأحمد رضا حوحو الذي كان يبعث من قسنطينة بمقالات ساخرة نالت إعجاب القرّاء، وشرعت في كتابة مقالاتي الأولى باللغة العربية آملاً نشرها في البصائر. وكانت في غالبها تقارير عن النشاطات الثقافية في مقر الجمعية. لكن والدي كان يرفضها، طالباً مني أن أُحَسِّن أسلوبي بالقراءة المستمرة. وكان يوصيني قائلاً: «قبل أن تكتب يجب أن تحسن القراءة، وقبل أن تتكلم يجب أن تحسن الإصغاء».

ذات يوم، وقد يكون ذلك حدث في سنة 1948، دخل والدي إلى البيت ومعه آلة راقنة من نوع «أوليفيتي». وقد يبدو هذا شيئاً تافهاً. لولا أن أحرف هذه الآلة كانت عربية. وربما كانت هي الآلة الأولى من هذا النوع تدخل الجزائر، وهذه الآلة ستحولني أنا من ابن إلى سكرتير لوالدي ومؤتمن على أسراره خلال سنوات 1948 ـ 1952. وبفضل هذه الآلة أمضيتُ بلا شك أفضل لحظات حياتي. وبالفعل، كنت أبقى مع والدي بعد العشاء وبعد أن تخلد الأسرة إلى النوم.

كان والدي يملي علي حينئذٍ مراسلاته. وكان يملي في المتوسط رسالتين أو ثلاثاً في اليوم، يبعث بها إلى مراسليه الموزعين عبر العالم في أمريكا اللاتينية، وآسيا، وأوربا، والمشرق خاصة. وأصبحت بعض الأسماء مألوفة عندي مثل الشاعر شفيق معلوف في ساوباولو، والمستشرق عبد الكريم جرمانوس في بودابست، وراعي العلماء والأدباء محمد نصيف في جدة، والكاتب طه حسين في القاهرة وغيرهم... لكني لم أعثر، للأسف الشديد، بعد استعادة الاستقلال على نسخ من هذه المراسلات، وكنت أحتفظ بها باهتمام وعناية كبيرين. وأتحسر كثيراً على ضياع الرسائل التي وجّهها والدي إلى طه حسين، عندما تولّى وزارة المعارف، والمتعلقة بمشروع إنشاء معهد ثقافي مصري في باريس، كان والدي يشجّعه بكلّ ما لديه من قوة.

ومن هذه الأحاديث مع والدي التي لا تنسى أحتفظ بفكرة كان يكرّرها باستمرار وهي أن الإسلام هو نداء إلى الوسطية (بين الجانب الروحي والفعالية، بين عالم الدين ورجل الميدان) ودعوة إلى الحداثة. لكن العلماء في القرن العشرين، كما كان يضيف، لم يمارسوا الاجتهاد المطلوب لمواجهة حدة الضرورة وجسامة الهجوم.

* * * * *

وفي هذه الفترة أيضاً يسّر والدي أسباب النجاح لتنظيم التجار الجزائريين. فخلال اجتماع مع أشهرهم شرع في التذكير بنبذة تاريخية بقوله: «إن فرنسا احتلت الجزائر بالاعتماد على الثالوث المكوّن من العسكر ودعاة التنصير والتجّار. فإذا كانت جمعية العلماء تتصدى للتبشير بالعمل التربوي، فإنّ عليكم أن تقوموا بدوركم في مواجهة التجار من أجل التحرر الاقتصادي. أما بالنسبة إلى العسكر فثقتنا

كبيرة في المستقبل». ثم رثى لنشاطهم المنحصر في تجارة التجزئة، وفي أفضل الأحوال تجارة نصف الجملة، مما جعلهم تابعين تماماً لتجار الجملة الأوروبيين. وحثهم على تنظيم أنفسهم من أجل الاستيراد مباشرة من دون اللجوء إلى وسطاء. وهكذا ولدت شركة «أمل».

وكان صاحب الفضل في تأسيسها عملياً هو محمد وعلي عباس التركي الذي نجح في إقناع التجار المتردّدين والذي أكّد على الروح المغاربية السائدة في صفوف الحركة الوطنية بتعيين شاب تونسي تخرج من المدارس العليا على رأس الشركـة، وهو محمود العجيمي.

وكان أحد المؤسسين لشركة «أمل»، وهو السيد محمد خطاب، وأصله من الميلية، لكنه كوّن ثروته في الفلاحة بالمغرب، يفكر مليّاً وسرّاً في مشروع شراء مسكن لوالدي. وكان يعتقد أنها الطريقة المثلى لمكافأته على ما يبذله في سبيل الوطن (بناء 150 مدرسة ابتدائية، ومعهد ثانوي في قسنطينة، دون أن ننسى المساجد، والنوادي العديدة عبر الجزائر). اختيرت الفيلا، ونجحت الصفقة مع صاحبها الأوروبي. لكن قبل الاتفاق أمام الموثق، كان لا بد من إطلاع المعني بالأمر. وحدث انقلاب مفاجىء، حين رفض والدي رفضاً قاطعاً هذه المكافأة. وفي المساء روى لي الوقائع في أدقّ تفاصيلها، مبرراً رفضه بهذه العبارات: «الجزاء الوحيد الذي أنتظره هو في الآخرة، والملك الوحيد الذي أتمناه هو أن أسعد بقبر في أرض الجزائر». ولشدّ ما كان قلقي وأنا أسمعه يروي هذه الحادثة ويتحدث عن الموت في حضوري. لكنني اكتشفت في نبرة صوته نوعاً من الاعتذار عن حرمانه لأسرته من مسكن قار، أي من طمأنينة مادية أكيدة. وبادرت بتطمينه بالتأكيد على أن قراره هو عين الصواب. لم ينبس ببنت شفة، لكنني

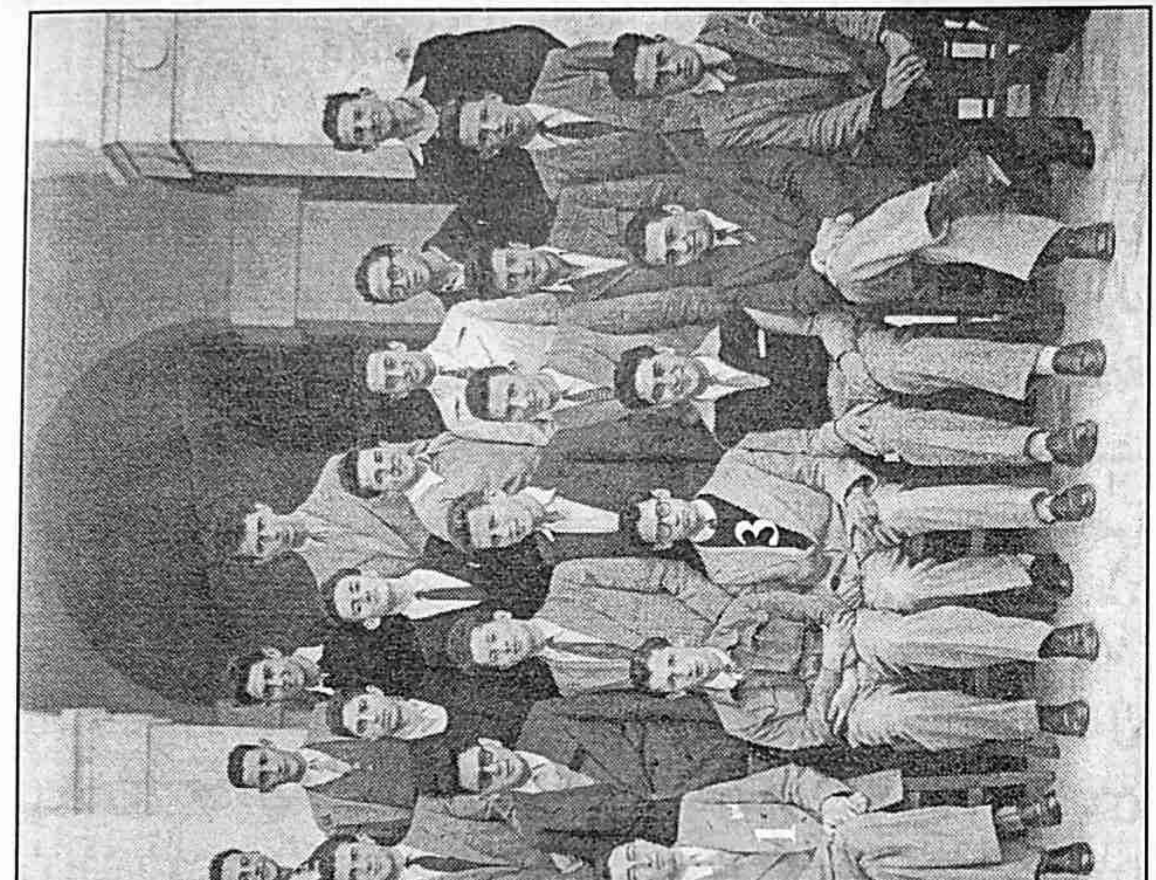
لمحت في نظرته بارقة اعتزاز وانبساط.

في جوان 1949 نجحت في امتحانات الطور الثاني من الباكالوريا، وهو محطّة إجبارية لدخول الجامعة. فطرح إذن السؤال المألوف في مثل هذه الحالات حول اختيار الدراسات العليا. وحين استشرت والدي ترك لي حرية الاختيار ونصحني فقط قائلاً: «حاول أن تتفادى الاختيار الذي يجعل منك موظفاً في الإدارة الاستعمارية (بعبارة أخرى اختر مهنة حرة)». فآثرت في النهاية الطب، وباركت أمي اختياري. وكنت أطمح إلى التخصص بعد ذلك في طب الأمراض العقلية، وهو التخصّص الوحيد الذي كان يبدو لي جامعاً بين الصرامة العلمية وميولي الأدبية.

همست في أذن والدي مخبراً بقراري، وكان في مكتبه مع زواره، قال بصوت عال: «إنْ فتح أحمد يوماً عيادة طبية، فسيعلن إفلاسه. لأني متأكد أنه عاجز عن طلب مستحقاته من المرضى». وهي نبوءة تحققت بالفعل، لأني حين مارست الطب بعد ذلك عملت في المستشفى كطبيب متفرغ، ولم أفتح أبداً عيادة.

بعد انقضاء أسبوع على حسم اختياري أهداني والذي كتاباً لا يقدر بثمن، هو طبعة من «القانون» لابن سينا منشورة في روما في سنة 1593 ما زلت أحتفظ بها إلى الآن بعناية كبيرة. وحين سلّمني الهدية علّق قائلاً: «من خلال هذه الموسوعة العظيمة سوف تدرك أن أجدادك ساهموا مساهمة لا يستهان بها في بناء صرح الحضارة الإنسانية، حتى في الميدان الذي اخترته».

******



الجزائر في جانفي 1949، ثانوية بيجو، قسم الفلسفة :

1-الأستاذ آلافوان، 2 - اسماعيل آيت جعفر، 3-روجيي اصان، 4 -أحمد طالب الإبراهيمي

## هوامش الفصل الثاني

(1) يرج البحري اليوم.

(2) اللجنة الوطنية لمساندة فلسطين، أُسِّسَت في سنة 1948، ورأسها الشيخ الإبراهيمي، وكان من أعضائها الشيخ إبراهيم بيوض، والشيخ الطيب العقبي، والزعيم فرحات عباس. وقد تجمع لدى هذه اللجنة مبلغ مالي أرسلته إلى جامعة الدول العربية عن طريق سفير مصر في باريس.

(3) ساحة الشهداء اليوم.

(4) ثانوية الأمير عبد القادر اليوم.

(5) حركة انتصار الحريات الديمقراطية: حزب وطني يدعو إلى استقلال الجزائر، أُسس في عام 1946 خلفاً لحزب الشعب الجزائري الذي حلته السلطات الفرنسية في 1939. وزعيم الحزب هو مصالي الحاج.

(6) الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، حزب يدعو إلى كيان جزائري ضمن الدولة الفرنسية، أُسِّس في سنة 1946، زعيمه هو

فرحات عباس، وقد حُلَّ كلٌّ من الحزبين غداة إعلان الثورة في أول نوفمبر 1954.

(7) حسين لَحْوَلْ: مناضل، ومن قادة نجم شمال إفريقيا، وحزب الشعب الجزائري، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية، حيث كان أميناً عاماً له. كان على رأس معارضي زعيم الحزب مصالي الحاج.

(8) حسين عسلة: مناضل في حركة أحباب البيان، ثم في حزب الشعب الجزائري/ حركة انتصار الحريات الديمقراطية. توفي في 1948.

(9) أحمد بوده: مناضل في حزب نجم شمال إفريقيا، وحزب الشعب الجزائري، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية، وكان من أعضاء اللجنة المركزية لهذا الحزب الذين عارضوا مصالي الحاج.

(10) أحمد فرنسيس: طبيب، ساهم في تحرير «بيان الشعب الجزائري» في 1943، ثم في تأسيس «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، انضم إلى جبهة التحرير الوطني، وزير الاقتصاد والمالية في الحكومة المؤقتة..

(11) أحمد بومنجل: حقوقي، مناضل في «نجم شمال إفريقيا»، ثم في حزب الشعب الجزائري، ثم انسحب منه، والتحق أميناً عاماً لحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بزعامة فرحات عباس. انضم إلى جبهة التحرير الوطني..

(12) عمار أُوزقان: مناضل في الحزب الشيوعي الجزائري وأمين عام له. طُرِدَ من الحزب الشيوعي، انضم إلى جبهة التحرير الوطني

انتقد الشيوعيين في كتاب ترجم تحت عنوان «الجهاد الأفضل».

(13) سانت آرنو: أحد ضباط فرنسا في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومن أكثرهم إجراماً، وقتلا جماعياً، وتدميراً للقرى.

(14) محمد أمين الدباغين: طبيب، أحد أبرز المناضلين وقادة حزب الشعب الجزائري أول وزير خارجية في الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

(15) «Biographie du XXe siècle: Le testament philosophique», de Roger Garaudy. édition Tougui, Paris, 1995, pp. 287-293.

(16) بوزرينة اليوم.

(17) انظر «الشاب المسلم» Le Jeune Musulman العدد 13- الافتتاحية.

(18) القانون الأساسي: (le statut de l'Algérie) صدر في 20 سبتمبر 1947. وينص على أن الجزائر مجموعة من المحافظات الفرنسية، لها شخصيتها المدنية، واستقلاليتها المالية. ويلغي الحكم العسكري في المناطق الصحراوية. ولها جمعية جزائرية (برلمان) تتكون من 120 عضواً، نصفهم أوربيون، ونصفهم جزائريون. . .

(19) J.F. Revel, Mémoires, Plon, 1997, P. 193. Paris.

(20) Ch-A. Julien, L'Afrique du Nord en marche, Julliard, 1972, P. 286. Paris.

(21) والحقيقة أن أول دار نشر جزائرية هي لصاحبها رُودُوسِي قدور مراد التي رأت النور في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

(22) حمزة بو بكر: عينته السلطات الفرنسية عميد مسجد باريس،

وقد استعملته في محاولة فصل الصحراء عن الجزائر في أوائل الستينيات.

(23) Editions de la Jeunesse. UDMA Alger 1951, Les Temps Modernes, 1954.

(24) محمد منصف باي: أحد بايات تونس، تولى الحكم في 1942. آزر الحركة الوطنية التونسية، وطالب باستقلال بلاده، خلعه الفرنسيون في 1943، ونفوه عن تونس، توفي في فرنسا في سنة 1948.

(25) محمد الخامس سلطان المغرب، خلعته فرنسا عن عرشه في عيد الأضحى من سنة 1953، ونفته إلى مدغشقر. ثم أعادته في نهاية 1955 تحت ضغط الأعمال المسلحة للوطنيين المغاربة، وضغط الثورة الجزائرية. توفي في 1961.

(26) عبد الحي الكتاني، من كبار علماء الحديث، ولكنه ـ للأسف ـ وَالَى الفرنسيين، وهو الذي «أفتى» لهم بخلع السلطان محمّد الخامس. توفي منفياً في فرنسا في 1962.

# 3

# في رحاب جامعة الجزائر (1949 ـ 1954)

## «الشاب المسلم» ـ رحلات نحو الغرب والشرق ـ

التحقت بجامعة الجزائر سنة 1949 في السنة التحضيرية للطب التي كانت تسمى آنذاك PCB (أي الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا). وكان عددنا نحن، الطلبة الجزائريين، لا يفوق العشرة من بين أكثر من مئة طالب. وقد قَدِم أغلبهم من مناطق بعيدة عن العاصمة، وكانوا يقطنون الحيّ الجامعي روبيرتسو، وهو مبنى متواضع مخصّص للطلبة الجزائريين، كنا نلتقي فيه في غالب الأحيان للأكل، ونتعرّف على زملائنا من الكليات الأخرى. وكان حي بن عكنون الجامعي، الضخم الرائع، بعيداً حيث قلّة من الجزائريين فقط تملك إمكانية تأجير غرفة هناك.

كان أغلب الطلبة المسلمين من الحاصلين على منحة، وكان من النادر بالفعل أن تجد عائلات تملك الإمكانيات المالية لتسديد نفقات متابعة أبنائها لدراستهم العليا. وكنت أعتبر أن استفادتي من منحة هي بالنسبة لي ضرورة وحق في آن واحد (أليس دافع الضرائب الجزائري هو الذي يمنحها في نهاية المطاف؟). وانتهيت إلى التخلي عنها لما

استشرت والدي فردّ عليّ بقوله: «لا أريد أن يحدث لك ما حدث للدكتور سعدان الذي رد عليه زميله النائب الفرنسي بعد ما تدخل في مجلس النواب في باريس: «حين تهاجم السياسية الفرنسية في الجزائر فأنت تنكر الجميل لأنك أصبحت طبيباً بفضل منحة قدمتها لك حكومتي».

انخرطتُ في جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا التي كانت جمعياتها العامة السنوية صاخبة بسبب سعي الأحزاب الوطنية للهيمنة عليها، لكن حضور الأستاذ حميد بن سالم الذي كان يرأس هذه الاجتماعات كان يُهَدِّئ من الأمزجة. وفي الحقيقة فإن أغلبية الطلبة الجزائريين كانوا يقولون عن أنفسهم إنهم غير مهتمين بالسياسة، أو بتعبير أدق يحترسون من إبداء تعاطفهم السياسي حتى لا يشوّشوا على دراستهم أو يفقدوا منحتهم. لكن هذا لم يخف وجود أقلية من النشطاء تعلن وطنيتها. وكان أغلبهم يناضلون في صفوف حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وكنت أشعر بقربي منهم متحسراً على الجلسات الصاخبة التي كانت تجمعهم بمناضلي الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري أو الحزب الشيوعي الجزائري. وكنت أشارك في كل التظاهرات التي تنظمها جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا في حي روبيرتسو. وحدث مراراً أن تناولت الكلمة، وعلى سبيل المثال كلمتي في أحد الاحتفالات بذكرى المولد النبوي الشريف.

كان الطلبة الجزائريون الذين لا يكاد عددهم يتجاوز عشر مجموع الطلاب البالغ عددهم خمسة آلاف طالب في جامعة الجزائر يعيشون في وسط مغلق تقريباً. كان لهم حيهم ومطعمهم وجمعيتهم واجتماعاتهم الخاصة وحتى حين كانوا يحضّرون امتحاناتهم إنما

يفعلون ذلك موزّعين في مجموعات كلّ واحدة منها تضم طالبين أو ثلاثة. وكانت اتصالاتهم بزملائهم الأوروبيّين قليلة. ولا أتذكر اليوم بأنني دخلت غرفة طالب أوروبي.

ومع ذلك كانت هناك مجموعتان صغيرتان نشطتين ومهيكلتين جيداً هما الشيوعيون والمسيحيون اليساريون، وكانوا يتقربون من الطلبة المسلمين الوطنيين ويهتمون بأمرهم.

وهكذا عرفت الحلقات الماركسية بفضل دانييل تيمسيت الذي تعرفت عليه قبل سنوات، بالأحرى عن طريق أخته هيقيت زميلتي في ثانوية ابن ميمون التي لفتت انتباهي لأن بحثها عن الآخر لم يَشُبْهُ أي حكم مسبق. كان الطلبة الشيوعيون رغم قلة عددهم يتميزون بالنشاط والتنظيم الجيد. وكانوا يدعونني إلى بعض المناظرات لعل أسخنها نقاش حول «الأمة الجزائرية»[1]. وأصبحت من قراء «الآداب الفرنسية» و«أكسيون» لإيف فارج. واكتشفت بول إيليار وأراغون دون أن ننسى بعض كتابات لينين وستالين. ولم تمر هذه المطالعات من دون أن تترك أثرها. وهكذا اعتبرت كتاب «إني اخترت الحرية» لفيكتور كرافتشينكو نسجاً من الأكاذيب صنعها عميل للغرب. وتطلب الأمر بعد سنوات أن ننتظر الزلزال الذي أحدثه نشر تقرير خروتشيف لأدرك أن الشمولية ليست وقفاً على نظام واحد. ومن جهة أخرى فإن هذا التعاطف مع الاتحاد السوفييتي ربما يفسر الأسباب التي جعلتني أنشر في «الشاب المسلم»[2] في سنة 1953 مقالاً مؤيداً للسوفييت بمناسبة موت ستالين. وفي نظرتنا للاتحاد السوفييتي كنا نرى فقط الوجه المعادي للاستعمار ولقوة عظمى مؤيدة للشعوب التي كانت تطمح إلى نيل استقلالها.

أما فيما يتعلق بالطلبة المسيحيين الذين كانوا يرغبون في محاورة زملائهم المسلمين فقد تحلقوا حول البروفيسور أندري ماندوز الذي كان يتخذ مواقف شجاعة على كل الجبهات، خاصة على أعمدة مجلة «Consciences Maghrebines» التي أنشأها والتقت على صفحاتها أقلام جزائرية وأوروبية متعاونة بشكل مثمر. والشيء الوحيد الذي كنت أعيبه عليهم هو أن إرادتهم لفهم الجزائر العميقة وقعت إلى حد كبير تحت تأثير شباب جزائري نأى بنفسه عن الإسلام.

وما عدا الشيوعيين والمسيحيين، هل كانت هناك مجموعة منظمة من الطلبة الأوروبيين من اليمين المتطرف؟ لم ألمح ذلك. إلا أنه في السنة التحضيرية وخلال درس الفيزياء وجدت نفسي أجلس في آخر مقعد من المدرج إلى جانب طالب في غاية الشقرة والشحوب. وكان عدم اهتمامنا المشترك بالفيزياء يقودنا إلى الحديث في الأدب. ولكم كانت دهشته كبيرة حين لاحظ أن شاباً عربياً يعرف شارل موراس الذي كان يتحدث عنه بحمية وإجلال. فأوصاني بإلحاح بقراءة برازيياك ودرييو دي لاروشال. وبعد مرور سنوات لم أندهش حين علمت في سجن «لا سانتي» بأن ذلك الشاب الأشقر الشاحب أصبح هو العقل المدبر لمنظمة الجيش السري[3] الإجرامية. ويتعلق الأمر بالطبع بجان جاك سوزيني.

وفي العام الموالي، في السنة الأولى بكلية الطب كنت أحضر كل صباح بمستشفى مصطفى حيث كنت أتعلم مهنتي بالاحتكاك بالأساتذة ومسؤولي الأقسام والمعيدين. كان بعضهم مجرداً من أية أحكام مسبقة، أما بعضهم الآخر فقد أصابته لوثة العنصرية. وهكذا فخلال فحص مريض في مصلحة البروفيسوركوستونتيني أراد هذا

الأخير أن يشرح لنا الطريقة التي تشل بها حركة الساعد في حالة من حالات كسر العظم، وقال لنا إنه يجب أن يتم ذلك على طريقة «أعطيني صوردي، أي بطريقة المتسوّل الأهلي[4] الذي يمد يده في شوارع العاصمة».

مثال آخر عن العنصرية لمسته أثناء امتحانات نهاية السنة الثانية مع أستاذ التشريح دوريبي الذي اعتاد طرح سؤالين فقط على المترشح للامتحان الشفوي، أما أنا فقد طرح علي سؤالاً ثالثاً، كأنه يريد أن أتعثر فأسقط في الامتحان.

خلال صيف 1950 قمت بأول رحلة خارج الجزائر. كيف؟ ولماذا تلك الرحلة؟ اكتشف الأطباء أن والدي كان مصاباً لدى خروجه من السجن سنة 1946 بمرض السكري. وكان يرفض الخضوع لحمية صارمة أو إلى علاج بالأنسولين. وقد تدهورت صحته جراء ذلك خصوصاً أنه كان يتنقّل باستمرار عبر الوطن، حينئذٍ وصف له الدكتور آيت سي أحمد الذي كان يتابع علاجه الاستجمام بالمياه المعدنية الحارة في فيشي. وتقرر أن أرافقه على الأقل كمترجم وهكذا اكتشفت فرنسا خلال هذا الصيف من سنة 1950.

اكتشفت أولاً فيشي التي قضينا بها 21 يوماً في العلاج. وأدركت أن العلاقة مع فرنسيي فرنسا أكثر طبيعية وأقل توتراً من فرنسيي الجزائر. فالناس هنا يخاطبونك مخاطبة الند للند وليس ككائن من رتبة أدنى. ولما انتشر خبر وجود والدي في فيشي توافد عليه العديد من المغتربين الجزائريين لزيارته والسلام عليه. وما أثار دهشتنا أكثر هو الوالي مشري، الجزائري الوحيد الذي ترقى في سلم الإدارة الفرنسية إلى حد تبوئه منصب الأمين العام لرئاسة الجمهورية

في عهد الرئيس فانسان أوريول. فما أن وصل حتى استدعى نائب والي المنطقة ومدير الفندق ليقدم لهما والدي بصفته «الزعيم الروحي لمسلمي الجزائر نظير البابا عندكم». وجاء زائر آخر أطال إقامته هو خريج الزيتونة الذي أمضى عامين في باريس لتعلم اللغة الفرنسية ويتعلق الأمر بالأخ إبراهيم مزهودي الذي سيصبح لاحقاً عضواً في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، ثم سفيراً في عهد الجزائر المستقلة.

ثم اكتشفت باريس، حيث أدركت أهمية الهجرة الجزائرية في فرنسا. فقد كانت متلاحمة مع شعبها سواء في المقاهي أو الفنادق أو أماكن العبادة أو قاعات الاجتماعات وتشحذ في الوقت نفسه أدوات النضال وتفتق حسها النقدي وأساليبها في التنظيم. تعرفت على ممثل جمعية العلماء السيد عبد الرحمن يعلاوي الذي كان يسترعي الانتباه بصرامة قناعاته واعتدال أقواله ورفعة حسه في التنظيم وقدرته الفائقة في الحوار. ولم تمنعني هذه اللقاءات من زيارة باريس بتماثيلها وحدائقها. وكان مسجد باريس يشبه، واحسرتاه! أثراً من زمن مضى وانقضى أكثر مما يمثل فضاء للإشعاع الروحي.

بعد أن نشّط والدي العديد من التجمعات في الضاحية الباريسية حاثا الجزائريين على فتح مراكز يتعلم فيها شبابهم دينه ولغته، قرر العودة إلى مدينة الجزائر في سبتمبر 1950.

وفي ديسمبر 1951 سافر مرة أخرى إلى باريس للقاء وفود البلدان العربية والإسلامية المجتمعة بمناسبة عَقّدِ دورة للأمم المتحدة، واقترح عليها تسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة القادمة للأمم المتحدة. وفي التاسع والعشرين من

جانفي 1952 أقيمت مأدبة عشاء في فندق Les Deux Mondes (العالَمَيْن) على شرف كل الوفود المشاركة. وتناول الكلمة ثلاثة خطباء هم عبد الرحمن عزام، الأمين العام لجامعة الدول العربية، والبشير الإبراهيمي وفارس الخوري، ممثل سوريا الدائم لدى الأمم المتحدة. واجتمعت على هامش هذا اللقاء الأحزاب الوطنية المغاربية وقررت تنسيق جهودِها.[5] وظل خطاب رئيس جمعية العلماء راسخاً في الأذهان ولا شك أن هذا الخطاب كان سبباً في دعوته لزيارة بعض البلدان العربية والإسلامية الشيء الذي نأى به عن الجزائر ابتداء من 7 مارس 1952 من أجل جولة في المشرق كتب لها أن تستمر عشر سنوات بدلاً من بضعة أشهر، ولا تنتهي إلا مع استرجاع الجزائر استقلالها.

وقبل أن يغادر البلد سعى والدي إلى تيسير سبل إنشاء «الجبهة الجزائرية من أجل الدفاع عن الحرية واحترامها» يوم 25 يوليو 1951 التي ضمت كل الأحزاب الوطنية قصد مواجهة السياسة الاستعمارية التي دأبت على تزوير الانتخابات ومطاردة المناضلين وقمع السكان. وإلى جانب حركة انتصار الحريات الديمقراطية والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والحزب الشيوعي الجزائري عيّن الشيخين العربي التبسي[6] ومحمد خير الدين[7] لتمثيل الجمعية في هذه الجبهة. وما زالت صورة هذين الشيخين، وهما جالسان، إلى جانب بول كاباليرو، الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري، حاضرة في ذاكرتي كرمز للتسامح والانفتاح عندما يوضعان في خدمة نضال تحرري.

خلال هذه الفترة واجهت محنة أخرى حين عرفت تجربة مروعة بفقدان إنسان عزيز على نفسي هو ابن عمتي السعيد الذي عجّل به

مرض اللوكيميا ولما يتجاوز الثالثة والثلاثين من العمر. وقاسمت كل العائلة ألم عمتي التي فقدت ابنها الوحيد وأصبحت منذ ذلك الحين موضع رعايتي وعنايتي.

يوم بلغت العشرين من عمري في الخامس من جانفي 1952 قمت بمعاينة أولية للواقع الذي نعيشه، كنت أحسّ بالاختناق في الجو العنصري السائد في الجزائر العاصمة. وأدركت أنّ عقلي مهدّد بالإتلاف، وجسمي معرّض للذبول والتجفيف إن أنا بقيت هنا أراوح مكاني، وأنه يجب أن أهرب، عاجلاً أم آجلاً، نحو آفاق أرحب. كنت أشعر بنفسي غريباً في عاصمة بلدي. وكانت آفاقي تضيق أكثر فأكثر من جرّاء ضعف الحياة الثقافية والترفيهية، ولا شيء يسليك!.

وفي الجامعة كنت حذراً محترساً باستمرار، وكنا نحن الجزائريين نشكل أقلية صغيرة مغمورة وسط مجموع الطلبة، أقلية منطوية على نفسها، وبالتالي عاجزة عن أن تنهل من تجارب الآخرين. وكانت التحفظات موجودة لدى الجانبين، وكنا نصطدم بلا شك بجدار من اللامبالاة والاحتقار، لكننا نحن أيضاً نفتقد إلى الليونة ورحابة الصدر. ولا أذكر أنني ناقشت مشكلة بعمق مع زميل أوروبي. ومن جهة أخرى، كانت المشاكل المهمة التي لها صلة بمستقبل البلد لا تطرح للنقاش لأنّها تدخل ضمن المحرمات. ولو كنت أقل خجلاً لَنجحت ربما في معاشرة بعض الأوساط الفرنسية في الجزائر. لكني كنت ذا طبع متحفظ أتلذذ بوحدتي. بالطبع كان لي بينهم زملاء لكنهم لم يكونوا أصدقاء. وفي الحقيقة أن ما كان يشغلني أكثر هم أترابي من شباب بلدي الذين أحتك بهم. وكنت على وعي بهذا التناقض بين إحساسي بواجبهم الملح في أن يتعلموا وشعوري بالألم بأن أولئك

الذين يترددون على المدرسة الفرنسية يبتعدون شيئاً فشيئاً عن مقوّمات الشخصية الوطنية.

خلال السنتين الأوليين اللتين قضيتهما في الجامعة لاحظت أن بعض زملائي من الجزائريين يجسدون الاستلاب الإيديولوجي الذي لم أكن أعرفه إلا من خلال الكتب، والذي هو نتيجة طبيعية للظاهرة الاستعمارية فهم يعانون من مركب الاغتراب في الوسط الذي نشأوا فيه ويبتعدون عن عادات شعبهم وقيمه. ولأول مرة اتضحت في ذهني أهداف التعليم الاستعماري: فصل النخبة عن ثقافتها الأصلية وإشباعها بثقافة دخيلة تنهل منها حتى تصبح مجرد أداة للهيمنة الاستعمارية. وأمام هذه المفارقة اعتبرت من واجبي أن أرفع صوتي لأقول «لمثقفينا» إنهم أخطأوا السبيل وإنهم لن يكونوا نخبة الأمة إلا إذا ظلوا أوفياء لشعبهم وقيمه. وبدأت في التفكير جدياً في رد الفعل، وخلصت إلى نتيجة، وهي أن أفضل طريقة للدفاع هي إنشاء جريدة باللغة الفرنسية تكون بالمقابل وسيلة للتأصيل ومن ثمة وسيلة للتحرر.

وبالفعل، بدا لي أكثر فأكثر أن تصفية الاستعمار أمر لا مفر منه. فقد تميّز الوضع الدولي سنة 1951 بضربتين للإمبريالية الغربية كانتا غاية في الأهمية: قرار مصر بإلغاء معاهدة 1936 التي أبرمت مع بريطانيا الشيء الذي سيمهد لتأميم قناة السويس. وقرار مصدّق بتأميم الثروات البترولية لإيران عن طريق تصفية الشركة الأنجلو إيرانية للبترول.

عرضت المشروع على الشخصيات الثلاث التي كانت تدير جمعية العلماء في غياب والدي (العربي التبسي، ومحمد خير الدين، وأحمد توفيق المدني[8] فوافقوا عليه، واعتبروه مقدمة لإنشاء حركة

لشباب الجمعية. وكدليل على تشجيعهم للفكرة قبل أحمد توفيق المدني كتابة افتتاحية العدد الأول التي تناولت أفكار مشروعي نفسها.

وبموازاة ذلك حاولت أن أشكل فريقاً صلباً ومثابراً. ووافق صديقي عطاء اللّه سوفاري الذي كان يشتغل في إدارة «البصائر» بالعربية، لسان حال جمعية العلماء، على إدارة الجريدة الجديدة (المطبعة، الاشتراكات، التوزيع، بريد القراء... إلخ). أما علي مرّاد، الذي كان طالباً بكلية الآداب بجامعة الجزائر، فسيكون قطب الرحى في هيئة التحرير.

وبعد ما أنهيت امتحانات السنة الثانية في الطب، وهي الأصعب، صدر العدد الأول من «Le Jeune Musulman»، (الشاب المسلم) في السادس من جوان 1952.

ونجحت في الحصول على موافقة من كانوا يكبروننا سناً ويحظون بالهيبة والتقدير. ومنهم عمار أوزقان، الذي تعلّمت منه أشياء كثيرة. فقد كان أميناً عاماً سابقاً للحزب الشيوعي الجزائري، ثم تقرّب من الأوساط الوطنية. وقد تعرّفت عليه حين كان يزور والدي بانتظام في مقر الجمعية. وكان هو الذي رافق بعض الشخصيات الفرنسية من اليسار منهم روجي غارودي في زيارته لوالدي. ثمّ بعد ذلك انضمّ إلينا عدد من الشخصيات مثل: مالك بن نبي، وعبد العزيز خالدي، والهاشمي التيجاني، وإسلام مدني، وشخصيات أخرى اتصل بها عمّار أوزقان مثل: محمد الشريف ساحلي، ومصطفى الأشرف.

وستعيش هذه الدورية نصف الشهرية المتواضعة بحسب الأحوال والظروف المحيطة طوال سنتين (1952 ـ 1954). لكنها

ستترك أثرها بلا ريب في المشهد الإعلامي الجزائري قبل اندلاع الثورة في أول نوفمبر 1954. ومن الصعب اليوم تحليل أثرها بشكل كامل. لكن يمكن القول إنه منذ الأعداد الأولى بلغ سحبها 10 آلاف نسخة لكل عدد، وأصبحت سنداً بارزاً للأسبوعيات الوطنية الأخرى مثل «الجزائر الحرة» التي كانت تصدرها حركة انتصار الحريات الديمقراطية و«الجمهورية الجزائرية» للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري. وكانت الرسائل الهامة التي تصلنا من القراء من مختلف جهات الوطن تعيننا على توجيه الجريدة وإعداد محتواها.

وكانت المهام موزّعة بشكل جيد. فكان علي مرّاد مسؤولاً عن ركن «في ضوء القرآن والحديث» ويديره بمهارة. أما أوزقان فيتناول في مقالاته أساساً مناورات السياسة الاستعمارية من خلال العمل التنصيري للآباء البيض(9) والنزعة البربرية. ولا يفوتني أن أشير إلى مقاله: «لماذا احتضنت جبال جرجرة الممنوعة على جوبيتير رسالة محمد؟». وهو من عيون مقالاته. أما الساحلي، فقد كان يفسر تاريخ التعليم الاستعماري وينشر مختارات من مؤلفه «عبد القادر فارس الإيمان». وعلاوة على ذلك انتقد مولود معمري بعد صدور روايته «الربوة المنسية»، وهو الجدل الذي شارك فيه أيضاً مصطفى الأشرف الذي رد بدوره على «المشنّعين على الإسلام». وكان الدكتور خالدي يعلق على الحوادث بسخرية لاذعة. أما مالك بن نبي، فكان قد شرع في التفكير في الحركة الإسلامية بتحليله لفكر حسن البنا. وكان الهاشمي التيجاني يطرح أفكاره حول الطريقة التي يعيش بها الشاب المسلم إيمانه في وسط معاد. أما أنا، فقد كرسّت جهودي لتحرير الافتتاحيات، وربط الصلة مع العالم الإسلامي، وجمع شهادات الكتّاب الغربيين الذين نوّهوا بإسهام أجدادنا في الحضارة العالمية.

منذ صدور جريدة «الشاب المسلم» لم أنفك عن محاربة تلك النظرة العرجاء لتاريخ الفكر الإنساني، التي أصبحت من الكليشيهات في الغرب، والتي تعتبر أن بين أفلاطون وأرسطو من جهة، وديكارت وسبينوزا من جهة أخرى، هناك العدم، وأنّ القرون التي سطعت فيها الحضارة الإسلامية ما هي إلاّ مناطق قاحلة لم تُنتج إلاّ أشباح مفكرين!.

وخلال هاتين السنتين كان برنامج عملي مضبوطاً بدقّة. فكنت أقضي الصبيحة في المستشفى والظهيرة في الكلية، وخصّصت أوقات فراغي كلّها للجريدة، إما في مقر الجمعية حيث كان سوفاري يملك مكتباً. وإما في المطبعة ساهراً على الإخراج والتصحيح.

وحتى قراءاتي كرّستها للجريدة. فقد كانت مختلف الترجمات الفرنسية لمعاني القرآن الكريم، والكتابات المترجمة للأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، ومحمد إقبال، وأحمد رضا[10] هي كتبي المفضّلة، بالإضافة إلى «حضارة العرب» لغيستاف لوبون، و«مجالي الإسلام» لحيدر بامات، و«مدخل لدراسة الإسلام» لعبد الرحمن بن الحفّاف[11]، وحين كنت أذهب إلى المكتبة الوطنية فقد كان ذلك للاستعانة بـ«موسوعة الإسلام» أو قراءة مقال في مجلة متخصّصة.

وجدير بالذكر أن لا أحد من المتعاونين في «الشاب المسلم» يتلقى ولو سنتيماً واحداً من الجريدة مكافأة على مساهمته. وكان سوفاري يجهد نفسه ويكّد في سبيل أن تغطي المبيعات تكاليف الطبع. ولم يمنع هذا متعاونين آخرين من الانضمام إلينا لدعم التحرير، فسلّمني محمد لبجاوي أشعاراً وقعها باسم يوسف الغفاري،

تعبيراً منه عن إعجابه المزدوج، كما شرح لي، بجوزيف ستالين وأبي ذر الغفاري الصحابي الجليل، وأحد أكبر المدافعين عن مبدإ العدالة الاجتماعية. كما شارك في التحرير حسين بوزاهر وأحمد شامي(12)، الذي كان يرسل من عين الصفراء أشعاراً ومقالات لفت فيها الانتباه إلى خصوصيات الاستعمار في الجنوب الجزائري المتمثلة في إنشاء «مناطق عسكرية» والحضور المتزايد «للآباء البيض».

في نوفمبر 1952 قرّرنا تخصيص عدد لذكرى المولد النبوي طبع منه 20 ألف نسخة. وبهذه المناسبة حاولت استكتاب أقلام من المغرب وتونس لأضفي على الجريدة بعداً مغاربياً. لكن لم يستجب لدعوتي إلا المغربي عبد العزيز بن عبد اللّٰه.

وتخلل السنتين من حياة «الشاب المسلم» (1952 ـ 1954) فاصل زمني مفيد. فأثناء صيف 1953، وعند نهاية سنتي الثالثة في كلية الطب، اعتقلني الجندرمة في بيتنا بالقبة، بحجة أني «هارب من الخدمة العسكرية»، ولم أستجب إلى استدعاء تجنيدي في الجيش الفرنسي. والحقيقة إني لم أتلق أي استدعاء، وأن كل الطلبة يستفيدون آلياً من التأجيل. وكانت تهمة غير بريئة من حكم مسبق. هل كانت طريقة من الطرق لتوقيف صدور «الشاب المسلم»؟ أم أنهم كانوا يريدون منعي من السفر إلى القاهرة لزيارة والدي، بعد أن عبّرت عن رغبتي تلك حين طلبت جواز سفر من مصالح ولاية الجزائر؟.

وعلى كلّ حال حُجِزْتُ أكثر من شهر في ثكنة حسين داي، ثمّ في مستشفى مايو، ومثلت أمام المحكمة العسكرية، وإنّي لمدين بإطلاق سراحي إلى التدخل الحازم لفرحات عباس الذي كان آنذاك نائباً في المجلس الجزائري(13)، وحين ذهبت لسحب جواز سفري من

الولاية أرغموني على التوقيع على تصريح يلزمني بعدم تمديد إقامتي في القاهرة.

وعندما أفرج عنّي أخبرني سوفاري أن أحد «الآباء البيض» (رجال الدين المسيحي) زاره عدّة مرات بهدف لقاء رئيس تحرير «الشاب المسلم»، وقد زاد هذا الإلحاح من شكوكي أنه شرطي متنكّر يريد أن يعرف هوية المنشط الحقيقي للجريدة - إن لم يكن قد عرفها من قبل -، وفي يوم وأنا داخل مكتب سوفاري وجدتُ نفسي وجهاً لوجه مع شاب أشقر لا يتجاوز عمره الثلاثين، يرتدي اللباس التقليدي للآباء البيض: برنس أبيض وصليب كبير في عنقه، جال في خاطري أول وهلة أنه جاء يشكو من مقال لعمّار وزقان كنا نشرناه عن «الآباء البيض في خدمة الإمبريالية» أو من مقال آخر لأحمد شامي عن نشاطهم المشبوه في الجنوب الجزائري، كلاّ! بدأ بعرض طويل عن عدالة نضالنا من أجل تحرير الجزائر حتى صاح: «إن الفرنسيين أجانب في هذه الأرض وسوف يغادرونها إن آجلاً أو عاجلاً»، كنتُ مشدوهاً بكلامه أسبح في سعادة عارمة، إذ كان يصعب في 1953 لقاء فرنسي يتخذ مثل هذا الموقف وبهذا الوضوح، فقلتُ في نفسي: إنه رجل دين يتبع سنّة المسيح! وفجأة ينطق بجملة كان يريدها عادية بسيطة: «ولكن من واجبكم أن تتخذوا نفس الموقف تجاه العرب الذين هم أيضاً دخلاء وغزاة في هذا البلد»، عندئذٍ أفقتُ من غفوتي فأجبتُ: «فرّقْ تَسُدْ» هذا هو المبدأ الذي قاد العمل الاستعماري في الجزائر، أن يستعمله السياسيون فهذا مقبول، ولكن أن يقع في هذا الفخّ رجل دين فهذا غير لائق، فخلافاً لما تدّعون فإن كل سكان الجزائر أمازيغ عربهم الإسلام، وهم يكافحون من أجل الاعتراف بهويتهم وحقوقهم، وهي معركة تلقى تأتيداً عند بعض الفرنسيين في الضفة

الأخرى من المتوسط أتمنّى أن تنضموا إليهم، ونصحته بقراءة مقال عمار وزقان حول «النظرية البربرية في خدمة التقسيم الاستعماري للجزائريين».

خلال صيف 1953 قمت بأول زيارة لي إلى المشرق بعد زيارتي الأولى إلى الغرب قبل ذلك بثلاث سنوات. لكن الشرق الذي كنت مندفعاً إليه لم يكن هو الشرق الغريب، الشرق الخيالي، كما هو في «ألف ليلة وليلة» وعند الكتّاب الأوروبيين في القرن التاسع عشر. كنت قاصداً مصر التي ترمز إليها ثلاثة معالم هي: عمرو بن العاص الذي فتحها في القرن السابع للميلاد، وصلاح الدين الأيوبي الذي انتشلها من الحملات الصليبية في القرن الثاني عشر، وجمال عبدالناصر الذي أطاح من دون إراقة دماء بملكية ميّزها الإهمال والرشوة. كنت قاصداً مصر التي كانت تأتينا منها في الثلاثينيات مجلة «الرسالة»، مصر موطن أحمد شوقي الذي كنا نؤدي أدواراً في مسرحياته التراجيدية. ومحمد عبد الوهاب الذي كنّا نغنّي أغانيه، والمنفلوطي، وطه حسين، وأحمد أمين، الذين أثروا مداركي في صباي. كنت قاصداً الشرق الذي سعت فرنسا بكل ما لديها من إمكانيات لفصلنا عنه بستار من حديد.

وصلت القاهرة يوم 22 أوت 1953 وكلّف والدي، الذي كان في الحج، طالباً شاباً مصرياً، هو علي عفيفي ليرشدني. فزرت معه مقر «الإخوان المسلمين» حيث استقبلني المرشد العام نفسه، حسن الهضيبي، وكذلك مسؤولو الفروع المختلفة (طلبة وعمال وفرع الاتصال بالعالم الإسلامي...) وصادف ذلك اليوم من 25 أوت عقد الندوة الأسبوعية لحركة الإخوان، وكانت مخصصة للوضع في

المغرب الأقصى. شاهدت هناك لأول مرة علال الفاسي يتناول الكلمة. وفي اليوم التالي حضرت «مؤتمراً عربياً إسلامياً» نظمه الحزب الحاكم (هيئة التحرير) عقب حوادث المغرب وليبيا. وسمعت أيضاً لأول مرة جمال عبد الناصر يخطب، وأدركت من خطابه مدى نفوذه في الجماهير. وفي 11 سبتمبر أديت صلاة الجمعة، ورأيت في المسجد الرئيس محمّد نجيب. وفي المساء حضرت سهرة نظمها «الشبان المسلمون» بمناسبة السنة الهجرية الجديدة.

خصّصت اليوم التالي لجولة في القاهرة التي سحرتني حقّاً بمتحفها الوطني ونصبها التذكارية (الأهرامات، ومسجد عمرو بن العاص، والقلعة) وحدائقها، ونواديها، ولافتاتها الضوئية باللغة العربية، ومصانع نسيجها الضخمة، وشعبها البسيط الذي برع نجيب محفوظ في وصفه. شعب يعاني الكثير بالتأكيد، ولكنه يعيش بأمل كبير منذ ثورة 23 يوليو 1952.

قاهرة 1953 كأنها منارة العالم الإسلامي. إنها مدينة ضخمة متشعبة، وملتقى يلتئم فيه شمل النخب الفكرية والدينية والسياسية، التي كان من حظي أن أراها وأستمع إليها وأختلط بها. وبفضل والدي الذي عاد من الحج، تعرّفت على شيخ الأزهر محمود شلتوت، ومفتي القدس الحاج أمين الحسيني، وعبد اللّه التل الذي حارب في فلسطين سنة 1948، والصادق مجددي سفير أفغانستان، وعبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية، والمغاربة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي المحارب القديم في الريف وأخيه امْحَمَّد، وعلال الفاسي زعيم حزب الاستقلال، والتونسيّين محي الدين القليبي، من حزب الدستور القديم، وصالح بن يوسف ومحمد بدرة من الدستور

الجديد، والجزائريين محمد خيضر[14]، وحسين آيت أحمد[15]، والشاذلي المكي[16]، وأحمد بيوض وغيرهم...

كان والدي يغتنم كلّ الفرص التي كانت القاهرة تتيحها له للتعريف بالقضية الجزائرية والدفاع عنها سواء قبل أول نوفمبر 1954 أو بعده. وهكذا استمعت إلى أحاديثه في مقر «الشبان المسلمين» الذي كان يرأسهم صالح حرب، وكذلك محاضرة ألقاها في مقر «الإخوان المسلمين». وكان يحظى في كل مكان بالاحترام والتبجيل. وأذكر خاصة محاضرة ألقاها عند «الإخوان». وكان يجلس في الصف الأمامي كلّ من حسن الهضيبي، وسيد قطب، وعبد القادر عودة، وعبد الحكيم عابدين، وسعيد رمضان، ومحمد الغزالي. وكان موضوع المحاضرة القول المأثور: **«خذوا الرجال بالحق ولا تأخذوا الحق بالرجال»**.

حضرت استقبال عبد الناصر لوالدي، وتعرّفت على بعض أعضاء مجلس الثورة منهم كامل الدين حسين، المكلّف بقضايا التربية والثقافة. وحين بدأت العلاقة بين عبد الناصر والإخوان المسلمين تسوء حاول الشيخ الإبراهيمي الإصلاح بينهم. ومنذ ذلك الوقت ألصقت به تهمة جعلت منه مرشد الحركة والناصح لها، ومن المؤكّد أن بعض الجزائريين متواطئون في ذلك. وكانت النتيجة أنّ العلاقة بينه وبين السلطات المصرية عرفتْ مرحلة من الجفاء قلّصت من نشاطاته.

زرت مساجد القاهرة وانبهرت لمجودي القرآن. فإلى جانب الأصوات التي ألفناها بفضل هيئة الإذاعة البريطانية، كان النجم الصاعد في ذلك الوقت هو مصطفى إسماعيل الذي سرعان ما حلّ محلّه عبد الباسط عبد الصمد.

عدت في أكتوبر 1953 إلى الجزائر لأستأنف دراستي في الطب بالسنة الرابعة وتنشيط «الشاب المسلم» الذي توقف عن الصدور في جوان، ولم يعد للصدور إلا في شهر جانفي 1954. لقد فتحت لي رحلتي إلى مصر باب الأمل في مستقبل أفضل لبلدي. ومن الآن فصاعداً بدا لي تحرر الجزائر ممكناً، بل قريباً لأنه يندرج في مسيرة شاملة لتصفية الاستعمار كانت جارية، ولأننا نملك قاعدة خلفية هي العالم العربي الإسلامي ومنارته هما: مصر وباكستان. وقد انعكس ذلك على محتوى افتتاحياتي التي أصبحت أكثر سياسية: كان عنوان إحداها هو «من مراكش إلى كراتشي»، أما عنوان الأخرى فهو «أمل النصر» أحيّي فيها انتصار الشعب الفيتنامي على الجيش الفرنسي.

لن أستطيع كما أسلفت أن أقيّم بدقة التأثير الذي مارسته الجريدة على القرّاء. غير أنه فيما يخصني أستطيع التأكيد أن هاتين السنتين (1952 ـ 1954) كانتا نافعتين من حيث تعلّمي كيف أصيغ بقدر ما أستطيع من الوضوح أفكاري من جهة، والعودة إلى منابع الثقافة الإسلامية من جهة أخرى.

في صيف 1954 وضعت اللمسات الأخيرة لمشروع أعددته مع والدي. وهو مرافقة والدتي إلى مكة المكرّمة لأداء فريضة الحجّ مع توقف في القاهرة والانتهاء بإقامتنا نحن الثلاثة في دمشق، وهي المدينة الوحيدة التي احتفظت عنها والدتي بذكريات راسخة.

لكن القاهرة في شهر جويلية 1954 تبدلت وانتهى شهر العسل بين الرئيس جمال عبد الناصر و«الإخوان المسلمين». ووجدت الجو لا يحتمل إلى درجة أن والدي لم يكن يتمتع بنفس حرية العمل. إلا أن الرئيس عبد الناصر وافق على استقبال وفد من جمعية العلماء

يرأسه والدي ويضم الفضيل الورتلاني، والعربي التبسي، وأحمد بوشمال[17]، والأخيران جاءا من الجزائر لأداء فريضة الحج. حضرت المقابلة وكان عبد الناصر لبقا جداً، ووعد بأن مصر التي تقف دوماً إلى جانب الجزائر ستبذل كل ما في وسعها لكي تتحقق أماني جمعية العلماء، وخاصة تقديم منح للطلبة الجزائريين في الجامعات المصرية. ولكنّني استشعرت قدوم العاصفة.

ولحسن الحظ أن البقاع المقدسة ستنسيني تلك الانطباعات القاتمة. في مدينة جدّة التي كانت عبارة عن مشهد ضخم لالتقاء كلّ الأجناس، وكل اللغات، وكل الألوان، تحدوهم نفس الحماسة والورع، يردّدون نفس النداء «لبيك اللّهُمَّ لبيك». استقبلنا، أنا ووالدتي، الشيخ محمد نصيف الذي أصرّ على استضافتنا في بيته الكبير. وكان نصيف شيخاً جليلاً وقوراً يملك الحس بالنكتة. ولاحظت أن أصدقاء والدي يتميزون بسمة خاصة، فهم يجمعون في الغالب بين قوة الإيمان وسعة الثقافة وطيبة القلب.

وفي مكة المكرّمة أدينا شعائر الحج، فطفنا حول الكعبة التي تتجه إليها خمس مرات في اليوم وجوه نصف مليار مسلم، وسعينا بين الصفا والمروة، ووقفنا بعرفات حيث ألقى الرسول خطبته في «حجة الوداع»، وبالمزدلفة ومنى، وأخيراً توّجهنا إلى المدينة المنوّرة. وفي الحافلة التي كانت تقلّنا من المطار إلى المدينة صاح السائق لدى رؤيته للقبة الخضراء «ها هي المدينة، المدينة!». لم أستطع أن أحبس دموعي، وتولّد لديّ إحساس غريب أمام بكاء كل المسافرين في الحافلة كأنّ الرسول(ﷺ) مات في هذه اللحظة. وتذكّرت كلّ ما قرأت عن هذه المدينة المقدسة وكل الحوادث البارزة التي كانت

مسرحاً لها، خاصة استقبال الأنصار للرسول (ﷺ) بعد اضطراره إلى مغادرة مكة حزيناً، وخبه الذي لم يستطع إخفاءه لمسقط رأسه، وعودته المظفرة فاتحاً بعد أن أمضى سنوات في المدينة ـ وما أخصبها ـ. وتمنّيت من أعماق قلبي أن لا يكتفي هذا المليون من الحجاج بإجلال قبر، بل أن يجعلوا حياتهم الفردية مطابقة لحياة الرسول (ﷺ) وسنّته، وحياتهم الجماعية منسجمة مع مبادىء الدولة التي بناها الرسول الأعظم في المدينة.

يملك سكان المدينة المنوّرة قدرة على استقبال ضيوفهم تتجاوز طاقاتهم. وكانت والدتي مسرورة بثنائي على ذلك، لكنها أسّرت لي أنها إذا كانت قد وجدت ما عهدته من كرم الضيّافة عند أهل المدينة، فإنها لم تتعرف على طبوغرافية المدينة التي أمضت فيها طفولتها.

إنّ الحج وحده يكتسي، من بين الأركان الأساسية للإسلام، بعداً سياسياً واضحاً. وقد أدركت ذلك من خلال التنوّع الاثني واللغوي للحجاج. فمن موريتانيا إلى أندونيسيا، ومن فنلندا إلى جنوب إفريقيا، التقيت حجاجاً من العالم أجمع. وجود عبد الناصر الذي حج في تلك السنة جلب له تعاطف الكثيرين، وزاره العديد من الحجاج. وشكّل الجزائريون وفداً كنت أحد أعضائه استقبله الرئيس في 11 أوت. أوجز لنا في كلمات قليلة «فلسفة ثورته»، وختم بالتأكيد على أن الجزائر لا يمكنها أن تظل خارج تيار التحرّر العالمي. ومن جهة أخرى، أثارت الخطبة التي ألقاها في المسجد الحرام سعيد رمضان، الذي كان قد شرع في إصدار مجلة «المسلمون»، حماس الحجاج عندما حثّهم على التحرّر من الاستعمار والاستبداد. ومرة أخرى استشعرت قدوم العاصفة.

كان 16 أوت هو آخر يوم لنا في البقاع المقدسة التي شعرت أنها موطني، قديم العهد بها حتّى إنني كنت حزيناً كلّما فكّرت في ساعة الفراق. ولكن لكلّ شيء نهاية، وفي اللحظة المناسبة قمت بطواف الوداع رفقة أحمد بوشمال في جو من الخشوع الروحي قلّ نظيره.

ولا شكّ أن المرء يدرك عظمة الإسلام عندما يشاهد هذه الملايين من الناس تؤدي شعائر الحج. ما الذي يدفع هذه الجموع إلى تجشّم عناء السفر ومواجهة القيظ اللافح والاختلاط بالغير في جوّ من الخشوع والورع والأمل؟ ها نحن من جديد في مدينة جدّة نتهيأ لتوديع البقاع المقدسة. وكنت، أنا ووالدتي، مسافرين إلى القدس ليس لأن زيارة أولى القبلتين وثالث الحرمين تعد جزءاً من فرائض الحج، لكن زيارة القدس الشريف، بعد مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة، تضفي على الحج طابع الكمال. إن قبة الصخرة (مسجد عمر) بجلالها والمسجد الأقصى وباحته بعظمته يثيران في المرء الرغبة في إطالة الإقامة. ولم نكن نتوقّع آنذاك أن حرب 1967 ستحرم بعد سنوات المسلمين من زيارة مدينتهم المقدّسة الثالثة.

كان والدي ينتظرنا في دمشق كما كان مقدّراً. هناك تعرّفت على أصدقائه. أصدقاء شبابه الذين غادرهم في 1920، مثل بهجت البيطار وزين العابدين بن الحسين، وأصدقائه في المجمع اللغوي في دمشق، أمثال الشاعر الكبير خليل مردم بك وجعفر الحسني الجزائري الأصل، وأصدقائه من المؤتمر الإسلامي، مثل مصطفى السباعي، زعيم «الإخوان المسلمين» في سوريا. دعانا الأمير سعيد الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر، إلى بيته واستقبلنا مع أسرته.

دهشت للعدد الكبير من المنحدرين من أصول جزائرية. وكانوا متمركزين، كما قيل لي، في حي الميدان. لكنهم في الواقع موجودون في كل مكان. في الإدارة وفي التعليم والحرف التقليدية... فمنذ استقر الأمير عبد القادر هنا قبل قرن بالضبط استقبلت دمشق موجات متتالية من الجزائريين استقبالاً رائعاً. وشخصياً لن أنسى أن دمشق هي التي أتاحت أثناء الحرب العالمية الأولى للشاب البشير الإبراهيمي إمكانية تفتيق مواهبه، أستاذاً في مكتب عنبر، ومحاضراً في النادي العربي، وداعية في مسجد الأمويين.

اقترح علي والدي أن أغتنم فرصة إقامتي في دمشق لأعرجّ على اسطنبول. وكان بلا شكّ يتمنى أن لا تقتصر رحلتي على العالم العربي، حتى تشمل مدينة ما زالت تثير الإعجاب بآخر روائع الحضارة الإسلامية. خاصة في ميدان المعمار. وفي دمشق اكتشفت أن نظرتنا، نحن المغاربة، للأتراك تختلف عن نظرة العرب إليهم في المشرق. فهم يعتبرون الأتراك طغاة مضطهدين، أما نحن فننظر إليهم على أنهم ساهموا في تأخير احتلال أوطاننا بمنعهم الأسبان خاصة من السيطرة على بلدان المغرب. رافقني من دمشق إلى مطار بيروت محمد خمار، وهو شاب جزائري من تلك الجالية الجزائرية التي هاجرت إلى دمشق، وسيصبح صديقاً حميماً للعائلة. وزرت برفقته مسجد ابن عربي الذي دفن به كلّ من المتصوّف الكبير محي الدين بن عربي والأمير عبد القادر الذي كان يعتبر نفسه تلميذه البعيد.

قضيت أسبوعاً كاملاً في اسطنبول وكنت وحيداً. وكانت الطائرة التي حملتني من بيروت مكتظة بحجاج أتراك عائدين من جدة. يا له من ورع! لم يفلح كمال أَتاتُرْك في إخماد إيمان الشعب التركي أو

حتى إضعافه. شاهدت في مطار اسطنبول حاجا يهدي سبحة جلبها من مكة لأحد الجمركيين الذي شكره وذرف الدموع.

سكنت في بايوغلو، وهو حيّ عادي، و«استقلال جاديسي» يشبه أيّ شارع في أيّ مدينة جزائرية. ولكني انبهرت حين زرت السليمانية، والمسجد الأزرق، وكنيسة القديسة صوفيا، وقصر طوبقابي. ففي هذا المتحف لا تستطيع فخامة الجواهر والنفائس أن تنسيك بساطة ذخائر الرسول (ﷺ). أما المساجد العثمانية الكبيرة، فهي في الواقع جامعات حقيقية بما تضمّه من مدارس (كليات اليوم) ومستشفى، تحيط بها مساكن الطلبة.

صعدت الطريق المبلّط المؤدي إلى مقهى بيير لوتي (يا لها من فكرة رائعة لتخليد اسم كاتب هو أكبر الكتّاب الغربيين المحبين للأتراك) حيث شربت قهوة وأنا أتأمل القرن المذهّب ومسجد أبي أيوب الأنصاري ومقابر الحي، وبدت لي ظلال اسطنبول في الغسق جميلة لأنها تعرض على الزائر مواقع فاتنة كما تبهره بأروع المساجد دون أن ننسى ما تحتويه من مخطوطات عربية نفيسة.

إن الثورة الكمالية التي منعت محو تركيا من خارطة العالم، وشيّدت دولة حديثة كانت في نظر الجزائريين إيجابية. وكانت أفكار ابن باديس في أتاتورك تعني الشيء الكثير. وأنا أفكر في المقالة التي كتبها رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في رثاء كمال أتاتورك: «باعث تركيا... وباعث الشرق الإسلامي كله... لقد ثار مصطفى كمال ثورة حقيقية جامحة جارفة، ولكنه لم يكن على الإسلام، وإنما ثار على هؤلاء الذين يسمّون بالمسلمين. فألغى الخلافة الزائفة وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم... واقتلع شجرة

زقوم الطرقية من جذورها[18]». واليوم، وبعد عشرين سنة على هذه الثورة بدت لي الحصيلة ضعيفة تعسكها زراعة متخلّفة وارتفاع الأمية.

طلبت عمداً من المرشد أن يترجم لي كتابة حائطية في طوبقابي. فأجابني أنه عاجز عن ذلك لأنها كتابة بالتركية القديمة (المعادلة لللاتينية بالنسبة للأوروبيين كما أضاف) وأنه اضطر شخصياً أن يستعين بأستاذ في الجامعة من أجل شرح الوثائق التي ورثها عن جده. وأدركت خطورة القطيعة بين الماضي الإسلامي لتركيا وشبابها الحالي، وهي القطعية التي نجمت عن تحويل الأبجدية التركية إلى اللاتينية. ولم أجرؤ على أن أقول لهذا المرشد إنه حَرِيّ بالسلطات التركية أن تولي بعض العناية لهذا الإرث العثماني الذي هو فخور به في الوقت الذي تشجّع فيه بحوث علم الآثار لتأكيد اتصال تركيا الحالية بالحضارة الحثّية.

وقد تجرأت على إبداء هذه الملاحظة لبعض المشاركين في مؤتمر لنقاد الفن عقد في أكاديمية الفنون الجميلة في اسطمبول في 8 سبتمبر 1954 والذي لا أتذكر كيف دعيت إليه.

عدت رفقة والدتي إلى الجزائر في مطلع أكتوبر 1954. وكنت أظن إنني سأنهي براحة بال دراستي الطبية في الجزائر، لكن رنّة تليفون غريبة ستقلب الأمور رأساً على عقب. وبالفعل، هتف لي صديقي وزميلي عبد الرحمن حاجي من جيجل، وأخبرني أنه قرّر تحويل ملفه من كليّة الطب بالجزائر إلى باريس، ولكنه أضاف أن أباه لن يوافق على ذلك إلا إذا سافرنا معاً. وبدوري كان عليّ أن أقنع والديّ. تحدثتُ في البداية مع والدتي التي أذكر أنها عارضت بشدة ذهابي إلى فرنسا بضع سنوات من قبل حين أقنع أصدقاء لوالدي من

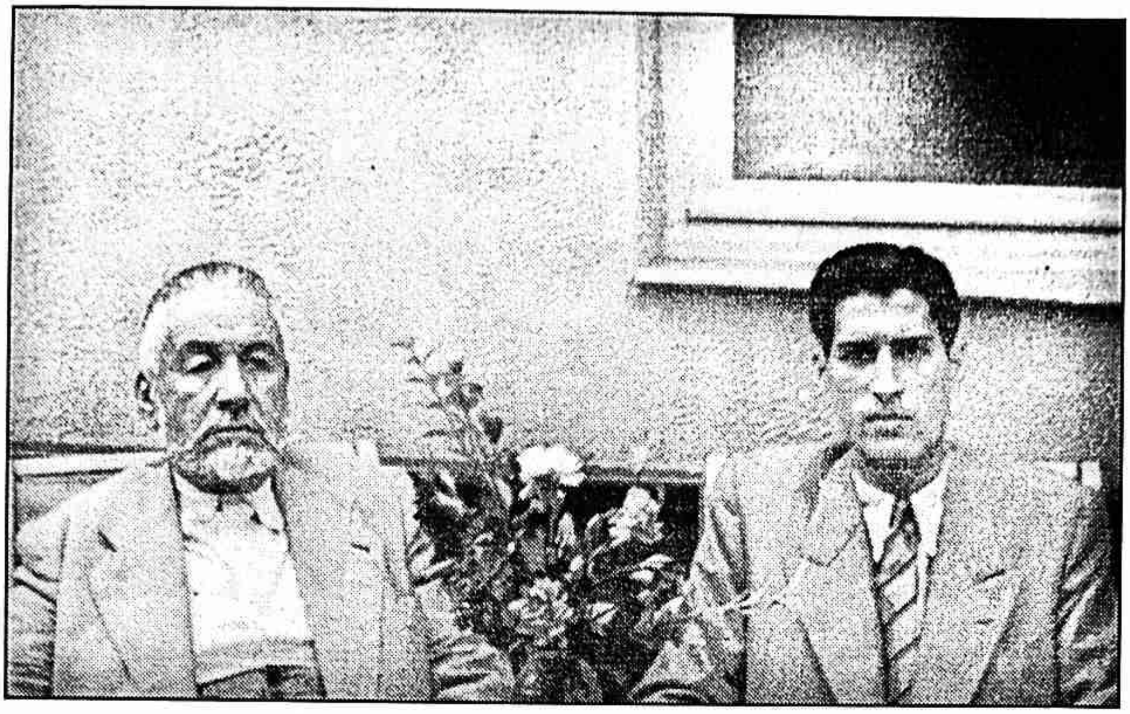
سطيف، عائلة معيزة، بتسجيلي بعد حصولي على الباكالوريا سنة 1949 في كليّة تولوز للطب حيث كان يدرس بعض أبنائهم، من أجل التخلص من العنصرية السائدة في جامعة الجزائر. وكان اعتراض والدتي يستند إلى فكرة أن فرنسا بالنسبة لشاب في السابعة عشرة من عمره هي مكان للإغراء والجنوح. لكنها هذه المرة وافقت على مضض لأنها رأت أنني نضجت في غضون ذلك. ونجحت بصعوبة، أيضاً، في انتزاع موافقة والدي بعد أن هتفت له في القاهرة.

إن هذه المكالمة الهاتفية من حاجي أيقظت بالتأكيد في نفسي رغبة دفينة لم أكن أتجرأ على التعبير عنها، وهي مغادرة الجزائر العاصمة حيث كان الضجر يغمرني، وكنت أختنق في جوّ من العنصرية آخذ في التفاقم. إنّ الظاهرة الاستعمارية لا تقرأ في الكتب، وإنما يعيشها الإنسان بامتحان جسده وكرامته.

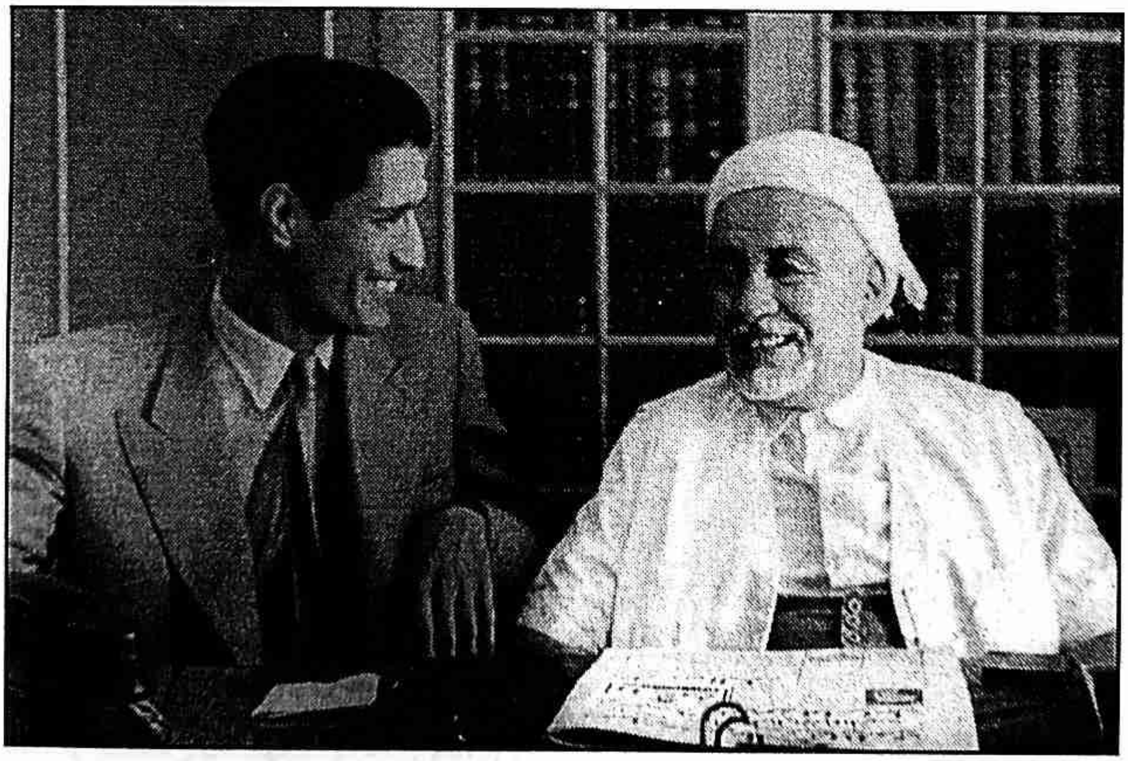
في شهر أكتوبر 1954 كانت الجزائر لا زالت تبكي ضحاياها من جراء زلزال مدينة الأصنام(19)ـ، وتتحسّر لتأخر المساعدات التي لم تصل إلى بعض الدواوير(20) إلا بعد أسبوعين من الكارثة.

في 17 أكتوبر صرح فرانسوا متران وزير الداخلية الفرنسي في وهران: «سنحافظ على الحضور الفرنسي في هذا البلد. ليس لدينا أية فكرة ثورية. وليس في نيتنا أن نقفز في المجهول(21).

بعد أسبوعين أحدث شباب جزائري (ممن كانت لديهم أفكار ثورية وممن استخلصوا العبرة من هزيمة فرنسا في ديان بيان فو .Dien Bien-Phu) زلزالاً من نوع آخر(22).



فيشي في سنة 1950 ، المؤلف مع والده .



القاهرة سنة 1953 ، المؤلف مع والده .



القاهرة سبتمبر 1953، من اليسار أحمد بوشمال، الفضيل الورتيلاني، البشير الإبراهيمي، الرئيس جمال عبد الناصر، العربي التبسي والمؤلف

# هوامش الفصل الثالث

(1) «الأمة الجزائرية»، كان الفرنسيون ينكرون وجود «أمة» أو «شعب» أو «دولة» في الجزائر. وتميز الشيوعيون الفرنسيون بنظرية زعيمهم في الثلاثينيات والأربعينيات - موريس توريز - القائلة بـ«الأمة في طور التكوين»، التي تتكون من «20 عرقاً».

(2) «الشاب المسلم» جريدة باللغة الفرنسية صدرت عن «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» من يونيو عام 1952 إلى يوليو عام 1954.

(3) «منظمة الجيش السري». (O.A.S) منظمة إرهابية مسلحة، أنشأها في 1961 غلاة الفرنسيين الذين يرفضون استقلال الجزائر.

(4) «الأهالي» مصطلح احتقاري، كان الفرنسيون يسمون به الجزائريين.

(5) حركة الانتصار للحريات الديمقراطية. والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري عن الجزائر، والحزب الحر الدستوري الجديد، والحزب الدستوري التونسي عن تونس، وحزب الاستقلال، وحزب الإصلاح، وحزب الشورى والاستقلال، وحزب الوحدة عن المغرب الأقصى.

(6) العربي التبسي: (1895 - 1957) أحد أبرز أعضاء «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، مدير معهد عبد الحميد ابن باديس. ونائب رئيس «جمعية العلماء». (1951 - 1957) اختطفه الفرنسيون من منزله في 4 أفريل 1957.

(7) محمد خير الدين: (1902 ـ 1993) أحد أبرز أعضاء «جمعية العلماء» ومؤسسيها. انتخب نائباً ثانياً لرئيسها، مثل جبهة التحرير الوطني في المغرب حتى استرجاع الاستقلال.

(8) أحمد توفيق المدني: (1899 ـ 1983) وُلد في تونس، وشارك في تأسيس الحزب الحر الدستوري، نفته فرنسا إلى الجزائر في 1925. انضم إلى «جمعية العلماء» في بداية الخمسينيات، وانتخب أميناً عاماً لها. ممثل الجزائر في جامعة الدول العربية. وزير. سفير...

(9) «الآباء البيض» جمعية تنصيرية أسسها في الجزائر الكاردينال شارل لافيجري في فبراير 1869، وفي سبتمبر من السنة نفسها أنشأ فرقة «الأخوات البيض».

(10) أحمد رضا: سياسي تركي، رئيس البرلمان التركى، له كتاب «الخيبة الأدبية للسياسة الغربية في المشرق».

(11) عبد الرحمن ابن الحفاف: (1881 ـ 1957) أحد المثقفين الجزائريين باللغتين الفرنسية والعربية، عمل في القضاء، ومن أهم أعماله إضافة إلى «مدخل لدراسة الإسلام» كتاب «مصادر الحضارة العالمية»، و«تاريخ الأبجدية من العصور الأولى إلى يومنا».

(12) الذي أصبح بعد الاستقلال والياً ثم قنصلاً، وقد أصدر عدّة دواوين شعرية.

(13) المجلس الجزائري أو الجمعية الجزائرية (برلمان) يتكون من 120 عضواً نصفهم فرنسيون، ونصفهم جزائريون، أنشىء بموجب ما يعرف باسم «القانون الأساسي للجزائر»، الذي صدر في 20 سبتمبر 1947.

(14) محمد خيضر: مناضل في حزب الشعب الجزائري، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية من قادة الثورة الخمسة الذين كانوا في الطائرة المغربية التي اختطفتها القوات الفرنسية في أكتوبر 1956. رأس

حزب جبهة التحرير الوطني بعد استرجاع الاستقلال. عارض ابن بلة. اغتيل في مدريد.

(15) حسين آيت أحمد: مناضل في حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية من قادة «المنظمة الخاصة» (O.S) التابعة للحزب التي بدأت تدرب شباب الحزب على الأعمال العسكرية، ومن القادة الخمسة الذين كانوا في الطائرة المغربية.. بعد استرجاع الاستقلال عارض ابن بلة، وأسس حزب جبهة القوى الاشتراكية.

(16) الشاذلي المكي: من مناضلي حزب الشعب الجزائري، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية. مثَّلَ الحزب في القاهرة.. انحاز عند انشقاق الحزب إلى «الميصاليين»، أنصار زعيم الحزب ضد «المركزيين» أتباع اللجنة المركزية للحزب.

(17) أحمد بوشمال: أحد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو من أقرب الناس إلى الإمام ابن باديس، وكان يتولى الإشراف الإداري والمادي على مجلته «الشهاب»، وخلفه في رئاسة «جمعية التربية والتعليم». اختطفه الفرنسيون من منزله في 13 سبتمبر 1958، ولم يعرف مصيره منذ ذلك التاريخ.

(18) مجلة «الشهاب» سـ14، عدد 9، نوفمبر 1938، دار الغرب الإسلامي - بيروت 2001.

(19) الشلف حالياً.

(20) الدَّوَاوِير: جمع دوار، وهو وحدة إدارية ريفية، يضم عدة قُرى.

(21) نفس وزير الداخلية الذي صرّح عند اندلاع ثورة التحرير في نوفمبر 1954 «المفاوضة الوحيدة هي الحرب».

(22) اندلاع الثورة المسلّحة في أول نوفمبر 1954.

# 4

# طالب في باريس (1954 ـ 1957)

## ـ الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين
## ـ فيدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا ـ

وصلت مع صديقي حاجي إلى باريس، على متن طائرة من نوع Bréguet-Deux-Ponts، في الأول من نوفمبر 1954. وقصدنا فندقاً يملكه أحد الجزائريين، يقع في 15 شارع دوبان Dupin في الدائرة السادسة، حيث سنقيم بضعة أشهر. وفي منتصف النهار، وحين كنا نهمّ بالالتحاق بمقر جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، في 115 من شارع سان ميشال، علمنا باندلاع الثورة في الجزائر من عنوان كبير في صدر جريدة «فرانس سوار». بعد أن فرغت من قراءة المقال، أصبحت تائهاً كالمراوح بين اليقظة والنوم، إلى درجة أنني لا أحتفظ بأيّة ذكرى عن ذلك اليوم، وعن لقاءاتنا الأولى. ولحسن الحظ، أن حاجي كان يرافقني. تداخلت الصور في رأسي. هل سيتحقق حلم جيل كامل؟ هل هي حقّاً الثورة التي طال انتظارها؟ هل سيستأنف الشعب الجزائري كفاحه المسلّح؟ هل جاء أخيراً من سيخلف

عبدالقادر والمقراني وبوعمامة[1]؟ إذا صح هذا، فإن كلّ من تخرّج من مدرسة الوطنية سيشعر بالفخر والاعتزاز. وكنت شخصياً أفكر في تلك النقاشات التي دارت في القاهرة قبل أسابيع، آخذة بشكل غير مباشر على بلدي سباته، بينما كلّ شيء يتحرك في المغرب وتونس، والفيتنام ينتصر. وتمنيت من أعماق قلبي أن توّجه الجزائر من خلال هذا الخبر تكذيباً لاذعاً للمشنّعين عليها.

إقامتي في باريس التي بدأت في أول نوفمبر 1954 ستنتهي في 27 فيفري 1957، يوم اعتقلتني مصالح الشرطة الفرنسية. سنتان وأربعة أشهر خصبة وغنية لا تقدر بثمن وعلى كل المستويات، دراسة وثقافة عامة ونشاطات سياسية إلخ... لا أدري في أيّ من كتبه قال فلوبير: «رأيت باريس مرة أخرى، آه يا لها من مدينة جميلة! وما أجمل أن تكون طالباً بها!».

خصّصت أيامي الأولى في باريس الخريفية لمختلف الإجراءات التي يقوم بها الطالب، مثل تأكيد تحويل الملف الجامعي والتسجيل في الكلّية إلخ... دون نسيان الاتصال بزملاء العاصمة، الذين سبقوني إلى باريس. بعد تناول الغداء في 115 من شارع سان ميشال ـ مطعم جمعيتنا ـ كنّا في الغالب نشرب القهوة في أحد أرصفة الشارع نفسه، وكنّا نجلس إلى صديقين أكبر منا سنّاً، نستفيد من تجربتهما وعلمهما، وهما محمد الشريف ساحلي ومصطفى الأشرف، اللذان لم أكن شخصيّاً أعرفهما إلا من خلال المقالات التي كانا يرسلانها إليّ في دورية «الشاب المسلم». وكان هناك أيضاً عبد الرحمن شريط، وبلعيد عبد السلام، ومسعود آيت شعلال، ورضا مالك، والعياشي ياكر...

بعد انقضاء سنوات خمس في جامعة الجزائر، موزّعة بين السنة التحضيرية وأربع سنوات طب، سجّلت إذن في السنة الخامسة بكلّية الطب في باريس، وهي السنة التي تتوّج بآخر امتحان نظري، سوف يوفقني اللَّه في اجتيازه بنجاح في ماي 1955. كنت أقضي الفترات الصباحية في مختلف المستشفيات الباريسية بحسب نوع التربصات، مستفيداً من دروس كبار الأساتذة من أمثال روبير دوبري بقسم «الأطفال المرضى» بمستشفى نيكر، وجون دولاي في مستشفى القديسة آن. وفي الظهر كنت أتابع الدروس في الكلّية، وإن لم تكن بنفس المستوى. وقد تعلمت من الأساتذة سالفي الذكر صرامة الفحص الإكلينيكي التي يخفف من حدتها الوعي بشقاء الإنسان. وهي نزعة إنسانية تذكرني بـ«حكماء» العصور الوسطى الذين وهبتهم الحضارة الإسلامية للإنسانية. ولقد وجدت هذا المزيج من الثقافة العلمية والبراعة الأدبية مجسداً في هؤلاء الأساتذة. وكان الاستماع إليهم متعة حقاً. وكانت هناك متعة أخرى لم يكن في مقدوري واحسرتاه أن أتذوّقها لاستحالة ذهابي إلى مجلس النواب، وهي متعة المزج بين السياسة والفصاحة. طبعاً لم يعد جوريس وهيريو وبلوم من الأحياء، لكن قيل لي إن إدغار فور كان يتألّق في خطبه.

الشرق والغرب! هذان القطبان ما فتئا يشدّاني إليهما مثل مغناطيس. من نشأتي في بيئة عربية ها أنذا أدرس الطب في باريس، وعلى غرار ذلك الفارسي الذي تحدث عنه مونتيسكيو في «رسائله الفارسية»، لم أصدق أبداً «أن نور الشرق هو وحده الذي أضاء لنا السبيل». عبرت البحر الأبيض المتوسط من دون عقدة، فالناس في العصور الوسطى كانت تعبره في الاتجاه المعاكس بحثاً عن المعرفة التي كانوا يدركونها بتعلم اللغة العربية. وكنت دائماً أعتقد أن اللحاق

بركب الغرب الذي يهيمن علينا، يتطلب منا اكتساب العلم والتقنية اللذين نفتقد إليهما، وبما أنّنا نعيش في عالَم رسمتْ ملامحَه تقنيات وأفكار وأنماط الغرب فإنّ وظيفة المثقف عندنا لا تتمثّل في تقليد هذا النموذج ولكن في محاولة إدراك سرّ النجاح العلمي والاقتصادي والعسكري والسياسي الذي أحزره الغربيون ثمّ مساعدة بني قومه حتى يلتحقوا بركب الحضارة، وبالطريقة نفسها التي مهّد بها بعض «المستشرقين» لاحتلال بلداننا أو يَسَّرُوه، ينبغي لنا أن نعدّ جيشاً من «المستغربين» للإسهام في تحرير العالم الإسلامي، ومن ثم تطويره والرقي به، فهل سأكون واحداً من هؤلاء المستغربين»؟.

كنت أشعر بحاجة ملحة إلى تحديد موقف جديد من الحضارة الغربية لا يكون إعجاباً ساذجاً أو تقليداً أعمى، ولا قدحاً منظماً أو احتقاراً عاجزاً. وهذا الموقف في التمييز الخالي من أي مركب نقص هو الذي يجب أن يكون أولاً وقبل كل شيء موقف المثقفين والمربين والمكوّنين.

وإذا كان الكتاب وحده هو الذي أعانني خلال دراستي في الجزائر على النفاذ إلى عمق الغرب، فأمامي اليوم في باريس طرق شتى لتعميق هذا المسار من موسيقى ومسرح وسينما ورسم إلخ. . . وقد جعلتْ مني سنوات دراستي في الثانوية عارفاً مبتدئاً بالأدب الغربي، خاصة الفرنسي منه. لكن اكتشافي للمسرح في باريس أضفى على هذه المعرفة بعداً آخر، ذلك أن الحفظ عن ظهر قلب لمقاطع طويلة من مسرحيات راسين وموليير يختلف وقعها تماماً عندما تسمعها على لسان ممثلين موهوبين من «الكوميديا الفرنسية». والشيء نفسه ينطبق على مسرحيات شكسبير أو ألفريد دي ميسي التي كانت تعرض

في «المسرح الوطني الباريسي»، حيث كنت أحب الاستماع إلى أصوات جيرار فيليب، وماريا كازاريس، وجان فيلار.

وفي باريس اكتشفت أيضاً الموسيقى الكلاسيكية الغربية. وكنت أمضي عدّة ليال في الاستماع إلى سيمفونيات بيتهوفن، وألحان شوبرت الليدية. لكني كنت أهوى أكثر جون سيبستيان باخ، والمرة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى قاعة Gaveau كانت من أجل الاستماع إلى كونسرتوهات براندنبورغ، حيث يحملك بعيداً «فن التتابع»، وناي كورت رييدل. وما زلت إلى اليوم مفتوناً بموسيقى باخ.

وفي الفترة نفسها أصبحت من هواة موسيقى الجاز. وكنت معجباً بلوي أرمسترونغ وإلاّ فيتسجرالد وسارة فوغان وسيدني بيشيت وماهاليا جاكسون وأغانيها الدينية. لكن الذي كان يثير عواطفي أكثر هي بيلي هوليداي، ربما لأن صوتها المقتطع كان يعبّر عن الشقاء المكبوت للسود المقهورين، خاصة في أغنيتها «موشح المشنوقين».
وكنت أيضاً أتردد على بعض دور السينما مثل La Pagode التي كانت تعرض بعض الأفلام الكلاسيكية مثل «المدمرة بوتمكين» وهي رائعة لا نزاع فيها بقطع النظر عن دوافعها الإيديولوجية، وفيلم «ذهب مع الريح» مع الممثلة الرائعة فيفيان ليغ، وفيلم «الساموراي السبعة» الذي منح السينما اليابانية بعدها العالمي. ولا تفوتني الإشارة إلى أن أقول إنني كنت قبل ذلك في الجزائر العاصمة معجباً ببعض الروائع مثل «أطفال الفردوس» الذي انبهرت به، و«هاملت» مع لورانس أوليفي، حيث كادت المزاوجة بين الكتابة والشاشة تبلغ الكمال.

وفي الفترة نفسها اهتززت لنجاحات جورج براسنس، وإديث

بياف، وإيف مونتان، وجاك بريل. وكنت لا أتردد قدر مستطاعي في الذهاب إلى الأولمبيا أو بوبينو لحضور حفلاتهم.

وإذا كنت خلال زيارتي الأولى في سنة 1950 عرفت باريس السياحية بنصبها التذكارية وحدائقها وجسورها، فإن هذه الزيارة الثانية عرّفتني بمتحف اللوفر، حيث أقف لساعات أمام منحوتات العصور القديمة أو اللوحات الفلمندية. وفي ذلك المتحف أيضاً شدّتني ابتسامة «الجوكندا» التي اعتبرها رائعة العالم الثامنة. كنت طبعاً مبهوراً «بالانطباعيين»، لكن يجب أن أعترف أن غوبا وفيلاسكيس كانت لهما حظوة خاصة عندي، وكذلك رسامو القرن السابع عشر، خاصة ريبنس ورامبرانت، ثم بعد ذلك جورج دي لاتور، وما يميّز لوحاته من ضوء أخّاذ جمع بين الداكن والفاتح.

زرت أيضاً الكنائس الرائعة، لكنها كم هي بعيدة بأبّهتها وبذخها عن المسيح الذي تنسب نفسها إليه.

وهكذا اتضح أمامي مفهوم «التراث» الذي لا يقتصر فقط على الأعمال المكتوبة، لكنه يمثل أيضاً النصب المشيّدة لتتحدى الزمن. ومن جهة أخرى اقتنعت بأن الفن، والثقافة والعلم، والفلسفة هي في كل الحضارات، بما فيها الحضارة الإسلامية، امتياز تتمتع به أقلية في غالب الأحيان. هل سيأتي يوم تستفيد فيه غالبية الشعب في البلد الواحد وأغلبية الشعوب على مستوى المعمورة من هذه المنافع الثقافية؟ هل سننجز «حضارة تسلية» يستطيع كل مواطن في ظلّها بالإضافة إلى ما يبذله من جهد للإسهام في بناء المجتمع أن يتسلّى ويستريح ويثقف نفسه؟.

وهكذا تجلّت في ذهني بديهيتان هما: تعدد الحضارات من

جهة، وضرورة الحوار بين هذه الحضارات من جهة أخرى. وبدا لي أن مثل هذا الحوار يمرّ بالبعد الروحي. غير أنني لم أجد هذا البعد عند المفكرين الكبار لذلك العهد. كنت بالتأكيد معجباً بكامو، خصوصاً في كتاباته في جريدة «كومبا»، لكني التزمت في جداله مع سارتر بشأن «الإنسان المتمرد» جانب سارتر، الذي أعجبتني نزعته الحاسمة المناهضة للاستعمار. لكن إيماني العميق منعني من الأخذ بالفكرة القائلة بأن «الوجودية هي فلسفة إنسانية»، مثلما لم أتبن نزعة أندري جيد المتعية، رغم الحماسة التي أثارتها في نفسي قراءة «قوت الأرض».

التقارب العميق مع شخصيّتي شعرت به في شخصانية إيمانوئيل مونيي. وهو ما حدا بي إلى أن أصبح قارئاً مواظباً لأتباعه الذين تحلّقوا حول مجلة «Esprit»، ودفعني أيضاً فيما بعد للاستفادة من سنوات سجني من أجل قراءة أعماله الكاملة. وبوجيز العبارة، فإن مونيي هو المفكر الغربي الذي تأثرت به أكثر من غيره في شبابي. وسواء تعلق الأمر بحضور المسألة الدينية، أو ضرورة إضفاء الطابع الروحي على الثورة، أو ضرورة التحلي بالنزاهة، أو الحوار مع الشيوعيين، أو رفض الانضمام إلى معسكر أنصار المال، فقد وجدت في كتابات مونيي تعبيراً عن أفكاري في أصفى وأجلى صورها. وأنا راسخ الاعتقاد أن الأمر يتعلق بأفكار تجذّرت في أعماق شخصيتي، وباتت تشكّل جزءاً مني.

سنحت لي فرصة اللقاء ببعض رفقاء مونيي Mounier أو الاستماع إليهم، وكان مقرّ سكن جلّهم في حي «الجدران البيض» Les murs blancs في Chatenay - Malabry وهي ضاحية من ضواحي باريس، ومنهم مارو Henri Marrou وبابولان Jean Baboulène وفراس

Paul Fraisse ودوميناك Jean-Marie Domenach وكلّهم يمتازون بثقافة عالية وبالتزامهم الخلقي، وآثار مؤسّس الشخصانية بارزة فيهم، ولكن يبدو لي ضمن فريق مجلة Esprit (الفكر) ـ أن ريكور Paul Ricœur هو المفكر الأكثر دقّة والأكثر إشعاعاً.

*****

لم تتح لي بالطبع إمكانية مشاهدة كل ما كنت أرغب في مشاهدته، بسبب ضيق الوقت وقلّة المال. فقد كنت أخصص من المنحة الشهرية وهي 25 ألف فرنك قديم التي كان أخي يرسلها لي من الجزائر سبعة آلاف لكراء الغرفة، وثلاثة آلاف للنقل، وستة آلاف للأكل. وتبقى لي تسعة آلاف فرنك كمصروف جيب، يذهب الجزء الأكبر منها إلى حضور العروض الفنية. ويحدث أحياناً لي ولحاجي من أجل أن نصل الشهر بالشهر أن نؤدي أدوارًا كممثلين صامتين في مسارح صغيرة أو نغسل الأواني في مطعم جامعي مخصص للطلبة المرضى أو في طور النقاهة. وكان الأجر عبارة عن وجبة مجانية، لكنها ألّذ من وجباتنا المألوفة. على أن أفضل الأكلات كانت حين تستضيفنا إحدى الأسر الجزائرية في أوبرفيلي لتناول الكسكسي.

وابتداء من صيف 1955، وحين شعرت ببعض الراحة المالية، بفضل الراتب الذي كانت إدارة مستشفى بوبيني تدفعه لي وهو 40 ألف فرنك، استغنيت عن المساعدة العائلية. وفي بداية تلك السنة انتقلنا، أنا وحاجي، من الفندق إلى الحي الجامعي في شارع جوردان حيث سكنا في البداية في المؤسسة الأمريكية ثم بعد ذلك في جناح Deutsch-de-La-Meurthe.

وفي ماي 1955 نجحت في آخر الامتحانات النظرية في كلّية الطب، وسجلت نفسي في التربص، كطالب في السنة السادسة في مستشفى بوبيني، حيث سأدرس على يد أستاذين رائعين في الممارسة الطبية، وهما التونسيان أحمد صومعية رئيس قسم الأمراض الصدرية، وعثمان صفر رئيس قسم الطب العام.

ذات صباح وصلت متأخراً إلى مصلحة الدكتور صومعية، فوجدته سبقني رغم أنني مطالب بالوصول قبل الأستاذ المساعد الذي كان، هو بدوره، مطالب بأن يسبق الأستاذ. استقبلني صومعية في مكتبه قائلاً: «أنا على علم بنشاطك، لهذا أغمض عيني. لكن تصرَّفْ بحيث لا يعلم أحد بذلك، وكن حذراً. . .». وأنا ممتن له، وكنت فيما بعد أزوره كلّما مررت بباريس.

*****

ابتداء من صيف 1955 أصبحت أضع النضال فوق أي اعتبار آخر، أولاً في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، ثم بعد ذلك في فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني. وكنت قد ربطت الصلة ببعض إطارات الفدرالية الذين كانوا بعدما علموا بمشروع إنشاء التنظيم الطلابي يدفعونني إلى الاضطلاع برئاسته. وبالفعل، فقد بذلت جهود لإنشاء هذه المركزية لتعويض الجمعيات المحلية العديدة، التي تضم مجموع طلبة المغرب العربي، والتي أضعفها إنشاء الاتحاد العام لطلبة تونس، ثمّ النقاش الدائر والسائد في كل الاجتماعات الطلابية الجزائرية. وإذا كان قد تمّ التوصل إلى إجماع على ضرورة إنشاء اتحاد عام، إلا أن خلافات ظهرت حول تسميته: هل ينبغي تأسيس

اتحاد عام للطلبة الجزائريين، كما كان يقترح الطلبة التابعون للبيان الجزائري، أم إنشاء اتحاد عام للطلبة المسلمين الجزائريين، وهو الطرح الذي كان يدافع عنه الطلبة المتأثرون بالحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية وجمعية العلماء المسلمين. كان الفريق الأول يتهم الفريق الآخر بمحاولة إضفاء مفهوم ديني على الاتحاد بالتركيز على حرف «الميم» الذي يشير إلى «المسلم».

أذكر أننا نظمنا مسيرة من 115 شارع سان ميشال نحو شارع فيرو لتقدير قوتنا. وتناولتُ هناك الكلمة علناً وارتجالاً باسم أنصار «الميم»، حيث شرحت أن التعلق بكلمة المسلمين يعني الانتماء إلى فضاء حضاري، وبأن النقاش حول حرف «الميم» لا معنى له إلا في جزائر تنعم بالاستقلال. في تلك الآثار زار فرحات عباس باريس، فأمر طلبة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بالالتحاق بنا في خضم هذا النقاش الدائر، الذي حسم لصالح أنصار حرف «الميم».

وقد أفضت اجتماعات عديدة في المدن الجامعية الفرنسية إضافة إلى الجزائر بالطبع، أي في باريس ومارسيليا وليون وبوردو وتولوز وستراسبورغ إلخ. . . ، التي كرّس لها بلعيد عبد السلام كل طاقته إلى عقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين يوم 14 جويلية 1955 في قاعة Societés Savantes (الجمعيات العلمية). وقد انتخب المندوبون من قبل زملائهم وفقاً لعدد أفراد كلّ مجموعة. وكلّفت بقراءة الخطاب الافتتاحي، وعيّن المؤتمر لجنة مديرة مشكّلة من عشرين عضواً، انتخبت بدورها لجنة تنفيذية من خمسة أعضاء، كلّهم من طلبة باريس. لقد استحوذ انتخابي على رأس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين على كل

وقتي وجهدي من جويلية 1955 إلى مارس 1956، تاريخ عقد المؤتمر الثاني.

*****

بعد إعلان اختتام المؤتمر التأسيسي عدت إلى غرفتي بالحي الجامعي، وهناك أدركت ثقل الأعباء الملقاة على عاتقي، وشعرت أن النضال سيكون طويلاً ومؤلماً تحفه الأخطار والتقلبات. واعتبرت نفسي منذ ذلك التاريخ مناضلاً للثورة مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيلها. وكنت أعلم، كما أشار إلى ذلك إيمانوئيل مونيي، أن «الثورة ليست كلمة نبيلة ولا هي مطمئنة. فأصدقاؤها هم الأيادي القذرة والأفواه المرّة والرجال الخشنون. وإذا كانت كلمة ثورة محقّة رغم بعض وساخاتها، فلأنها مكثت طويلاً بجانب أولئك الذين يتلقون الضربات (ضربات الدهر وضربات السلطة وضربات الشرطة) وبجانب القابعين في دهاليز الاضطهاد حيث بقايا من الإحساس الغريزي بالعدل». وفجأة استبد بي حنين لا يقاوم إلى الوطن. وأصبت «بمرض الأزرق» (البحر الأبيض المتوسط) كما قال ثيوفيل غوتيي منذ أكثر من قرن، وهو يشرح رغبته في زيارة الجزائر. شعرت بالحاجة إلى العودة إلى المنابع وعبور البحر الأبيض المتوسط ورؤية الوطن الأم، ورؤية الأم.

اغتنمتُ عطلة أوت لأسافر إلى الجزائر وكانت سعادتي عارمة بالعودة إلى الوطن والاجتماع بالعائلة والأصدقاء ورؤية الوالدة بصفة خاصة.

قمت بزيارة إلى مقر جمعية العلماء حيث التقيت صديقي

سوفاري، وحيث استقبلني الشيخ العربي التبسي الذي كان يشرف على الجمعية في غياب والدي الموجود في المشرق. وبعد أن هنأني بميلاد الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين قال لي بوجيز العبارة: «لما وجّه الشيخ الإبراهيمي نداء من القاهرة إلى الشعب الجزائري في نوفمبر الماضي لدعم الكفاح المسلح، أصاب بحكمته عندما امتنع عن إقحام الجمعية حتى لا يعرّض أعضاءها للقمع ومؤسساتها للإغلاق، ومنذ ذلك التاريخ تطوّرت الأمور، فعقدنا دورات للمكتب الإداري للجمعية، وإذا كان من الصعب في بادىء الأمر تأييد حركة دون معرفة قادتها، فكل ما أستطيع قوله لك اليوم هو أن هذه الثغرة قد سدّت». فيما بعد علمت أن اجتماعاً عقد في تلك الفترة بمنزلنا في القبّة، سمح للشيخين التبسي وخير الدين بلقاء عبان رمضان. شعرت بالرضى، واستأذنت في الانصراف، وما كنت أدري أنّ ذلك كان في الواقع وداعاً أخيراً، وليس وعداً باللقاء. إذ بعد مضي عامين اعتقل الجيش الفرنسي الشيخ العربي التبسي، ولم يعثر على جسده إلى الآن.

خلال هذه الإقامة القصيرة بالعاصمة التقيت مجموعة من الطلبة الفرنسيين أوفدهم، إذا لم تخني الذاكرة، تنظيم شباب الطلبة المسيحيين وكانوا يقومون بزيارة دراسية للجزائر، وهم سوزان مستر، ومادلين جوصو، وكلود جيليار، وكلود مارتن، وهنري لومار. حدثني أعضاء الوفد عن انطباعاتهم وسرّني أنهم لم يكتفوا، على غرار ألبير كامو، بالتنديد بالبؤس المادي للشعب الجزائري، والتراكوم، وأحياء الصفيح، والبطالة، وسوء التمدرس. وكانوا مقتنعين أن شعباً لا يمارس بكل حرية شعائره الدينية، ولا يتعلم لغته، لا يمكنه إلا أن يثور. وخلال حديثنا كانت تتكرر كلمات مثل «الكرامة» و«العدل» و«الإذلال».

كان الهدوء والسكون الظاهران في الجزائر العاصمة يخفيان صخباً خفياً. وسيحدث الانفجار يوم 20 أوت 1955[2] كرجع صدى لانتفاضة الأشقاء المغاربة في الدار البيضاء. هل كان ذلك نسخة أخرى من حوادث 8 ماي 1945؟ كانت حصيلة هذا العنف الواسع مرعبة، إذ ردّت سلطات الاحتلال على مقتل مائة أوروبي بقتل 12 ألف جزائري. وبدا أن التعايش بين المجموعتين أصبح مستيحلاً، وانفضح الحاكم العام الجديد للجزائر جاك سوستيل وكشف عن وجهه الحقيقي، كونه لا يختلف عن بينكي كريفو، شيخ بلدية سكيكدة وقائد حملة Les Ratonnades[3].

بعد بضعة أسابيع، وفي سبتمبر 1955، جرت ثلاثة حوادث عجّلت بالتفاف الرأي العام الجزائري حول الثورة ودعم جبهة التحرير الوطني في موقفها «كمحاور شرعي» غير منازع فيه.

أولاً: الحوار الذي أجراه روبير بارا مع العقيد أوعمران[4]، أحد قادة الثورة، ونشرته صحيفة «فرانس أوبسرفاتور».

ثم بعد ذلك، لائحة «مجموعة الـ 61» (المنتخبون المسلمون في المجلس الجزائري المعروفون ببني وي وي) التي أعلنت أن «سياسة الإدماج تجاوزها الزمن، وأن أغلبية السكان تساند الآن الفكرة الوطنية الجزائرية».

وأخيراً إدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة.

* * * * *

عدت في بداية سبتمبر إلى باريس، حيث كنت أقضي الصباح

في المستشفي، في حين كنت أكرّس الظهر وحتى المساء أحياناً للعمل في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزئراين. وخلال تلك الأشهر تشكّلت فروع للاتحاد في المدن الجامعية الفرنسية بالإضافة إلى فرع الجزائر الذي كان ينشط فيه محمد الصديق بن يحيى والأمين خان. كنت أرأس الاجتماعات الأسبوعية للجنة التنفيذية وكذلك اجتماعات اللجنة المديرة حيث برزت أسماء، مثل محمود منتوري وعلاوة بن بعطوش ومحمد بلعربي، الذين سقطوا كلّهم في ساحة الشرف. وأصدرنا «الطالب الجزائري»، لسان حال الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. ولم تر النور منه إلا ثلاثة أعداد. وشرعت في الاتصال بشخصيات فرنسية من صحفيين وكتّاب وجامعيين ورجال سياسة. . .

وهكذا وبفضل روبير بارا تقرّبتْ منا في ماي 1955 أسماء كبيرة من الكاثوليك الفرنسيين، وقدموا إلى مطعم متواضع في 115 شارع سان ميشال من أجل تناول الإفطار معنا بمناسبة اليوم الأخير من شهر رمضان الفضيل. كنت جالساً إلى جانب فرانسوا مورياك، وبعد كلمة بالعربية ألقاها لويس ماسينيون، ولم أفهم منها إلا اسم الحلاج، طرحت السؤال التالي على مورياك: «لماذا نصطدم في أوروبا بالكثير من سوء الفهم للإسلام حتى في أوساط المثقفين؟». وذكرت كمثال على ذلك مقالاً نشرته قبل يوم جريدة «لكسبريس»، يتحدث فيه هنري دي مونترلان عن «تعصب الإسلام». وكم كانت دهشتي كبيرة. وأنا أسمع مورياك بصوته الأبحّ يؤكد مزاعم مونترلان، متحججاً بآية قرآنية حسب زعمه «أسلم تسلم»!!! واضطررت إلى الرد عليه بالقول إن ما يزعم أنها آية ليست آية، وأن القرآن في هذا الموضوع يؤكد العكس وبدون مواربة: «لا إكراه في الدين» دون أن ننسى العديد من الوزراء والشعراء والأطباء من اليهود والنصاري، الذين عاشوا في سلم

وتسامح وطمأنينة في بلاطات بغداد ودمشق وقرطبة.

التقيت مرة أخرى بمورياك بعد بضعة أشهر في منزله في الدائرة السادسة عشرة بشارع ثيوفيل غوتيي من أجل إقناعه بفعل شيء ضد التعذيب في الجزائر، كما فعل بشجاعة ضد عزل محمد الخامس سلطان المغرب. في ذلك اليوم تحدثت بشغف ممزوج بالغضب، لأني علمت باغتيال قاسم زدور، الطالب في وهران، جراء تعذيبه. كان مورياك يصغي إلي بأدب. لكنه انتهى إلى القول: «تعلمت منذ طفولتي أن الجزائر هي ثلاث مقاطعات فرنسية. يلزمك يا بنّي الكثير من الوقت والصبر لإقناعي بعكس ذلك».

وفي الفترة نفسها اتصلت بألبير كامو مرتين. المرة الأولى في مكتبه الصغير بشارع سيباستيان بوتان بدار غاليمار للنشر، والمرة الثانية في مكتبه في الأكسبريس بشارع لي شانزيليزي. في اللقاء الأول لم يترك كامو أي فرصة للحوار، مسترسلاً في لعبة لغوية منمّقة حول تحالف بين جبهة التحرير والقاهرة وموسكو. في اللقاء الثاني الذي أثرت فيه قضية التعذيب، ورغم كلماته الودية مثل «فلنجلس أرضاً كما نجلس عندنا»، واجهنا أنا وأصدقائي برفضه القاطع وبدلاً من داعية العدالة والحرية الذي كنا نظنه وجدنا أنفسنا أمام كامو آخر تنخره الحيرة بشأن المصير الخاص «بالأقدام السود» في الجزائر.

كنت كذلك ألتقي بصحفيين اثنين، كانا مكلّفين بتغطية نشاطات الحركات الطلابية. وكانا يبديان بعض التعاطف معنا، وهما برتران بوارو ديلبيش من جريدة «لوموند» وكاترين دولابري من «فرانس سوار». وبفضلهما خاصة أثار ردي على موسرون، الرئيس الشرفي للاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين، بعض الصدى لأنني صرحت:

«أريد أن ألّح على أنه إذا كان المقصود «بالمتمردين» رجالاً يطالبون بحريتهم، ولا يطالبون بها إلا بالسلاح، فلأن كل الأبواب أوصدت في وجوههم، رجالاً يكافحون في سبيل كرامتهم وحقهم في الوجود، إذا كان المقصود بالمتمردين هؤلاء الرجال، فإن كل المسلمين الجزائريين، والطلبة جزء منهم، متمردون».

كنت على غرار العديد من الرفاق قارئاً وفياً ليومية «لوموند» وأسبوعية «فرانس أوبسرفاتور». وكان مدير «لوموند» هيبر بيف ميري، بالنسبة لنا، مثلاً للنزاهة والاستقامة. أما بالنسبة للأسبوعية «فرانس أوبسرفاتور»، فإن تعاطفنا معها لم يكن أمراً عرضياً، فهو نابع من مواقفها تجاه القضية الجزائرية، ودفاعها عن اشتراكية ذات وجه إنساني، لا تهمل لا الحريات ولا الديمقراطية. وكلّما أثير نقاش حول الجزائر كان أحد المؤسسين الثلاثة لـ«فرانس أوبسرفاتور» حاضراً: إما كلود بوردي، وإما جيل مارتيني، وإما روجي ستيفان.

وهكذا دعيت عدة مرات عند السيدة غابريال أردان، زوجة المستشار الاقتصادي لمانديس فرانس[5]، التي كان صالونها ملتقى لبرلمانيين وجامعيين من أنصار أطروحاته، ومؤيدين للحوار مع جبهة التحرير الوطني. وقد استجبت للدعوة بدون تردّد، لأن مانديس فرانس كان يبدو لي هو الأقدر ضمن القادة الفرنسيين على فهم مزايا تصفية سريعة للاستعمار بالنسبة للطرفين. ومن جهة أخرى، فإن المرجعية المانداسية يمكن أن تشكل بالنسبة لي، كمناضل، إطاراً آخر لتحسيس الأنتيليجنسيا الفرنسية بعدالة القضية التي كنت أدافع عنها. وأخيراً وعلى مستوى شخصي كان بيير مانديس فرانس يبدو لي من الرجال السياسيين الفرنسيين القلائل الذين كانوا يعتبرون أن الأخلاق

والسياسة لا ينفصلان. وهذه إحدى قناعاتي الراسخة.

كنت أسمع كثيراً عن منديس فرانس، ولم ألبث أن التقيته. وبالفعل، أخبرني روبير بارا، الذي كان يعمل بلا كلل من أجل التقريب بين الجزائر وفرنسا بعد نشره لأول حوار مع أحد قادة الثورة، أن رئيس الحكومة الفرنسية يريد أن يطَّلِع شخصياً على موقف الشبيبة الجزائرية، خاصة موقف الطلبة من جبهة التحرير الوطني ومطالبها. استقبلني في مكتبه بالحزب الراديكالي في شارع فالوا. وكان الشيء الوحيد الذي استرعى انتباهي في المكتب هو كاريكاتير معلق على الجدار عنوانه «رجل الأور» (يمكن قراءتها «رجل الساعة»). تحدّث منديس فرانس بإيجاز ودقة. أولاً عن الهند الصينية وتونس، وختم حديثه بالمغرب. ثم بعد ذلك خاض في صميم الموضوع، متسائلاً عن حظوظ الاقتراح الثلاثي لغي مولي(6) للخروج من الأزمة، ملمحاً إلى أن الشباب الجزائري في تصوّره لا يتبنى تماماً أطروحات جبهة التحرير الوطني المصاغة - حسب قوله - في القاهرة وليس في الجزائر. بذلت كل جهدي لأفنّد الحجج المقدمة بالتأكيد على أن الطلبة الجزائريين المنضوين في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين مقتنعون أن مفاوضات مباشرة وبدون شرط أو قيد مع جبهة التحرير الوطني هي وحدها الكفيلة بإحلال السلم والتعاون المثمر بين فرنسا والجزائر. وبدا لي أن أحسن خاتمة لكلامي هي عبارة مقتبسة من مونيي: «إن جبهة التحرير الوطني هي محطّ أمل اليائسين». وقد استاء من قولي، وفيما بعد قال لي بارا إن منديس فرانس فوجيء «بعنادي».

*****

لم تمنعني إطلاقاً نشاطاتي على رأس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين من مواصلة اتصالاتي ببعض الشخصيات من العالم الإسلامي التي كانت تعيش في باريس.

وهكذا كنت أزور حيدر بامات في شقته بشارع بليلو في الدائرة الخامسة عشر، وكنت معجباً بكتابه «مجالي الإسلام»، حين صدوره قبل سبع عشرة سنة. وكنت أحضر كل محاضراته. وبفضله أدركت أهمية الإسلام في آسيا، خاصة الكفاح العنيد لشعبه في القوقاز.

وفي شقة بامات تعرّفت على بعض الطلبة والطالبات الذين سيشكلون فيما بعد نواة المركز الثقافي الإسلامي في باريس: طالبة إيرانية، وأخرى لبنانية، وثالثة تونسية، وطالب هندي، وآخر أفغاني، وثالث مالي. وبدأ ذلك بتنظيم أحاديث دينية في قاعة Quakers في الدائرة الخامسة، ثم بعد ذلك حلقات حول البروفيسور محمد حميد اللّه، الذي كان يلقي علينا دروساً في تفسير القرآن. وقد كلّفتني هذه الحلقة بالردّ في الصحافة كلّما أسيء إلى الإسلام (رسائل إلى جريدة «لوموند» و«كومبا» والمركز الكاثوليكي للمثقفين الفرنسيين). وهذه الحلقة نفسها هي التي نظمت بمناسبة المولد النبوي الشريف حفلاً كبيراً في الجناح الدولي للحي الجامعي حضره العديد من الدبلوماسيين من العالم الإسلامي، وتناولت الكلمة حيث قلت مذكراً بشخصية الرسول، ﷺ، إنني لا أنسى بأني من الجزائر التي تشهد حرباً تحريرية. وفي اليوم الموالي استدعاني العميد مارشان، مدير المدينة الجامعية، وهدّدني بالطرد لأنه اعتبر تدخلي «هداماً» ومن شأنه الإخلال بالنظام العام.

وخلال أحد اجتماعات هذه الحلقة تعرّفت على طالب مصري

كان يعدّ رسالة دكتوراه في القانون الدولي. وكان متألقاً بثقافته واستقامته، وهو أحمد كمال أبو المجد، الذي سيصبح وزيراً للإعلام. وكانت الحلقة نفسها تنظم نقاشات مع الطلبة المسيحيين في مركز ريشليو حيث كان الأب دانييلو يعبّر عن وجهة نظر الكاثوليكية، بينما كان نجم الدين بامات ناطقاً لامعاً باسمنا. وانتهت محاولة مماثلة مع الطلبة البروتستانتيين إلى شبه إخفاق. كما حضرت مؤتمراً للاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين في ستراسبورغ، وكذلك مؤتمراً للشبيبة الطلابية المسيحية رفقة بن عيسى أمير، رئيس جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا. وقد أعجبت بصرامة تفكير ووضوح عرض الأب إيف م.ج. كونغار.

وبصفتي رئيساً للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين شاركت في عدة اجتماعات مغاربية نتجت عنها صداقات وثيقة سواء مع المغربي مهدي العلوي أو التونسي حامد القروي، الذي سبق لي أن تعرّفت إليه في مستشفى بوبيني. ومن جهة أخرى، تناولت الكلمة في العديد من التظاهرات المغاربية في 115 شارع سان ميشال، خاصة خلال الاحتفال بذكرى اغتيال الزعيم النقابي التونسي فرحات حشاد في 5 ديسمبر 1955، أو أثناء زيارة محمد الفاسي، الوزير المغربي للتربية الوطنية للعاصمة الفرنسية يوم 18 جانفي 1956.

ومن جهة أخرى، كانت لي العديد من الاتصالات مع الطلبة الأفارقة فتسنى لي تناول الكلمة أثناء مؤتمر اتحاد طلبة إفريقيا السوداء الفرنسية الذي عقد في قاعة Societés Savantes. وكنت أقرأ باهتمام متواصل مجلة «Présence Africaine» (الحضور الافريقي). ذات يوم أصرت إحدى الصديقات كي ألتقي نخبة من المثقفين من المستعمرات

الفرنسية بالقارة الأمريكية. وهكذا قضيت ليلة رائعة في مقهى في شارع السّين رفقة إيمي سيزار، الذي اشتهر «بمدوّنة حول العودة إلى مسقط الرأس»، والهايتي جاك ستيفن اليكسيس الذي ترك لدي انطباعاً رائعاً بما طرح من أسئلة حول الثورة الجزائرية وتجلياتها المختلفة (الجبل، جبهة التحرير الوطني، الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، النقابات إلخ. . .) وأجرى مقارنة دقيقة بين الوضع في الجزائر والوضع في هايتي الذي عرفت عنها بهذه المناسبة أشياء كثيرة ومثيرة. ثم أهداني نسخة من الرواية التي نشرها في تلك الأيام والتي سأقرأها فيما بعد في السجن.

* * * * *

وتحضرني اليوم ذكريات أخرى، هي معالم رافقت ترأسي للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين من جويلية 1955 إلى مارس 1956.

فبمناسبة عودة ملك المغرب محمد الخامس من منفاه ومروره بفرنسا، زارني عمال جزائريون واقترحوا علي أن نشكل وفداً لزيارته في إقامته في سان جيرمان أون لاي، من أجل أن تكون الجزائر حاضرة رمزياً في حفل التهنئة بالعودة. وحين وصلنا إلى القصر الذي كان يقيم فيه، فوجئنا بذلك المشهد الذي لا ينسى في 8 نوفمبر 1955، والذي تناقلته وسائل الإعلام، حيث شاهدنا الجلاوي باشا مراكش ينحني أمام السلطان (وبجانب هذا الأخير ابنه وولي عهده الحسن الثاني) ويطلب الصفح. وقام محمد الخامس بشهامة من كرسيّه ومدّ يده إلى الباشا الذي كان لا يزال راكعاً أمامه قائلاً له: «قم يا سي تهامي، ولْنَنْسَ الماضي»، في الوقت الذي كانت فيه نظرة ولي

العهد مليئة بالحقد والاحتقار. وبعد هذا المشهد اللائق بلوحة من لوحات «دولاكروا»، جرى تقديم الوفد الجزائري إلى الملك، فتناولت الكلمة معبراً عن سرور وتضامن الشعب الجزائري. عانقنا الملك واحداً تلو الآخر، وأضاف معلّقاً أنه من النادر أن نرى جزائرياً يتحدث بلغة عربية مهذّبة، إلا أن سكرتيره أحمد بن مسعود سارع بإخباره بأنني ابن الشيخ البشير الإبراهيمي. حينئذٍ عبّر عن عرفانه لمقالات «البصائر» التي ساندته في أوقاته الصعبة، وعن أمنيته في أن يرى والدي يغادر القاهرة للاستقرار بالمغرب في أي وقت شاء.

وأذكر أيضاً لقاءين مع الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة. اللقاء الأول جرى في مارس 1956 بالجناح التونسي من المدينة الجامعية حيث دعته (حين قدم إلى باريس لمناقشة الوضع المستقبلي لتونس) لجنة المقيمين بالمدينة الجامعية. وكان أغلبهم مناضلين في حزب الدستور الجديد(7). ورئيس هذه اللجنة هو الصادق بن جمعة الذي أصرّ على أن يقدم له ممثل فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني. وخلال خطابه القصير لم يتردد بورقيبة أمام عميد المدينة الجامعية أن يتحدث عن حتمية استقلال الجزائر. أما اللقاء الثاني مع الرئيس التونسي، فقد جرى بعد أيام في فندق كريون حيث رافقت محمد لبجاوي. أدخلونا بحذر من مصعد الخدمة. وبدأ بورقيبة بتقديم ابنه الحبيب بورقيبة الابن وزوجته، اللذين احتفلا بزواجهما منذ أيام كما قال لنا. ثم تطرّقنا إلى صميم الموضوع. ألّح لبجاوي على المطلب الرئيسي لجبهة التحرير في الجزائر، أي الرغبة في أن لا يتحدث الرئيس التونسي عن «مفاوضات بين فرنسا والمقاومة الجزائرية» أو «المتمردين الجزائريين»، وإنما مع جبهة التحرير الوطني. ووعدنا بورقيبة الداهية الذلق اللسان بأنه سيفعل ذلك بمناسبة خطابه إلى

الشعب التونسي الذي سيستقبله استقبال الأبطال خلال الأيام القادمة بمناسبة عودته إلى أرض الوطن مبشراً باستقلال تونس. وقد وفّى، والحق يقال، بوعده. وفي المقابل طلب منا أن نعمل لكي تكون علاقة الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني في القاهرة بخصمه الأساسي صالح بن يوسف أقل حرارة وأقل ظهوراً للعيان على وجه الخصوص. وعلى الفور بعثت رسالة حول هذا الموضوع إلى أصدقائنا في القاهرة. وبعد هذا اللقاء سلّمنا سفير تونس في باريس - صالح لوانشي وأنا - الجوازات المزوّرة الأولى.

* * * * *

كان لبجاوي، الطرف المحاور لبورقيبة، قد جاء إلى باريس قبل شهرين. وبالفعل، فقد زارني في الأيام الأولى من سنة 1956 ليس كصديق ومتعاون قديم في دورية «الشاب المسلم»، لكن كمبعوث لقيادة جبهة التحرير الوطني في الجزائر التي طلبت منّي ومن خلاله أن أترك في أسرع وقت ممكن رئاسة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين لأكرّس كل جهودي لفيدرالية فرنسا. قدّم لي لوانشي، بوصفه منسق الفيدرالية، والذي سأتعاون معه بكل أخوّة ويومياً طيلة سنة 1956.

حُدِّد تاريخ عقد المؤتمر الثاني للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في شهر مارس 1956. ولم يدرك أحد سبب هذا التسرع، وإن كنت تحججت بأنّي في حاجة إلى كل وقتي لتحضير رسالة الدكتوراه في الطب. ولم يبق إلا إيجاد حل لمسألة استخلافي. قمت بجسّ نبض بلعيد عبد السلام، لكنه رفض مظهراً رسالة من أبيه يوبّخه فيها على إهماله لدراسته وتفضيله للسياسة وأنذره بضرورة الانصراف

للدراسة من الآن فصاعداً. وحاولنا كلانا أن نجد حلاً، والتقينا عدة مرات. إما في بيته في شارع فلرسيكسل، وإما في غرفتي في المدينة الجامعية. ولما رفض رضا مالك بدوره الاقتراح اخترنا مولود بلهوان الذي كان أميناً عاماً في فريقي، والذي سيصبح الرئيس الثاني للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في مارس 1956.

*****

ابتداءً من هذا التاريخ دخلت السرية التامة التي ستستمر سنة كاملة، أي إلى غاية 27 فيفري 1957، تاريخ اعتقالي.

تتطلب السرّية اتخاذ احتياطات أولية. انتهى زمن الخرجات وحضور العروض والتهاون والثرثرة والمماحكات في المطعم الجامعي أوالمقهى. لم نكن، أنا ولوانشي، نلتقي في المكان نفسه. غيّرت لباسي، وحلقت شاربيَّ، وأصبحت أحمل نظارات مزيّفة. وكنت حين أشعر أن أحداً يركز نظرته عليّ في المترو أخرج وأتأكد من أنني لست متبوعاً. وأصبحت بهذه الطريقة أعرف كل مقاهي وكل محطات مترو باريس. ومن جهة أخرى، كنت نادراً ما أمكث أكثر من شهر في نفس المسكن، وكنت أتلف كل الوثائق التي كانت تصلني.

عيّنني زملائي عضواً كامل الحقوق في اللجنة الفيدرالية. وكانت هذه اللجنة تضم. بالإضافة إلى لوانشي وأنا، الإخوة الأربعة المكلفين بالتنظيم وهم: رضا (أحمد دوم) لمنطقة باريس، نور الدين (فضيل بن سالم) لمنطقة شمال فرنسا، إبراهيم (محمّد مشاطي) لمنطقة الشرق، علي (عبد الرحمن غراس) لمنطقة ليون ومارسيليا. لا يمكن تصوّر العمل الجبار الذي قام به هذا الرباعي، الذي (توّج بالتقهقر التدريجي لتنظيم الحركة الوطنية المصالية[8]، ومن ثم التكريس النهائي لجبهة

التحرير الوطني، ممثلاً وحيداً للشعب الجزائري. وحين اعتقل مشاطي وبن سالم عيّن الطيب بولحروف وزين منجي لخلافتهما.

كثيراً ما كنا، لوانشي، وأنا، نتحدث عن شخصية مصالي. ذات يوم أسررت له بتخوّفاتي من الانعكاسات المضرة للاقتتال الدائر بين الإخوة في جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية المصالية، مضيفاً: حتى ولو افترضنا أن الفرنسيين لا يشجعون هذا الصراع فهو يخدمهم، لأننا نفقد ضحايا من الجانبين، يكوّنون إطارات الجزائر مستقبلاً. وأضفت: «حبّذا لو أن مصالي أدرك أن أول نوفمبر 1954 فتح صفحة جديدة من تاريخ الجزائر وأن كل صفحة تستدعي رجالاً جدداً، حبّذا لو أنه بارك الكفاح المسلح منذ انطلاقه بدلاً من تنصيب نفسه كقائد وحيد ولو فعل ذلك لكان هو المرشح بدون منازع لرئاسة الجزائر الجديدة». واعترف لي لوانشي أن تمزقه أكثر مأساوية لأنه انغمس في شبابه في عبادة الزعيم، ومن ثم فإن خيبة أمله أكبر، وهو يرى مصالي في خريف حياته النضالية يسكن في إقامة فرنسية، ويتقاضى معاشاً فرنسياً، ويوجد تحت الحماية الفرنسية. وخلص قائلاً: إن معبوداً منخوراً لم يعد معبوداً.

طلب منا الإخوة في الجزائر في العديد من المرات أن نطرح في كل عدد من دورية «المقاومة الجزائرية»، لسان حال فدرالية فرنسا لجبهة التحرير، مسألة غياب العلاقة بين الكفاح المسلح ومصالي. وذهب كريم(9) وأوعمران إلى حد أنهما بعثا رسائل في هذا المعنى كنا ننشرها تباعاً.

كانت اجتماعات اللجنة الفدرالية تجري في مقرات مؤقتة. أتذكّر بسطانجي، هذا المناضل الذي كان يسكن مع أمه حجرة صغيرة

كان يضعها تحت تصرفنا، كلّما اقتضت الضرورة، مرغماً تلك العجوز على الانتظار في حديقة مجاورة طيلة الاجتماع. وتفادياً لمثل هذا الإزعاج اقترحت عقد الاجتماعات في غرف للأصدقاء في المدينة الجامعية.

أما أنا، فقد كلّفت أساساً بالعلاقات الخارجية، وأصبح اسمي النضالي هو «الطاهر». وخلال ذلك العام كانت تصلنا في المتوسط رسالتان إلى ثلاث شهرياً موّقعة من رابح (عبان رمضان)[10]. أولاً باسم «قيادة جبهة التحرير الوطني» ثم بعد ذلك باسم «لجنة التنسيق والتنفيذ»[11] (بعد انعقاد مؤتمة الصومام[12] في شهر أوت) وكانت هذه الرسائل المحررة بأسلوب مقتضب ومتقطع عبارة عن كتلة من المعلومات والتوجيهات. وكانت الأفكار الأساسية التي تتردد كاللآزمة تخص:

- فكرة جبهة التحرير الوطني التي يجب أن تحل محل عقلية التحزب من أجل تدعيم الوحدة الوطنية.

- تحسيس الرأي العام الفرنسي من خلال الاتصال بالصحافيين ورجال السياسة.

- دعم العلاقات مع الإخوة المغربيين والتونسيين عبر السفارتين ومختلف المنظمات من أجل إضفاء بعد مغاربي على كفاحنا. وأستطيع القول إجمالاً إن كل ما حقق وأنجزته فدرالية جبهة التحرير في فرنسا خلال سنة 1956 تم تحت إشراف عبّان عبر توجيهات وتقارير تنفيذية في الاتجاهين.

وفيما يتعلق بي شخصياً فقد كلفت بالعديد من المهام:

1 ـ في مارس 1956 توّجهت إلى جنيف بهدف ضمان انخراط الاتحاد العام للعمال الجزائريين في الكونفيدرالية الدولية للنقابات الحرة. وبفضل مساعدة إخواننا التونسيين والمغربيين نجحنا في هذا المسعى. وقد جرت المقابلة الحاسمة في قاعة خلفية لمقهى حيث استقبلني إيرفينج براون، الأمين العام للكونفيدرالية بحضور أحمد بن صالح، الأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل. قدمت عرضاً عن ظروف العمال الجزائريين في مواجهة المشاكل الاجتماعية المتفاقمة بفعل الحرب الجائرة المفروضة على الشعب الجزائري، والذين يتعرضون لأذى مضاعف بصفتهم «موظفين» و«أهالي» و«متمردين». وكانت المسألة الوحيدة التي يبدو أنها كانت تقلق إيرفينج براون هي التالية: «إن الاتحاد النقابي الذي أنشأته الحركة الوطنية المصالية قدم ترشيحه قبلكم وحضر مولاي مرباح شخصياً للدفاع عن هذا الترشح». فأجبته إننا نملك قاعدة هامة كان علينا استشارتها، وهذا ما يفسر تأخرنا. وفي المساء عبّر لي ابن صالح عن تفاؤله قائلاً إن القرار سيتخذ نهائياً في بروكسيل في الصيف القادم. وفي شوارع جنيف التقيت فجأة مولاي مرباح(13) الذي أثار حضوري فضوله. فسارع ابن صالح، الذي كان يرافقني، إلى طمأنته بقوله: «إن مستشارنا للشؤون الاجتماعية الدكتور القروي طريح الفراش فخلفه الدكتور طالب زميله في مستشفى بوبينيي». وفيما بعد أدركت أن ابن صالح ربما يكون قد أنقذ حياتي بإجابته تلك.

ألححت في تقريري إلى قيادة جبهة التحرير الوطني في الجزائر على ضرورة إرسال ممثل نقابي للمشاركة في الاجتماع القادم للكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة. وهكذا تعرفت على محمد درارني الذي توقف في باريس وهو في طريقه إلى بروكسيل، وسلّمت

له الملف. كان مناضلاً يتميز برصانة نادرة وشجاعة استثنائية، وسيعدمه الجيش الفرنسي بعد شهور.

2 ـ في جويلية 1956 أبلغنا درارني نفسه أثناء مروره بباريس رسالة من عبان حول ضرورة الانتقال إلى تونس حيث كانت الوضعية تسوء بين الجزائريين. سافرت إذاً إلى تونس حيث خصتني السلطات باستقبال أخوي، وأقمت عند محمد بن إسماعيل رئيس تحرير «أفريك أكسيون»، وكان أبوه تاجراً في عنابة ونصيرا وفيا من أنصار جمعية العلماء.

كان هدفي هو الحيلولة دون تحوّل الخلافات بين مناضلينا إلى مواجهة مسلحة، وأن يعمل مختلف المسؤولين معاً وفقاً لتعليمات القيادة بالجزائر دون المساس إطلاقاً بسلطة الحكومة التونسية. ولبلوغ هذا الهدف التقيت عدداً من المتخاصمين، سواء جماعة عبد الحي الذي تمرّد على سلطة القيادة، أو جماعة «الشرعية» الذين كان يرأسهم آيت أحسن، الذي كان تحديداً سجيناً لدى عبد الحي. واعتقدت أنني وجدت مفتاح الحل حين تناولت الغداء مع عباس لغرور[14] الذي كان يتكلم باسم الولاية الأولى[15]، مرفوقاً بمحافظه السياسي محمود منتوري، الذي سعدت بلقائه مرة أخرى. ووعدني لغرور، حين لم يجد ما يحتج به، أنه في نهاية المطاف سيكون مستعداً لسحب جنوده من تونس وإعادة عبد الحي إلى جادة الصواب والحصول على إطلاق سراح آيت أحسن إذا ما أمره بن بلّة بذلك. واستخلصت من ذلك أن الشقاق في تونس هو مرة أخرى نتيجة للصراع المشؤوم حول النفوذ بين قيادة الجزائر وجماعة القاهرة.

عندئذٍ سافرت إلى طرابلس عبر روما لأجد في انتظاري صديقي

محيي الدين فكيني، الذي رافقني إلى فندق المهاري، حيث التقيت أول مرة بن بلّة، مرفوقاً بمحمد خيضر، الذي عرفته في القاهرة. قدّمت عرضي حول خطورة الوضعية في تونس، ورجوته أن يستخدم كل سلطته، وهي حقيقية حسب لغرور، لوضع حد للشقاقات التي كانت تفقد ثورتنا حظوتها. بدأ بن بلّة بالتّعبير عن خيبة أمله: حين أعلنوا له عن زيارتي اعتقد أنني جئت لأطلعه على اجتماع هام كان يجري الإعداد له بين قادة الثورة، وكان يجهل مكان وزمان انعقاده. ثم انطلق في ذمّ عبان الذي يتدخل، حسب قوله، في شؤون جماعة القاهرة، وتونس، والرباط وفرنسا في حين أنَّ كلّ هذه الممثليات تابعة للوفد الخارجي وليس للجزائر. وقبل أن أعود إلى موضوع مهمتي ذكّرت محدّثي أنني كنت شخصياً أجهل أننا تابعون لجماعة القاهرة لسبب بسيط هو أننا لم تصلنا أية تعليمات من هناك، ومن جهة أخرى تم الاتفاق خلال اجتماع بين محمد خيضر وأحمد دوم في سان ريمو أننا سنخبره بتاريخ ومكان الاجتماع المزمع عقده بمجرد علمنا بذلك خاصة أن فيدرالية فرنسا مدعوة هي الأخرى إلى هذا الاجتماع. والشيء الذي أدهشني أكثر هو أنه كلّما حاولت الرجوع بالحديث إلى الوضعية في تونس كان بن بلّة يطرح علي أسئلة حول شخص عبان، وحول قرحته المعدية، وانعكاسات ذلك على طبعه ومزاحه، وحول تسلّطه إلخ... ولم يطلب مرة واحدة رأي خيضر الذي لم تكن تعوزه لا الحكمة ولا التجربة. وما عدا تونس وعبان لم نتطرق إلى أي موضوع آخر.

غادرت طرابلس خائب الأمل. فقد تشوّهت الصورة التي رسمناها عن مسؤولينا. واكتشفت حدة الخلافات في قمة قيادة الثورة حيث تتقدم الطموحات الشخصية على مصير شعب وثورته.

وتركت هذه الزيارة في نفسي قلقاً عميقاً. وفي طريق عودتي حاولت أن أطمئن نفسي بالقول إن المياه لن تتأخر في العودة إلى مجراها. فمن الطبيعي أن يرفض اليوم مسؤولو الجبهة، الذين أصيبوا في السابق بجرح في أعماقهم جراء تسلّط مصالي، مفهوم القائد العالم بكل شيء، والموجود في كل مكان، ومن أجل التعزيم[16] على ذلك يلجأون إلى رقية «القيادة الجماعية». لكن في غضون ذلك هناك ثمن ندفعه، وهو خطر الرضى بالرداءة وتصفية أي عنصر يتجاوز الحد المتوسط. غير أن أولئك الذين كانوا يتشدقون «بالقيادة الجماعية». يغفلون عن كونهم في بعض الأحيان يتصرفون كتلاميذ نجباء لمصالي.

حين وصلت إلى تونس طلبت مقابلة محمد المصمودي الذي عيّن منذ مدة قصيرة وزيراً للشؤون الخارجية. وكان التونسيون الذين ساعدونا في غالب الأحيان، وأحياناً تحملونا ساخطين هذه المرة، خاصة بعد التراشق بالرصاص في ماتيلدفيل يوم 18 سبتمبر. استقبلني المصمودي قائلاً: «إن المجاهد الأكبر[17] ضاق ذرعاً بمشاكلكم». حاولت تهدئة الجو واعداً بأن الجزائريين سيسوّون مشاكلهم بينهم. وانتهزت علاقاتي الأخوية ببعض المسؤولين لتوظيف عدد من حاملي الشهادات الجزائريين في الإدارات التونسية. وأوصيت خيراً بمولود قايد، ممثل الاتحاد العام للعمال الجزائريين، الذي حصل على الوسائل الضرورية لأداء مهمته وساعدنا بن صالح في ذلك.

من جهة أخرى، التقيت الدكتور محمد الصغير نقاش[18] الذي فاجأني بإخلاصه وبأفكاره المتميّزة حول التكوين المكثف للإطارات

الطبية وشبه الطبية لجيش التحرير الوطني. أما أفكاره السياسية فأقل ما يقال عنها إنها شاذة. ذات صباح قال لي إنه وجد الحل النهائي للمشكل الجزائري: سيطلب من بن بلّة الذي سيلتقيه بعد أيام في روما أن ينصب نفسه خليفة وكفى!!!.

اكتفيت في تقريري الذي وجهته إلى قيادة الجزائر بالإعلان عن فشل محاولاتي في تونس ثم في طرابلس، مشيراً في الوقت نفسه إلى أخطار ازدواجية القيادة بين الجزائر والقاهرة.

هذه الازداواجية حاولت الجزائر إلغاءها، أو على الأقل التخفيف من أضرارها، بتعيين الدكتور أمين الدباغين رئيساً للوفد الخارجي، وبتدعيم هذا الوفد بإرسال عدة شخصيات. وفي هذا الإطار كلّفت بمهمتين. الأولى في بيرن، بسويسرا، للتعجيل بالتحاق فرحات عباس والدكتور فرنسيس بالقاهرة بسرعة. والثانية في باريس نفسها لإقناع محمود بوزوزو بالالتحاق بالوجهة نفسها. كنت أعرف بوزوزو منذ كان مساعداً لوالدي في «البصائر». قبل في البداية الاقتراح، لكن يوم سلّمت له تذكرة السفر باريس ـ روما ـ القاهرة، أخبرني بالعدول عن قراره مدعياً «أنه وجد المأكل والمأوى في مؤسسة «Réarmement Moral» (التسلّح الخلقي). وأعتقد جازماً أن ضغوط الحركة الوطنية المصالية التي كان له في صفوفها أصدقاء هي سبب تخليه في آخر لحظة.

وبهذه الروح نفسها في تجنيد الكفاءات، طلبت منا الجزائر تدعيم عمل اللجنة الفيدرالية عن طريق إنشاء مجموعة مكلّفة بشرح وترويج طروحات جبهة التحرير الوطني في وسائل الإعلام الفرنسية. وهكذا التقى في اجتماعات حول لوانشي الإخوة محمد

الشريف ساحلي، ومصطفى الأشرف، والدكتور شوقي مصطفاي، والعربي دماغ العتروس، وعبد الملك بن حبيلس، وبلعيد عبد السلام، وأنا. لكن سرعان ما انفرط عقد المجموعة بسبب انتقال أغلب أعضائها إلى القاهرة، أو تونس، أو الرباط. وقبل ذلك وزعت المجموعة نصيّن باسم جبهة التحرير الوطني: النص الأول هو «رسالة إلى الفرنسيين»[19] التي قمت بتحريرها، أما الثاني فهو «رسالة إلى الاشتراكيين» التي كتب مسوّدتها محمد الشريف ساحلي.

في مطلع شهر سبتمبر 1956 عدت من تونس إلى باريس حيث كنا، أنا ولوانشي، نلتقي يومياً، وقد انضم إلى مواعيدنا شخص ثالث، هو أحمد دوم الذي سترتبطني به صداقة قوية، لكنه اعتقل للأسف الشديد في نوفمبر. وصلتنا رسالة من عبان يلّح على ضرورة الاتصال بالحزب الشيوعي الفرنسي على أعلى مستوى. وهو ما تمّ مع قيادة هذا الحزب على الأرجح في شهر أكتوبر. واتخذنا احتياطات كبيرة، وضبطنا موعداً في مقهى، حيث رافقنا أحد أعوانهم إلى حديقة مونصو. خرجنا من باب آخر، وركبنا سيارة كانت تنتظرنا قادتنا إلى شقة فاخرة. وجدنا ليون فيكس جالساً هناك وإلى جانبه أندري مينيو. كان يصحبني الطيب بولحروف. وما زلت أذكر أن المسؤولين تركا لدينا انطباع شخصين يجمعان بين الإحساس بالدوغمائية والنزعة العدوانية، فعلى المستوى السياسي رفضا الأطروحات التي كنت أدافع عنها حول المفاوضات كشرط أولي قبل وقف إطلاق النار. وعلى المستوى اللوجيستيكي رفضا أي شكل من أشكال المساعدة. وفي هذه المسألة تمسكا بموقفهما إلى درجة رفضهما ذكر كلمة «سلاح». وفي الأخير طرحت مسألة مساعدتنا في طبع جريدتنا، فرفضا بلطف. فما قول القادة الفرنسيين، ومن ورائهم صحافتهم، الذين كانوا

يتهموننا بأننا عملاء لموسكو؟ منذ تصويت النواب الشيوعيين على السلطات الخاصة، التي سمحت للثنائي غي مولي ولاكوست[20] بقيادة حرب الإبادة، لم يتغير شيء في الحزب الشيوعي الفرنسي.

وهناك دليل إضافي على ازدواجية القيادة في جبهة التحرير الوطني. في شهر أكتوبر 1956 حين طلبت القيادة في الجزائر من لوانشي أو أنا السفر إلى تونس من أجل «الاطلاع على ما يدبر بين المغربيين والتونسيين والوفد الخارجي، وما هو دور فرنسا في ذلك؟». وجدت نفسي في مطار تونس وسط الرسميين التونسيين والعديد من الصحافيين الأجانب الذين جاؤوا لاستقبال طائرة «الخمسة» القادمة من الرباط. لكن الجيش الفرنسي حوّل وجهة هذه الطائرة إلى الجزائر العاصمة.

ولتفـادي جو السخط السائد في المطار تحركت بسرعة، وطلبت مقابلة الوزير الأول المغربي مبارك بكاي، ومدير ديوان الرئيس التونسي عبد اللّه فرحات. وتكلمت عن مسؤولية مغاربية تفرض ردود فعل حازمة (لأن احتجاجات الواجهة أصبحت عديمة الفائدة) إزاء فرنسا التي اقترفت أول قرصنة جوية في تاريخ الملاحة في العالم.

خلال الأسبوع التالي كنت أستقبل كل صباح في مقر حزب الدستور الجديد من طرف الشخصين اللذين كلفا حديثاً بمتابعة الملف الجزائري، وهما أحمد التليلي وعبد المجيد شاكر. وكنت ألتقي هناك أحياناً أحمد محساس (الازدواجية توجب ذلك) الذي كان ينطق باسم بن بلة. طلب مني محساس أن أبقى في تونس للإشراف على التمثيل السياسي لجبهة التحرير الوطني، أما هو فسيشرف على الجانب

اللوجيستيكي. أجبته أني أتبع الجزائر التي أخطرتني للتوّ أن مبعوثاً من لجنة التنسيق والتنفيذ وصل إلى باريس. وبالفعل، فأثناء إقامتي بباريس بين المهمتين التي قمت بهما في تونس كان عبان قد أطلعنا بالصور والوثائق على عقد مؤتمر الصومام ونتائجه.

في أول نوفمبر 1956 وصلت باريس حيث استقبلني عبد الملك تمّام الذي كنا ندعوه «شارل الكبير». وكنت وحدي لأن مبعوث لجنة التنسيق والتنفيذ، كما أخبرني لوانشي، أصرّ على مقابلة أعضاء اللجنة الفيدرالية فرادى. وبعد ما استعلم عن مهمتي في تونس، قدّم عرضه الذي برز فيه تناقض بين وضعية سياسية خاضعة للسيطرة المتزايدة خاصة بعد عقد مؤتمر الصومام، وبين وضعية عسكرية متقلبة لا سيما بعد إنشاء خط موريس[21] للأسلاك الشائكة المكهربة. وأطلعني على الاستراتيجية المسطرة، وهي شنّ حرب العصابات لتخفيف العبء على المجاهدين في الجبال وتنفيذ اغتيالات فوق التراب الفرنسي تستهدف الخونة وضرب القدرات الاقتصادية الفرنسية لتخفيف العبء على حرب المدن. ومن جانب الفيدرالية[22] كنا قد اتخذنا كل الإجراءات من أجل تزويد الجزائر بالمتفجرات إلى درجة أنه لما تغيب ذات يوم أحد أعوان الاتصال عن الموعد اضطررت إلى حمل حقيبتين مملوءتين بالمتفجرات على متن القطار المتوجّه من باريس إلى مارسيليا لتسليمهما إلى أحد المناضلين، يدعى خنازن، وهو بحار على متن سفينة مارسليا ـ الجزائر.

حين كان تمّام يتحدث عن مؤتمر الصومام كان مرجعاه الوحيدان هما حكيم (بن مهيدي)[23] ورابح (عبان رمضان). وهو ما يؤكد أن هذا الثنائي هو مهندس الاجتماع. واقتنعت أنهما برزا وسط

الآخرين لأنهما جمعا في ذاتهما بشكل متناغم الخصال الثلاث الضرورية بالنسبة للقائد، وهي التصور والإرادة والتنفيذ. وما كان يعوز نظراءهما إما القدرة المبدعة أو القدرة على التنظير، وإما العزم والجرأة في العمل.

وكان من نتائج مهمة تمّام إجراء تعديل في اللجنة الفيدرالية. فقد عيّن لبجاوي منسقاً خلفاً للوانشي الذي احتفظ بعضويته في اللجنة. ولم يقدم لنا أي تفسير لذلك، والشيء نفسه بالنسبة لاستبدال منجي وبولحروف بقدور عدلاني وأحمد بومنجل. وبدأ هذا الأخير اتصالاته بنا، وكان هو الذي حذرنا من قرار الحركة الوطنية المصالية بالتصفية الجسدية لأعضاء اللجنة الفيدرالية. وبومنجل نفسه الذي عيّن محامياً «للخمسة» هو الذي كان الوسيط بينهم وبيننا، وبينهم وبين الجزائر خاصة.

*****

تدعمت علاقة الصداقة بيني وبين روبير بارا خلال هذه السنة من السرية. وكان بارا يجمع بين طيبة القلب ورصانة سياسية كبيرة. ففي الوقت الذي كان فيه العديد من المثقفين الفرنسيين يجدون صعوبة جمّة في التخلّص من خرافة الجزائر الفرنسية، اختار هو بشجاعة منذ سنة 1956 الدفاع عن شعار «الجزائر المستقلة». وفي الوقت الذي احتار فيه العديد من الشخصيات الفرنسية من ذوي النزعة اليسارية في اتخاذ موقف واضح بين الحركة الوطنية المصالية وجبهة التحرير الوطني من دون أن نتحدث عن أولئك الذين كانوا يناضلون بشكل مكشوف إلى جانب مصالي من أمثال دانيال غيران وايف ديشيزال إلخ. تأكد هو بسرعة أن جبهة التحرير تعبر عن التطلعات

الحقيقية للشعب الجزائري، وتقود فعلاً الكفاح المسلح. وهو ما دفعه إلى إجراء أول حوار مع العقيد أوعمران، أحد قادة الكفاح، ونشره في أسبوعية «فرانس أوبسرفاتور».

وروبير بارا هو الذي أوحي إلى مارو Marrou ذلك المقال المؤثر في جريدة لوموند «Le monde» ضدّ التعذيب[24]، وهو الذي أنشأ الخلايا الأولى لمساعدة جبهة التحرير الوطني، خاصة ما يتعلق بالإيواء والطباعة، وكانت هذه الخلايا تنشط أساساً في صفوف اليسار المسيحي، وقد ذهب إلى أبعد من ذلك حين وضع تحت تصرفنا استوديو كان يملكه في شارع موسيو، وكان يأوينا حين يتطلب الأمر ذلك في منزله في دانبيير. وكان يكافح في أوساط رجال الكنيسة والأوساط السياسية والصحافة. وانتهى به الأمر إلى السجن بسبب نشاطاته. وكان أول من أدرك أن الإيمان بالوحي الإلٓهي ونَفَس الثورة يمكنهما أن يتعايشا عند نفس الفرد لأن الخلافات التقليدية بين اليسار واليمين في نظرنا تسمو فوقها إرادة في الانعتاق وتعطش إلى العدالة الاجتماعية.

وأخيراً لا يمكنني أن أغفل المساعدة التي قدمها لنا إخواننا التونسيون والمغربيون التي سبق لي الإشارة إليها خلال مروري بجنيف. وأخص بالذكر السفارة التونسية في باريس التي أمدتنا بجوازات سفر أخرى، وكانت العلاقات مع السفير حسن بلخوجة وبشير بن يحمد ودية، وأضيف إلى ذلك غرف المدينة الجامعية في الجناح التونسي التي كان يقطنها الصادق بن جمعة والمكي العروسي، التي كانت تحتضن اجتماعات اللجنة الفدرالية. ثم سفارة المغرب حيث كنا نطبع كل مناشرنا قبل توزيعها بفضل المسؤول الثاني في

السفارة أحمد الطيب بن هيمة الذي سيصبح فيما بعد وزيراً للخارجية.

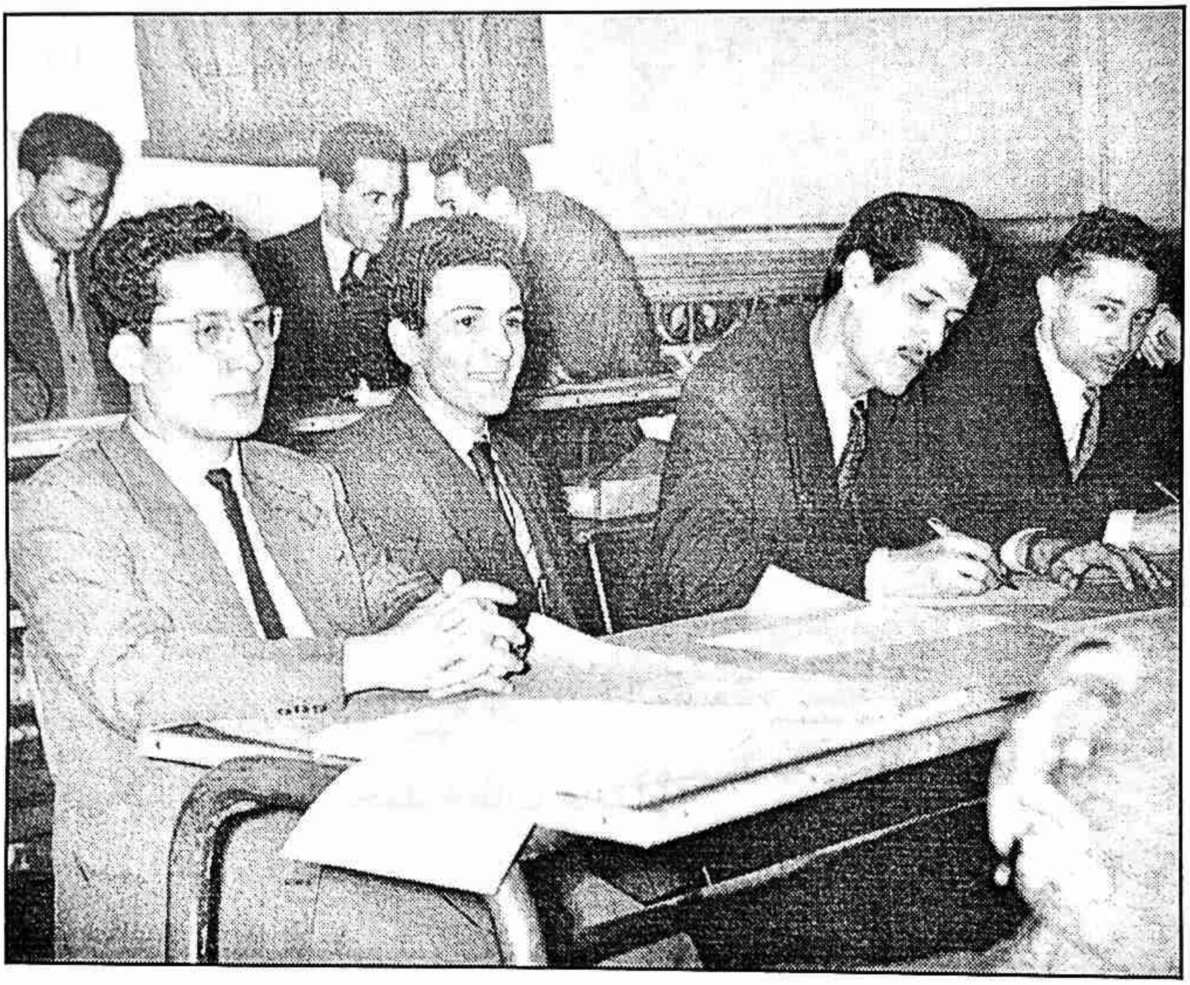
* * * * *

وصل لبجاوي إلى باريس في ديسمبر 1956 بصفته مسؤولاً جديداً عن فيدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني. وكانت شهرته كمساعد لعبان رمضان وكمشارك في صياغة أرضية الصومام قد سبقته إلى هناك. ورافقه إلى باريس عدة مساعدين: حسين المهداوي، وبن يوسف بن صيام، وإبراهيم سيدي علي مبارك. ومن جانبي واصلت لقاءاتي اليومية مع لوانشي لكي أخفف عنه وأرفع من معنوياته بعد ماتم تنزيله إلى درجة أقل بطريقة غير مستحقة. وكلفت في إطار التوزيع الجديد للمهام داخل اللجنة الفيدرالية إضافة إلى العلاقات الخارجية بالمسائل المالية التي كان يشرف عليها صالح لوانشي. وكنت أؤجل كل يوم تسلّم المسؤولية المالية إلى اليوم الموالي، حتى أبطل الأمر نهائياً لأننا اعتقلنا بعد أسابيع.

اندهشنا لطرق عمل لبجاوي الذي كان يستقبل كل من هبّ ودبّ من الجزائريين والفرنسيين، ضارباً لهم مواعيد في مقاهي الشانز إيليزي. وإنه لأمر غريب أن يقوم بهذا التصرف شخص مكلف بنقل الحرب إلى فرنسا. إن أقل ما يمكن أن يقال إن الأمر مناف لأبسط قواعد العمل السري. وربما غشى نظره اللقاء القريب والسري الذي جمعه بجاك شوفالي شيخ بلدية الجزائر والوزير السابق. وقد أطلعناه عن انشغالنا، لكنه كان يطفح بحماس طاغ ودعابة مسكنة للغضب. وعندما تسمعه يتحدث يخيّل إليك أننا على أبواب مفاوضات رسمية بين الحكومة الفرنسية وجبهة التحرير الوطني. لكن شتان بين الوعود

والواقع. المشهد قاتم. ففي بداية 1957 بلغت ممارسة التعذيب ذروتها تحت حكم الزعيمين الاشتراكيين، غي مولي في باريس وروبير لاكوست في الجزائر.

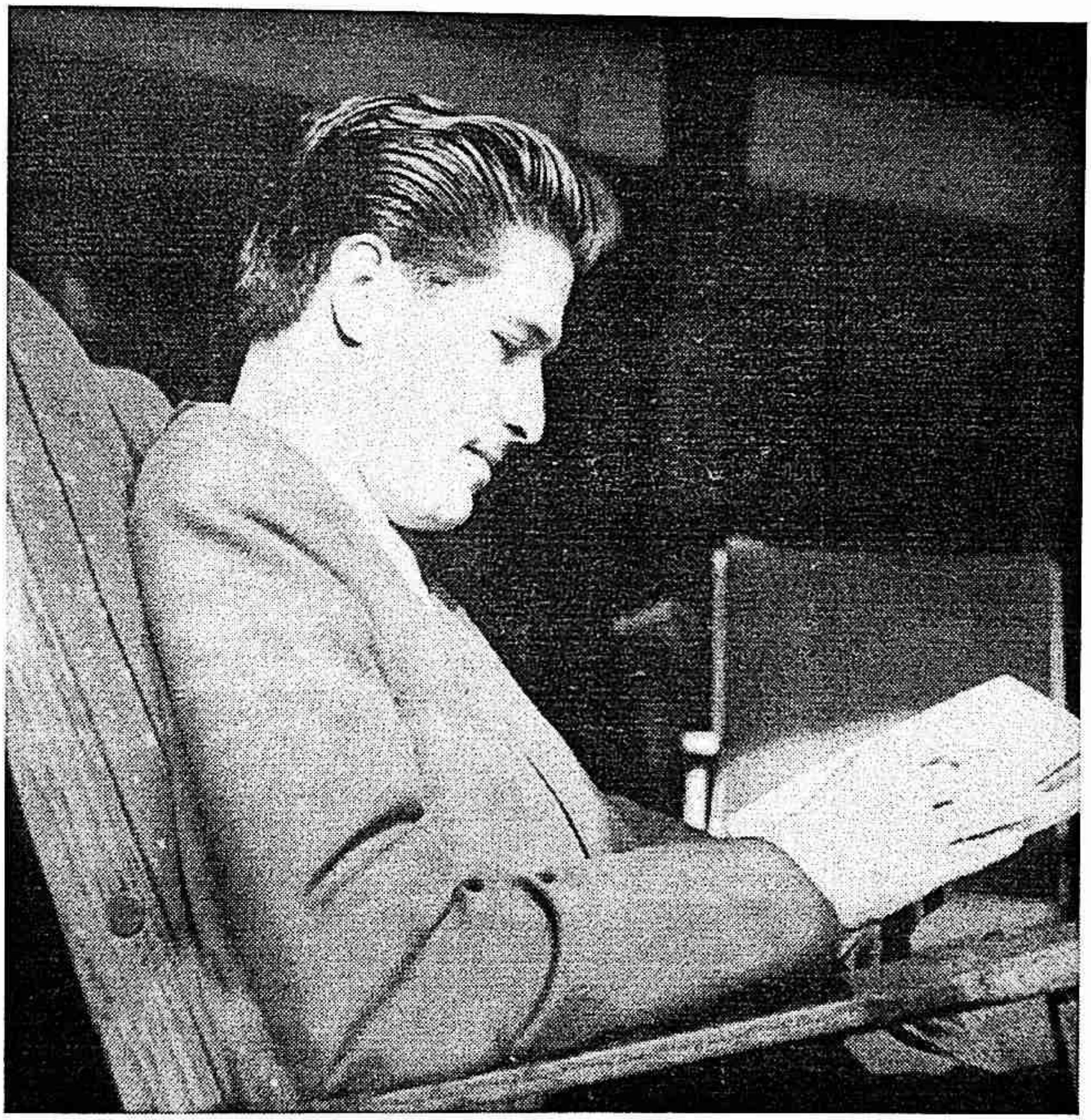
لكن واحسرتاه حدث ما كان مقدراً أن يحدث. ففي 26 فيفري 1957 اعتقلتنا الشرطة في شقة تقع في 10 مكرر بشارع أناطول دو لافورج، حيث كنّا مدعوين لعقد اجتماع للجنة الفدرالية. لكن اعتقالنا كان مجرّد صدفة أكثر منه مأثرة لعناصر الشرطة. والسبب هو أن بن صيام كان قد اعتقل قبل ذلك بيوم، وكان يأويه صديق فرنسي أصر على عدم توريطه، ولما كان يجهل تماماً عقد اجتماعنا صرح للشرطة أنه يقطن في شقة ابن عمته، سيدي مبارك، في 10 مكرر بشارع أناطول دو لافورج. كان بالإمكان تفادي الاعتقال لو وصلتني الرخصة التي طلبتها من عبّان لزيارة والدي المريض بباكستان، وعندما فتشت مصالح الشرطة الفرنسية غرفتي استولت على مبلغ عشرة آلاف فرنك ظناً منها أنه عائد لجبهة التحرير، والحقيقة أن هذا المبلغ سُلّم إلي من صديق الوالد محمد خطاب عندما أخبرني بمرض الشيخ وأصرّ على تحمل نفقات السفر إلى كراتشي حتى لا أطلب شيئاً من الجزائر. وهكذا ألقي علينا القبض لمجرد الصدفة وبعد ما قضينا أربعا وعشرين ساعة في مقرّات الشرطة بشارع Saussaies وليلة في المخزن La Conciergerie تم سجننا يوم 28 فيفري في سجن فران، حيث سكنت الزنزانة رقم 497 في القسم الثالث.



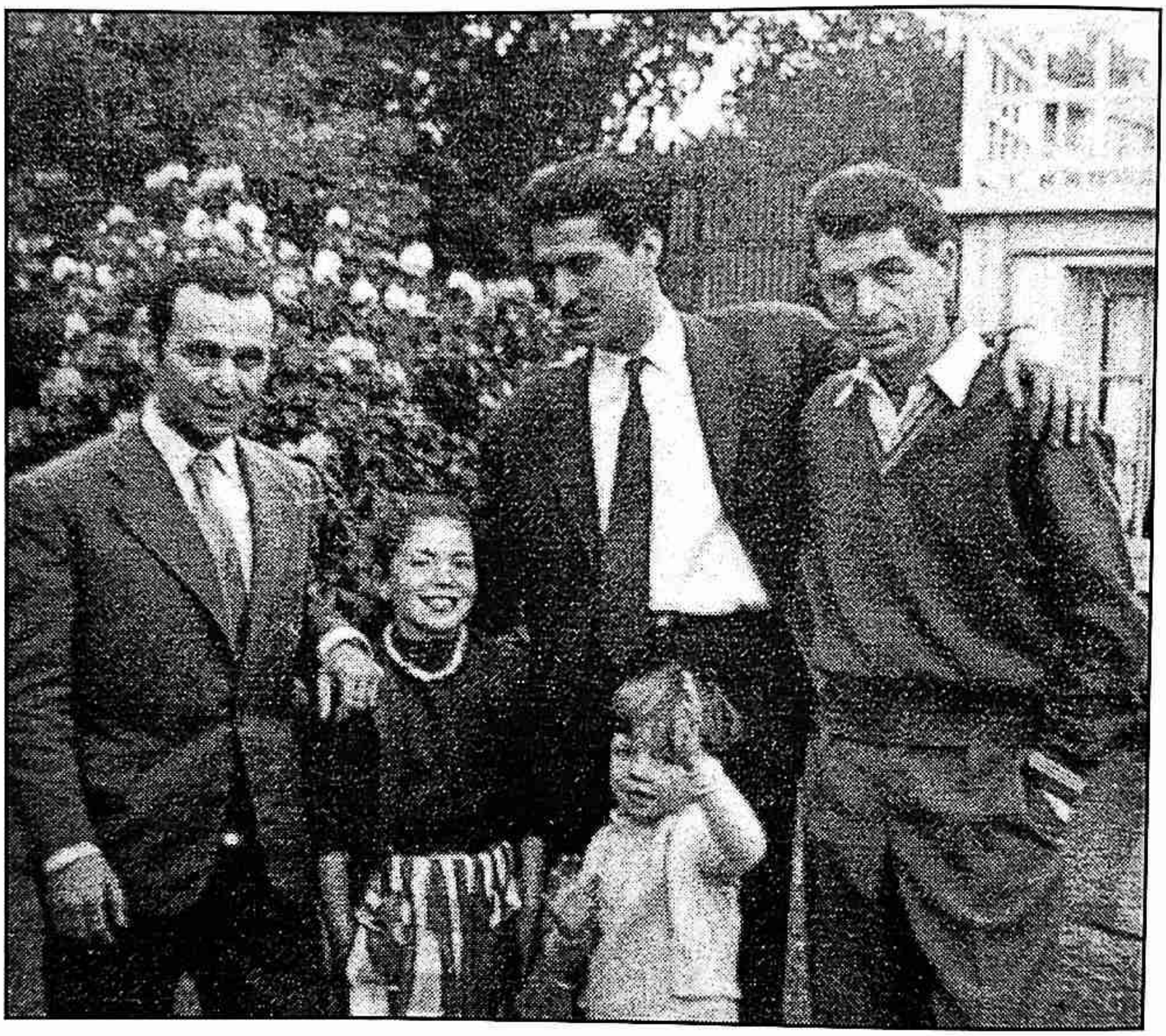
باريس 1955 ، الاجتماع التحضيري لمؤتمر الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في مقر جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، من اليسار إلى اليمين: محمد منصور ، العياشي ياكر ، أحمد طالب الإبراهيمي ، مسعود آيت شعلال . في الخلف : محمد خميستي ، عبد الحق براح .



باريس، سنة 1955، في مقر جمعية الطلبة المسلمين
لشمال إفريقيا بـ 115 شارع سان ميشال، من اليسار إلى اليمين:
أحمد طالب الإبراهيمي، روبير بارا، ابن عيسى أمير (واقفاً)، مولود بلهوان



باريس، 1955، المؤلف في غرفة بالمدينة الجامعية



دامبيير سنة 1956، من اليسار إلى اليمين:
صالح لوانشي، أحمد طالب الإبراهيمي، روبير بارا مع ولديه كلير وإيمانوئيل

# هوامش الفصل الرابع

(1) بو عمامة: محمد بن العربي أعلن الثورة في الناحية الغربية من الجزائر في عام 1881، واستمرت بين مد وجزر، ولجأ إلى المغرب الأقصى حتى توفي في 1908.

(2) (20 أوت 1955) هو يوم شَنَّ فيه المجاهدون الجزائريون هجومات واسعة على القوات الفرنسية ومزارع الكولون في الشمال القسنطيني تخفيفاً لضغط الجيش الفرنسي على المجاهدين في منطقة الأوراس، وتَضَامُناً مع المغرب الأقصى بمناسبة الذكرى الثانية لخلع السلطان محمد الخامس ونفيه.

(3) ومعناه حرفياً صيادو الفئران، أي ضرب العربي كما يُضرب الفأر.

(4) العقيد أُوعمران: قائد المنطقة (الولاية) الرابعة.

(5) مانديس فرانس: أحد رؤساء الوزارة في أثناء الثورة الجزائرية.

(6) غي مولي: أحد رؤساء الوزارة في أثناء الثورة الجزائرية.

(7) حزب الدستور الجديد هو حزب انشق أعضاؤه بزعامة الحبيب بورقيبة في 1934 عن الحزب الدستوري بزعامة عبد العزيز الثعالبي.

(8) الحركة الوطنية المصالية: أو الحركة الوطنية الجزائرية (M.N.A)،

أسسها مصالي الحاج بعد إعلان الثورة ورفضه الانضمام إليها، واختلف في تاريخ تأسيسها بين شهري نوفمبر أو ديسمبر من سنة 1954.

(9) كريم، هو بلقاسم كريم، مناضل في حزب الشعب الجزائري/ حركة انتصار الحريات الديمقراطية. من مؤسسي جبهة التحرير الوطني، قائد الولاية الثالثة، وزير القوات المسلحة ثم وزير الخارجية في الحكومة المؤقتة، رأس الوفد الجزائري في مفاوضات إيفيان. عارض النظام الجزائري. قتل في فرانكفورت عام 1970.

(10) عبان رمضان: مناضل في حركة انتصار الحريات الديمقراطية. من مخططي الثورة بعد خروجه من السجن في عام1955. سعى لضم مناضلي وإطارات جمعية العلماء، والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري إلى الثورة. من منظمي «مؤتمر الصومام» في أوت 1956. اغتيل في 1957.

(11) «لجنة التنسيق والتنفيذ» أُسِّسَتْ بقرار من مؤتمر الصومام في أوت 1956. وتتألف من خمسة أعضاء يختارهم المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وهي مكلفة بتنفيذ ما يسطره المجلس، حُلَّت بعد ما أُسِّست الحكومة المؤقتة في سبتمبر 1958.

(12) «مؤتمر الصومام»، مؤتمر ضم قادة الثورة في داخل الجزائر، وغاب عنه ممثلو منطقة الأوراس لاستشهاد قائدها مصطفى ابن بولعيد. ولم يحضره ممثلو الثورة في الخارج. وقد قرر المؤتمرون تأسيس: «المجلس الوطني للثورة الجزائرية»، وهو الذي يسطر سياسة الثورة، و«لجنة التنسيق والتنفيذ» لتطبيق هذه السياسة. فأما «مجلس الثورة» فقد استمر إلى 1962، وأما لجنة التنسيق والتنفيذ فقد انتهت بتأسيس الحكومة المؤقتة في 1958.

وقد ناقش المؤتمرون تطور الثورة الجزائرية سياسياً وعسكرياً منذ اندلاعها في نوفمبر 1954 إلى تاريخ عقد المؤتمر في أوت 1956. وأما اسمه «الصومام» فمأخوذ من المكان الذي عُقِد فيه، بالمنطقة الثالثة (الولاية الثالثة)، ولاية بجاية في التقسيم الإداري الحالي.

(13) مولاي مرباح: مناضل في حزب الشعب الجزائري/ حركة انتصار الحريات الديمقراطية. انحاز إلى مصالي في الصراع بينه وبين اللجنة المركزية، وبقي موالياً لمصالي بعد قيام الثورة.

(14) عباس لَغْرُور: من مناضلي حركة انتصار الحريات الديمقراطية. انضم إلى المركزيين عند انشقاق الحزب. كان من مفجري الثورة وقادتها في المنطقة الأولى (الولاية الأولى) ـ الأوراس ـ قُتِلَ في تونس في 1957 بعد محاكمته من طرف لجنة التنسيق والتنفيذ.

(15) «الولاية الأولى» هي منطقة الأوراس في التقسيم الذي أعَدَّتْه قيادة الثورة وكانت قبل مؤتمر الصومام تسمى «المنطقة الأولى».

(16) «التعزيم» في الاصطلاح الشعبي الجزائري هو إتيان حركات شعوذية، وقراءة طلاسم على المَمْسُوس لشفائه مما أصابه كما يُزْعَمُ.

(17) «المجاهد الأكبر»، هو الحبيب بورقيبة، رئيس تونس.

(18) محمد الصغير النقاش: طبيب، مناضل في حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية، عضو المنظمة المدنية لجبهة التحرير الوطني في مرسيليا قبل أن يلتحق بتونس للإشراف على مصالح الصحة. وزير الصحة في عهد ابن بلة.

(19) انظر: الملحق 3.

(20) روبير لاكوست: المقيم العام الفرنسي في الجزائر، صاحب مقولة: «لم يبق على هزيمة «المتمردين» إلا ربع ساعة».

(21) خط موريس: خط من الأسلاك الشائكة المكهربة، والمناطق الملَغَّمة يمتد من البحر المتوسط إلى أعماق الصحراء بين الحدود الجزائرية - التونسية، والحدود الجزائرية المغربية، ويتراوح عرضه من 6 إلى 60 متراً، مع مراكز حراسة تبعد عن بعضها من 3 إلى 5 كيلومترات. مزودة بالمدافع والرشاشات، والأضواء الكاشفة، وتجوبه دوريات مصفحة، وتراقبه من الجو طائرات، وقد أقامته فرنسا لمنع إدخال السلاح إلى المجاهدين في داخل الجزائر. وسمي على اسم وزير الدفاع الفرنسي أندري موريس.

(22) الفيدرالية: هي فيدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا.

(23) ابن مهيدي، محمد العربي: مناضل في حزب الشعب الجزائري، ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية. أحد إطارات الكشافة الإسلامية الجزائرية. وعضو المنظمة الخاصة. من مؤسسي اللجنة الثورية للوحدة والعمل بعد انشقاق حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطية. أحد الستة الذين حددوا تاريخ إعلان الثورة. كلف بالإشراف على المنطقة الخامسة (الغرب الجزائري). من منظمي ومسيري مؤتمر الصومام 1956. عضو المجلس الوطني للثورة الجزائرية ولجنة التنسيق والتنفيذ. نظم العمل الفدائي في مدينة الجزائر. وقبض عليه في 23 فبراير 1957، واستشهد تحت التعذيب بإشراف كبار ضباط فرنسا الذين اعترفوا بمزاياه العالية، وشجاعته الكبيرة.

(24) «لوموند» 5 أفريل 1956 «France, ma patrie».

# 5

# في السجون الفرنسية

## (فيفري 1957 ـ سبتمبر 1961)

بعد سنتين من النشاط الحثيث، تخلّلتهما تنقلات محفوفة بالأخطار والخوف من الوقوع ضحية التعذيب أو القتل، بدا لي أن السجن أرحم، إذ يقدّم خدمة ثمينة: الوقت الكافي للتأمل. بطبيعة الحال، خصّصت أولى أوقاتي للنوم، مدركاً أنني كنت في حاجة إلى كل قواي لمواجهة ذلك العالم الجديد، عالم السجن الذي لا أجد ما أقوله عنه غير ترديد ما قاله سالوست عن قرطاج: «أفضِّل ألا أتحدّث عنها قطّ على أن أتحدّث عنها القليل!».

في مرحلة أولى، كانت معاملتنا كسجناء حق عام، بحيث ألحقونا بهذا الصنف في القسم الثالث بسجن فران Fresnes. وضعونا في زنزانات فردية، لكن كان بإمكاننا التحدث مع بعضنا أثناء «النزهة» اليومية. هكذا، قرّرنا شنّ إضراب عن الطعام دام أسبوعين، وهو ما سمح لنا بتحقيق أول انتصار: الحصول على «وضع السجين السياسي».

لقد تمثل ذلك أولاً في نقلنا، في 2 أفريل، إلى «المصحة

الملحقة» حيث عدت إلى رفاقي في السجن، وهم: محمد لبجاوي، وصالح لوانشي، وحسين المهداوي، وبن يوسف بن صيام، وإبراهيم سيدي علي مبارك، ويوسف حاج حمو، وبولعراس حريزي، والعياشي ياكر، وأخيراً مالك حَسين الصغيّر، وهو رجل أعمال تونسي وجد نفسه في هذه الورطة لا لشيء إلا لأنه آوى لبجاوي. ولم يلبث أن التحق بنا كل من عمر بن غزال، وقدّور الغبريني، وحبيب يوسفي.

لم تكن لـ«المصحة الملحقة» المذكورة أية علاقة بالمصحة المعروفة عادة. كانت، في الواقع، عبارة عن عمارة صغيرة من طابقين تطلّ على ساحة حيث توجد المنضحات (دوش). كان كل واحد منا يشغل زنزانة من 1.5م على 2.5م بسرير مثبت على الجدار أثناء النهار. كانت الزنزانات تفتح ساعتين في اليوم من أجل «النزهة» التي كانت تسمح لنا بالالتقاء جميعاً بالساحة. وتختلف هذه النزهة بحسب الحوادث الخارجية: فتقلّص إذا قام رفاقنا بعملية اغتيال ضد رموز وأعوان المحتلّ، وتمدّد إذا سرت شائعات عن مفاوضات بين الحكومة الفرنسية وقيادة الثورة، بحيث يسمح لنا مدير السجن بالبقاء في الساحة مدّة أطول، تمتّد أحياناً من الساعة الثامنة صباحاً حتى الخامسة مساء.

لم تلبث حياتنا بالسجن أن انتظمت حيث كنا نقوم بنشاطات تشمل إجراء مقابلات في الكرة الطائرة بالساحة يديرها مالك حَسين؛ وتخصيص حصّة لمعرض صحافة الأسبوع يقدّمه ياكر، اعتماداً على أسبوعية «المجاهد» والصحف التي استطاع المحامون تسريبها إلينا على الرغم من الحظر. وكان ياكر يستعرض الأحداث بإبراز بطولات

جيش التحرير الوطني، والوسائل التي كان الجيش الفرنسي يستعملها في الجزائر، لا سيما التعذيب، بالإضافة إلى نشاطات فدرالية فرنسا، والتحرّكات الدبلوماسية لجبهة التحرير الوطني إلخ. . . أثناء ذلك، غالباً ما كان لبجاوي يذكرنا أن هؤلاء الذين كانوا يتكلمون عن «إرهاب جبهة التحرير الوطني» نسوا أن الإرهاب قد بدأ، فعلاً، مع أعمال الاغتيال التي وقعت بشارع تاب Thèbes، بحي القصبة، في 10 أوت 1956 وراح ضحيتها نحو مئة جزائري، وكان من تدبير أشياري Achiary، نائب عمالة[1] سابق بقالمة أثناء حوادث 8 ماي 1945. كما كنا أيضاً نقوم بتحضير عروض شهرية حول مواضيع مختلفة؛ وهكذا كلّفت بإلقاء محاضرة حول إسرائيل تطلّب مني تحضيرها أسابيع. إضافة إلى ذلك، كنا نقوم بتنظيم دروس في اللغة العربية على أساس ثلاث مجموعات: مجموعة المبتدئين ويشرف عليها مالك حَسين؛ بينما كنت أشرف على المستويين المتوسط والعالي. أما حاج حمو، فكان يعلّمنا الألعاب: البولوت، البريدج، الشطرنج؛ وهو ما كان يسمح لبعضنا بالترفيه عن النفس.

وفي ما يخص علاقاتنا بالسلطات الفرنسية، كنا نعتمد قواعد صارمة، فعيّنا في تعاملنا مع إدارة السجن ناطقاً باسمنا، وهو لبجاوي، واعتمدنا بالنسبة إلى العدالة النظام الدفاعي الآتي: لا اعتراف لأعضاء قيادة الفدرالية بالعدالة الفرنسية. وتجسد ذلك في الرفض القاطع للإجابة عن أسئلة القاضي (بداية كان بيراس، وهو قاضي مدني، ثم جاء جيرو، وهو قاضي عسكري)؛ ما يعني أن إطلاق سراحنا لا يتمّ إلا باستقلال الجزائر. أما بالنسبة إلى باقي المناضلين، فقد طلب منهم محاولة تخفيف مسؤولياتهم في التهم الموجهة إليهم، ولو عن طريق إلصاقها بأعضاء اللجنة الفدرالية، في

سبيل الحصول على الإفراج في أقرب وقت ممكن.

* * * * *

ذات مساء، اخترق هدوء الليل صوت نافذ، وإذا بي أسمع أحد الرفاق - وقد أعيته الوحدة وهزّه الحنين إلى الوطن - ينشد من نافذته النشيد الوطني «من جبالنا». كان الصوت ضعيفاً في البداية، لكنه سرعان ما تقوّى بفعل انطلاق أصوات الآخرين (اي أصواتنا نحن). لقد كانت بحق جوقة رائعة شعرت حينها بقواي تتضاعف عشر مرات، والأمل يرتفع إلى السماء، والقضبان الحديدية لزنزانتي تتحوّل إلى خيوط واهية كبيت العنكبوت. وعندما انتهى النشيد، لا شك أن كل واحد منا شعر أن العزلة لم تقطعه أبداً عن الكفاح الجماعي وكان يفكر في أولئك المجاهدين بالجبال أو القابعين في المحتشدات أو السجون وكلهم يعيشون المعاناة نفسها والأمل نفسه في جزائر مستقلة. في تلك الليلة، أدركت، بصورة قطعية، أن المصير الفردي لا يهمّ كثيراً أمام مصير شعب بأكمله. تلك هي الثورة!.

بقي هذا المشهد يتكرر من حين إلى آخر، وكان يحدث أن يجري تنويع فيه: ترديد«نشيد الأنصار» بالفرنسية، من أجل أن يفهم سجّانونا الرسالة شكلاً ومضموناً.

* * * * *

يجب الاعتراف بأن الحبس يمكن أن يكون فوق طاقة الإنسان، لولا سكينة الصلوات، وزيارات الأقارب القليلة التي كان القاضي يسمح بها، بالإضافة إلى زيارة المحامين والمطالعة.

كانت الكتب التعليمية والإصدارات الحديثة حول الإسلام تصلني من بعض الأصدقاء عبر محامين. لكنني كنت أعتمد أساساً على ما كانت مكتبة السجن، الغنية لحسن الحظ، توّفره لنا للمطالعة. وهكذا استطعت أن أطّلِعَ على كتب اشتهرت بكونها صعبة مثل كتاب «أوليس» «Ulysse» و«البحث عن الزمن الضائع» «A la recherche du temps perdu». كما استطعت أن أكتشف كُتَّاباً لم أكن أعرفهم من قبل، مثل بانايت إيستراتي Panait Istrati، وجورج أورويل George Orwell، وبوريس باسترناك Boris Pasternak، ومارغاريت دوراس Marguerite Duras. وهكذا قرأت أو أعدت قراءة الأعمال المتوفرة لكل من شكسبير، وغوته، وتولستوي، ودوستيفسكي، وهيمينغواي، وكالدويل، وروجي مارتان دو غار، وسارتر، ومالرو، وفاركور، وغيرهم.

أما المحامون، فقد كانت زياراتهم لنا تمكّننا من الحفاظ على الصلة بالعالم الخارجي: روني وبيار ستيب Renée et Pierre Stibbe كانا دائماً يتحدثان بطريقة تضفي مسحة من الأمل باقتراب موعد الفرج؛ وميشال بوفيلار Michelle Beauvillard كانت، حقيقة، بمثابة الأم تيريزا بالنسبة إلى المساجين السياسيين الجزائريين، الذين كانوا جميعاً يحبون بشاشتها ويقدرون سخاءها؛ وجاكلين جيجار Jacqueline Jaejer التي كانت أكثر انطواء على الذات، وأكثر انشغالاً بالمسائل الفكرية، وهي التي جعلتني أكتشف «Aurélien» لأراغون؛ وجاك فارجاس Jacques Vergès، الرجل الزاهي دائماً والمعين الذي لا ينضب لمعلومات حول السجون الجزائرية؛ وجان جاك دو فيليس Jean Jacques de Félice الذي استطعت أن أقدّر فيه بعده الروحي؛ وماري كلود رادزيافسكي Marie-Claude Radziewski المفعمة بالنشاط، الطلقة المحيا دائماً.

لقد بدا وجودنا بـ «المصحّة الملحقة» يمر من دون مشاكل إلى أن فاجأتنا إدارة السجن بقرار نقلنا إلى مكان آخر بحجة اكتشاف خطة فرار على حد زعمها.

*****

في 5 نوفمبر 1957، تم نقلنا إلى سجن «لاسانتي» حيث التحقنا، في القسم السادس، بالأعضاء الأوائل للجنة الفيدرالية وهم: أحمد دوم، وفضيل بن سالم، ومحمد مشاطي، وعبد الرحمان غراس، بالإضافة إلى جان جاك روسي Jean-jacques Rousset، وكان كُتْبِيّاً فرنسياً، اعتقل بسبب إيوائه لبعض هؤلاء.

فوق الطابق الذي شغلناه كان هناك قياديون من «الحركة الوطنية المصالية (MNA) الذين لم يكن لنا أي اتصال بهم. أما الطابق السفلي، فكان يحتله «الخمسة» (بن بلة، وخيضر، وبوضياف، وآية أحمد، والأشرف)، الذين سُمح لنا بملاقاتهم بمناسبة «النزهة» اليومية.

لقد كان اللقاء بين كل هؤلاء وأولئك مليئاً بالدفء لولا ذلك الهجوم الذي شنّه بن بلة، وحرص على حضوري وحضور لوانشي، على لبجاوي متهماً إياه بالتجسس عليه لصالح عبان، وبتواطؤ من بومنجل. غير أنه سرعان ما صفت الأمور بينهما.

أعدنا ترتيب حياتنا بالسجن الجديد، فعدنا إلى دروس اللغة العربية، لكن مع ضم طلبة جدد هذه المرة. كانت الزنزانات أكثر اتساعاً من الزنزانات في سجن فران، وكان بالزنزانة الواحدة سجينان فقط. رفيقي في الزانزانة، رقم 17، كان لوانشي الذي أسر لي أنّه كان

يحلم بقراءة ابن خلدون في النص الأصلي. ومن أحل ذلك، وخلال سنة كاملة وفي كل يوم، ظل يقرأ على مسمعيّ، بصوت عال، صفحتين أو ثلاثاً من «المقدمة» لأقوم أنا بتصحيح القراءة. بعد ذلك، يقوم بترجمة ما قرأ ثم يناولني إياه للتصحيح. ولكم تبادلنا من أفكار وآراء حول عبقرية ابن خلدون وصحة أحكامه في ما يتعلق بما كنا نعيشه آنذاك. لكن للأسف الشديد، لم أحتفظ بالملاحظات التي دوّناها معاً على هامش كل من الطبعة الأصلية وترجمة دون سلان de Slane.

كانت تجري نقاشات سياسية واسعة ومعمقة بيننا، وقد صرنا أزيد من عشرين شخصاً بعد أن كنّا عشرة، وبقينا نتقصى أخبار المستجدات في البلاد، ولكن مع الفارق أننا في وضعنا الجديد، أصبحت تصلنا أخبار أكثر بفضل وجود «الخمسة»، واتصالاتهم بكل من تونس، والجزائر، والقاهرة.

سرعان ما لاحظنا مظاهر توتر بين «القادة الخمسة»، وبدا لنا أن بن بلّة لم يكن يحمل تقديراً كبيراً لرفاقه، باستثناء بوضياف، لأنه كان يرى ألا أولوية لأحد إلاعبر الشرعية التاريخية، فلم يكن لينسى أن بوضياف كان من بين «الستة» الذين أشعلوا فتيل الثورة. وللأسباب ذاتها، كان يعتبر وجود الأشرف مجرد «حادث عرضي».

لقد نشأت صداقات بين أعضاء جماعتنا وجماعة «الخمسة» بحسب العلاقات القديمة، أو على أساس تقارب جديد في المشاعر والأفكار. وفي ما يخصني، كنت حذراً منذ وصولي إلى سجن لاسانتي لا سيما بعد ما أسرّ لي الأشرف أنه لم يكن يحترم كثيراً رفاقه الذين «لم يكونوا يقومون بما من شأنه أن يجعلهم في مستوى رجالات الدولة، ما عدا بوضياف». لذلك، قررت عدم الانحياز لأحد،

والانصراف إلى التأمل في عالم السجن كملاحظ متحل بما يمليه الضمير وتفرضه الموضوعية.

دامت إقامتنا بسجن لاسانتي عاماً واحداً (نوفمبر 57 ـ نوفمبر 58)، وتخللتها حوادث لا تنسى:

1. أرضية الصومام: لقد دامت المناقشات أسابيع عديدة حول هذه الأرضية التي تم إرسالها إلى «الخمسة» من أجل «إبداء ملاحظاتهم حولها وإثرائها عند الحاجة». وحسب ما انتهى إلينا من خلال أحاديثنا أثناء فترات النزهة، لم يردّ عن هذه الأرضية إلا ثلاثة، وهم: آيت أحمد الذي أبدى موافقته على خطوطها العريضة، وبوضياف الذي قام بنقد متحفظ بشأن بعض الأحكام فيها، وبن بلة الذي رفضها جملة وتفصيلاً على أساس أنها جاءت منافية للأسس التي قام عليها بيان أول نوفمبر 1954. أما أغلبية أعضاء اللجنة الفدرالية ـ حتى وإن لم تتم استشارتهم ـ فقد أبرزوا أن القادة المجتمعين بالصومام، وفي ظل السياق التاريخي السائد في أوت 1956، كانوا منشغلين، وهم على حق، بتوحيد الكفاح المسلح وتنظيمه أولاً، وأن تناول مسألة وضع الأقليتين اليهودية والمسيحية في جزائر الغد معناه أن تلك الأقليتين المؤيدة لاستقلال بلادنا كانت موجودة. أما في ما يخصني، فقد ذكرت بما كان للرسول ﷺ، منذ تأسيس دولته الأولى بالمدينة، من حرص على تحديد وضع الأقليات اليهودية والمسيحية في ظل الدولة المسلمة الناشئة. ومن جهة أخرى، كان المشاركون في مؤتمر الصومام كلهم يعتبرون اختيار إقامة «جمهورية جزائرية ديمقراطية واجتماعية في إطار المبادىء الإسلامية» أمراً بديهياً. ترى، من كان يجرؤ على مخالفة ذلك؟ أما في ما يتعلق بالعالم العربي، فلم

يُبْدِي أي مندوب إلى مؤتمر الصومام اعتراضاً على المسألة؛ كل ما في الأمر أن المشاركين دعوا الوفد الخارجي إلى عدم الاقتصار في التعامل على مصر، وتفادي كل ما كان من شأنه فرض تبعية للمخابرات المصرية. وأخيراً، وقع على مستوى اللجنة الفيدرالية إجماع حول مبدأ أولوية السياسي على العسكري والداخلي على الخارجي، كما جاء ذلك في أرضية الصومام.

2. وفاة عبان رمضان: ابتداء من فيفري 1958، انتشرت بالسجن شائعة تفيد بوفاة عبان رمضان في ظروف غامضة، ولم نلق لتساؤلاتنا أية إجابة لدى «القادة الخمسة». غبر أن المناقشات ظلت، كعادتها، جارية داخل مجموعتنا مستعرضين جميع الفرضيات إلى أن طالعتنا أسبوعية «المجاهد» ذات يوم، في صفحتها الأولى، بنبأ «استشهاد عبان رمضان بميدان الشرف». بطبيعة الحال، لم يكن من بيننا أي مغفل كي يصدق مثل ذلك الخبر الرسمي. أما أنا فقد تأثرت كثيراً لغياب قائد أمكنني تقدير خصاله من خلال رسائله، وتساءلت إن لم تكن هذه الوفاة المأساوية نتيجة حتمية لتلك الازدواجية، على مستوى القيادة، التي لمستها في أول لقاء لي مع بن بلة بطرابلس. ثم إن ما حيّرني حقاً أن أجد أشد المدافعين عن مبدإ أولوية السياسي على العسكري غير مكترثين بالحادث!.

3. في واحدة من أخريات رسائله، طلب منا عبان رمضان فتح «جبهة ثانية» بفرنسا لأن ذلك، حسب رأيه، يفك الخناق عن الجبهة الداخلية، ويضطر العدو إلى تخفيف وسائله الحربية ضد جيش التحرير الوطني. في ذلك الوقت، لم تكن لدينا سوى «خلايا دفاع ذاتي» صغيرة. لكن منذ إلقاء القبض علينا، تجسد الأمر الصادر عن

عبان في الميدان بفضل إنشاء «منظمة خاصة» برئاسة مناضل مقتدر، ألا وهو نصر الدين آيت مختار. وبقيت أتذكر هذا الأمر كلما علمنا بعملية خاطفة قامت بها هذه المنظمة. ففي 1957 تم اغتيال شكال[2] (رمز العمالة) بملعب كلومب وهو بجانب روني كوتي، رئيس الجمهورية الفرنسية؛ وفي 1958 تم حرق موربيان، الذي يعتبر أكبر خزان للوقود بفرنسا، إضافة إلى محاولة اغتيال سوستال، إلى غير ذلك من العمليات.

4. دورات منظمة الأمم المتحدة: أصبحت القضية الجزائرية منذ 1955 مطروحة كل سنة أمام الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة. وكنا مسرورين كثيراً ونحن نرى فرنسا تفقد في كل مرة التأييد لموقفها الطاعن في اختصاص منظمة الأمم المتحدة للنظر في القضية، معتمدة في ذلك على حجة بالية مفادها أن الأمر متعلق بقضية داخلية تخص فرنسا وحدها (ما دامت الجزائر، حسب زعمها، عبارة عن ثلاث عمالات[3] فرنسية). كما سررنا لفشل «القانون الإطار» لفيليكس غايار، وكذا حملات «التآخي»، وما إلى ذلك. كنا أيضاً نتابع باهتمام التقدم الملحوظ الذي كانت تحققه دبلوماسيتنا الناشئة، مضفية بذكاء الطابع المغاربي على القضية الجزائرية لا سيما بعد مؤتمر طنجة الذي عُقِد في سنة 1958، حيث استطاعت دبلوماسيتنا أن تحصل على المزيد من التأييد القوي في مختلف أنحاء العالم.

5. انكشاف شقاقات في اجتماعات كل من المجلس الوطني للثورة الجزائرية ولجنة التنسيق والتنفيذ كانت، للأسف الشديد، قائمة على الولاء والتبعية الشخصية أكثر منها على خيارات إيديولوجية. لقد بدا لنا واضحاً أن بعض «الخمسة»، كانوا يحاولون ـ مثلما فعلوا داخل

مجموعتنا ـ اكتساب امتدادات لهم في جميع هيئات جبهة التحرير الوطني.

6. إنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية منذ أوائل صيف 1958، بدأ «القادة الخمسة» يتحدثون عن احتمال تشكيل حكومة مؤقتة. وبعد ذلك بعدة أسابيع، وصلهم، فعلاً، مشروع أول قائمة لأعضاء هذه الهيئة. وقد أثار حفيظة بوضياف عدم إدراج اسم رابح بيطاط في التشكيلة، فسارع إلى مراسلة أصدقائنا بالقاهرة ليقول لهم إن مشاركته مرهونة بتدارك هذا الخطإ. وما لبثت الأمور أن سوّيت فاحتفلنا، في 19 سبتمبر، بالحدث مع شرب الشاي معاً (القادة الخمسة ونحن). وكان من شأن تشكيل حكومة جزائرية، بالنسبة إلى كافة المحبوسين، تسهيل عملية التفاوض مع فرنسا ومن ثمة حل القضية.

وقد ترأس فرحات عباس هذه الحكومة المؤقتة، إنّها نهاية مجيدة للصيدلي الذي عرف مسارُه «سقطات» و«طفرات» سمحت له بالحضور في مواعيد التاريخ العظيمة، وسوف يسجِل التاريخ بأنّ لقاءه مع البعد الديني للكفاح الوطني سنة 1944 (من خلال البشير الإبراهيمي) ومع بُعْدِه الثوري سنة 1955 (من خلال رمضان عبّان) يمثلان أهمّ المراحل من مسيرته.

7. الإضراب عن الطعام: بمبادرة من «القادة الخمسة»، انطلقنا، في 28 أكتوبر، في إضراب آخر عن الطعام تعبيراً عن تضامننا مع رابح بيطاط الذي كان قابعاً بسجن سركاجي الكائن بالجزائر العاصمة، وذلك من أجل نقله إلى باريس كي يلتحق بزملائه في الحكومة المؤقتة الموجودين بسجن لاسانتي. كان هذا الإضراب شاقاً

للغاية إلى درجة أنه انتهى بعد أسبوعين. وهكذا نقل عدد منا إلى المستشفى. لم يتأخر رد فعل الحكومة الفرنسية متمثلاً في إلغاء نظام المعاملة الخاص بالمساجين السياسيين وعزل المجموعتين عن بعضهما البعض. نقل «القادة الخمسة»، أولاً، إلى جزيرة آكس قبل استفادتهم من إجراءات تفضيلية بقصر توركان Château de Turquant ومنه إلى قصر دونوا Château d'Aulnoy. أما مجموعتنا، فقد تم نقلها إلى سجن فران حيث عدنا إلى نظام المعاملة كمساجين سياسيين، وكذا إلى «المصحة الملحقة» بعد سنة بالضبط من مغادرتها. لم تمر إلا أيام حتى التحق بنا بيطاط هناك.

ها نحن في «المصحة الملحقة» من جديد، وقد وجدناها كما تركناها سنة من قبل. لكن، شيئاً فشيئاً، تغير المقيمون بها بعد ما استفاد بعض الإخوان من الإفراج وغادرونا الواحد تلو الآخر، من بينهم: مالك حَسين، وياكر، وحاج حمو، وحريزي، وسيدي علي مبارك، والمهداوي. ثم حلّ محلّهم رفاق آخرون قادمون سواء من سجون فرنسية أخرى (محمد طربوش، وأحمد حاج علي، وموسى قبايلي، وجيرار سبيتزر) أو من سجون جزائرية (عمار أوزقان، وسعدي ياسف، وبوعلام وموساوي).

لقد كنت مسروراً جداً وأنا ألتقي أوزقان من جديد. كان سنّه وهدوءه يفرضان احترام رفاقي له ولم يكونوا يعرفونه من قبل إلا اسماً، ما عدا لبجاوي. بطبيعة الحال، تذكرنا أيام مجد دورية «الشاب المسلم»، وكان الشخص الوحيد الذي كانت لي معه، كل يوم وبعد أخذه لحقنة الأنسولين، أكثر المناقشات أهمية في ما يخص مستقبل الجزائر، ومصير الأقدام السوداء، ووضع المرأة، والإصلاح

الزراعي، ومكانة الإسلام في المجتمع، ولأن عمر أوزقان كان عصامياً فقد تميز بطريقته الخاصة في تناول الأمور والتدقيق في تفاصيلها. أما ياسف سعدي، فكانت تزوره، من حين إلى آخر، جرمان تيون Germaine Tillion التي كانت تتحدث بطريقة رائعة عن عن إقاماتها بمنطقة الأوراس، وعن ولعها بـ «متحف الإنسان»، وثقتها في الجنرال ديغول الذي كانت تظن أنه سيجد طريقة للتفاهم مع جبهة التحرير الوطني.

* * * * *

كانت الأخبار تصلنا حول السجون الجزائرية التي حوّلها نزلاؤها إلى مراكز للتكوين. فبالإضافة إلى تلقي دروس في اللغة العربية، كان المعتقلون في كل مكان جادين في تحسين معارفهم. لقد كانوا، وكلما سمحت الإدارة بذلك، يتقدمون إلى مختلف الامتحانات، منهم من كان يتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية، وآخرون لشهادة التعليم المتوسط، وآخرون لشهادة البكالوريا. بعد تفكير عميق، قررتُ تحضير ليسانس في التاريخ، لكن ليس من أجل الحصول على شهادة بقدر ما هو اكتساب منهجية في هذا الميدان البالغ الحساسية. وفي أكتوبر 1958، سجلت لشهادة في «تاريخ العصر الوسيط» بسبب تداخله مع العصر الذهبي للحضارة الإسلامية. ولكن حدث من خلال دراستي للبرنامج أن اكتشفت تلك الأطروحة البارعة لفرنان برودال Fernand Braudel حول منطقة البحر الأبيض المتوسط. كما اكتشفت مجلة «الحوليات» «Les Annales» والأهمية التي كان يكتسبها البحث المتعدد التخصصات. لذلك عدلت عن

اختياري الأول واتجهت نحو علم الاجتماع لأسجّل، في أكتوبر 1959، في شهادتين: «علم الاجتماع العام» و«علم النفس الاجتماعي»، تحدوني، هذه المرة، إرادة صارمة في التقدم إلى الامتحانات. رفضتْ وزارة العدل توفير الحراسة لمرافقتي إلى الكلية، وأمرت بأن أجري الامتحان داخل السجن؛ وهو ما رفضته وزارة التعليم بحجة وجوب تأدية الامتحانات، كما هو معلوم، في نفس المكان بالنسبة إلى جميع الممتحنين.

* * * *

لم يمنعني التحضير للامتحانات ولا حرماني من تأديتها من مواصلة المشاركة في حياة المجموعة. ومع تطور القضية الجزائرية صارت المناقشات أكثر إثارة والتحاليل المتعلقة بالسياسة الفرنسية أكثر دقة. لقد بدا لنا بوضوح أن استسلام غي مولي أثناء ما عرف بـ«يوم الطماطم»[4]، أي 6 فيفري 1956 في مدينة الجزائر، وكذا تعيين روبار لاكوست، كحاكم عام في الجزائر، خلفاً للجنرال كاترو، وتصويت الشيوعيين في البرلمان على «السلطات الخاصة»، واستسلام السياسي لاكوست أمام العسكري ماسو، كلها كانت أموراً تؤدي حتماً إلى انقلاب الجنرالات في ماي 1958[5]، ومن ناحية أخرى، كان الكل متفقاً على أن مسألة «المفاوض الجدير» قد تجاوزها الزمن بالنسبة إلى طرفي الصراع منذ وصول ديغول إلى الحكم وإنشاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية. وعلى المستوى العسكري، كان التشديد، قبل مجيء ديغول، يقع على «الحرب النفسية»، أما بعد 1958، فقد ساد مبدأ الحرب الشاملة. بالنسبة إلى ديغول، لم يكن الحق في بسط الاستعمار محل إعادة نظر، لذلك كان يجب أن تهتز

القدرة على بسط الاستعمار، وأن تتغيّر موازين القوة، كي يتسنى لمبدإ تقرير المصير أن يرى النور. وبعبارة أخرى، وفّر مؤلف كتاب «الجيش المهني»، أي ديغول، كل الوسائل اللازمة للجيش الفرنسي في سبيل كسب الحرب بالقوة. غير أنه عندما أدرك أن النتائج لم تكن في مستوى التوقعات، فتح الملف السياسي، قصد تهيئة الرأي العام للتحول القادم من خلال خطبه الكثيرة وندواته الصحفية الشهيرة.

بالتأكيد أعلن ديغول في الخطاب الذي ألقاه بتاريخ 16 سبتمبر 1959 اللجوء إلى تطبيق مبدإ تقرير المصير، إلا أنه لم يقر بفكرة قيام «جمهورية جزائرية» إلا في 4 نوفمبر 1960. وفي غضون ذلك، كم من دماء سالت، وكم من دموع انهمرت!.

إن التضحيات التي ظل الشعب الجزائري يبذلها والمقاومة التي تمسّك بها هي وحدها التي استطاعت أن تحبط الفخاخ العديدة التي وضعت في طريقه للحيلولة دون قيام جمهورية جزائرية. لقد أثيرت «قضية سي صالح»[6] و«القوة الثالثة» بهدف ضرب تماسك جيش التحرير الوطني والقيمة التمثيلية لجبهة التحرير الوطني، كما طرحت «مشاريع التقسيم» وما عرف بـ«مصير الصحراء»[7]. من أجل النيل من وحدة الجزائر وسلامتها الترابية. أضف إلى ذلك «مشروع قسنطينة»[8] الذي كان الهدف منه إخماد لهيب الثورة بتحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية للجزائريين.

لذلك لم نكد نصدق ما سمعناه من ديغول عن قيام «الجمهورية الجزائرية» لما انطوى عليه هذا الإعلان من عنصري المفاجأة والسرعة، وإن كان، بالنسبة إلينا، يعدّ نتيجة حتمية لمقاومة شعبنا

الضارية، إن إحداث المفاجأة أسلوب يتميز به ديغول المعروف بمناوراته لأنه يحوّل الصدمة التي تتولّد عنه إلى مكسب سياسي، وكان ينبغي انتظار اندلاع مظاهرات 11 ديسمبر 1960[9] لإبطال تلك المناورات بصفة نهائية، وإرغام ديغول على فتح مفاوضات مع ممثلي الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

إن تلك المظاهرات دحضت ـ بكثافتها وعزيمة رجالها ونسائها ـ كل نظريات أولئك الذين يعتقدون أو يزعمون بأن الشعب الجزائري وجبهة التحرير الوطني شيئان مختلفان.

تحرّك الشعب الفرنسي هو الآخر، إذ كان لـ«شهادات المعاد استدعاؤهم إلى الخدمة العسكرية» ثم لـ«بيان الـ 121» (بعد المقالات التي أصدرها سارتر) دور حاسم في صحوة الفرنسيين. شخصياً، اعتبرت البيان المذكور بمثابة نهاية لعمل طويل وشاق بادرت به الحركة الوطنية، وواصلته فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني في سبيل إنضاج فكرة الاستقلال وفرضها في نهاية الأمر. هكذا، جاء البيان بمثابة إعلان موت لأسطورة «الجزائر فرنسية».

وكذلك فإن إشارة ديغول إلى قيام «الجمهورية الجزائرية» ترتبت عنها نتيجة أخرى أخرت الحوار، وهي رد فعل «غلاة المعمرين»، الذي ترجم، أولاً، بانقلاب الجنرالات[10]. ثم بالاغتيالات الي نفّذتها منظمة الجيش السري[11]. إن هذه المنظمة الإرهابية وقد أدركت حتمية استقلال الجزائر أصبحت تنتهج سياسة «الأرض المحروقة» تطبيقاً لاستراتيجية تستهدف حرمان جزائر الغد، في آن واحد، من الأقدام السوداء[12]، ومن نخبتها المسلمة، ومن المنشآت القاعدية الموجودة. لذلك، لم تبدأ المفاوضات الحقيقية إلا في شهر

جوان 1961 بإيفيان لتتواصل بلوغران بعد هذا التاريخ.

*****

لا شك أن ديغول كان أيضاً على علم بالخلافات في صفوف القيادات الجزائرية. لقد تحولت ازدواجية السياسي ـ العسكري إلى صراع من أجل السلطة ما بين الحكومة المؤقتة وقيادة الأركان العامة لجيش التحرير الوطني. على رأس هذه الأخيرة، كان هناك رجل يشق طريقه نحو قمة القيادة الجزائرية بفضل نجاحه، على مستوى مقر الأركان العامة بغار الدماء، بالتراب التونسي، في تحويل كتائب جيش التحرير إلى جيش عصري يتميز بالانضباط، والمهارات التقنية، والاحتراف. هذا الرجل هو هواري بومين.

لم تنقطع الاتصالات بين مجموعتنا ومجموعة «الخمسة» منذ عزلنا عن بعضنا البعض في نوفمبر 1958، لا سيما أن أفراداً منا وآخرين منهم كانت لهم إقامات دورية بالمستشفى المركزي لفران. هكذا، قضيتُ هناك عدة شهور خلال سنتي 1960 و1961 حيث علمت أن بوضياف تلقى رسالة من بومدين في سياق إبرام تحالفات كانت تعقد بين الحكومة المؤقتة والمساجين الخمسة بهدف الاستيلاء على الحكم. رفض بوضياف العرض لأسباب كثيرة تقل أو تزيد صراحة منها أنّه كان في اتصال مع كريم بلقاسم ولم يكن يريد الطعن في شرعية الحكومة المؤقتة التي كان عضواً فيها، ولأنه، خاصة، كان له ميول مناوئة صراحة للعسكريين. وأمام هذا الرفض، بدأ بومدين يبحث عن بديل فأوفد أحد مساعديه، هو عبد العزيز بوتفليقة، في مهمة استطلاعية لدى «الخمسة «بقصر أونوا. وإني لأميل إلى الاعتقاد

أن بومدين ـ المتأثر بالتجربة الناصرية التي كان يعرفها جيداً ـ كان يبحث عن «نجيبه» (أي شخصية يستعملها مثلما استعمل عبد الناصر اللواء نجيب في انقلاب الضباط الأحرار بمصر). على أي حال، وحسب بوضياف، انتهت زيارة بوتفليقة المذكورة بعملية استمالة متبادلة بينه وبين بن بلة، إذ أعجب كل منهما بالآخر.

* * * * *

لم يعرقل تحضيري لشهادات علم الاجتماع مواصلة مطالعاتي أبداً. لكن، وبفعل طول مدة السجن، صرت أميل إلى قراءة أدب السجون. وقد اندهشت لاكتشافي، من خلال الثقافة العربية، أن شعرائي المفضلين عرفوا السجن، من بينهم أبو العتاهية ببغداد، والمتنبي بحمص، وابن زيدون بقرطبة، وأبو فراس بالقسطنطينية. وذاك الخليفة الذي حكم يوماً واحداً والذي كان على درجة عالية من التحضر والثقافة، وهو ابن المعتز الذي قتل بزنزانته ولم يزل في ريعان شبابه. أما ابن تيمية، فلم يكن إعجابي بأعماله على ضخامتها بقدر ما كان بتلك الشجاعة التي أبداها في محنته، وهو الذي أكّد أن السجين الحقيقي هو من يكون قلبه موصداً أمام حب اللَّه، والذي هو عبد هواه، وقد انتهى الأمر به إلى الوفاة بقلعة دمشق حيث كان معتقلاً.

أما فيما يخص الأدب الأجنبي، فإن دستويفسكي الذي كنت اعتبره من أعظم الكتّاب الذي سبروا أغوار النفس الإنسانية، صرت أفضله أكثر بفضل عمله «ذكريات بيت الموتى». ولم أستغرب لماذا أبكت قراءة هذا الكتاب قيصر روسيا، بينما لم يحرك إمبراطور النمسا ساكناً أمام «سجوني» لسيلفيو بليوكو، الكتاب المفضل لدى السجناء

السياسيين والذي يعتبر سلفاً لِـ «رسائل من السجن» لأنتونيو غرامشي، هذه «الرسائل» التي تنطوي على روح إنسانية عالية، وتضاهي، في رأيي، قيمتها قيمة أعماله النظرية كلها. وهناك أيضاً شارل موراس C. Maurras الذي يثير لدى القارىء تعاطفاً من خلال «رسائل من السجن». أما نهرو، في كتابه «حياتي وسجوني»، فنجده يدلي بخواطر ثاقبة عن الحياة في السّجن، وعن غاندي، والنضال السياسي بكل ما فيه من حماس وخيبات أمل.

كان والدي هو الذي يزوّدني، من القاهرة، بما كنت في حاجة إليه من كتب عربية. لم ننقطع أبداً عن المراسلة عن طريق المحامين. بل لقد أسعفني الحظ بمكالمة هاتفية معه من السجن سنة 1961. ذات يوم، دعاني آيت أحمد إلى تناول القهوة في زنزانته بالمستشفى. وبينما كنا نتحدث في هدوء، فإذا بالهاتف يرن؛ علماً أنني لم أنتبه، من قبل، إلى وجود هاتف؛ مما يدل على أن الحكومة الفرنسية صارت، في سنة 1961، تعامل «الخمسة» باحترام كبير، مانحة لهم، من بين أمور أخرى، فرصة الاتصال هاتفياً بذويهم. كان المتحدث زوجة آيت أحمد من القاهرة، وقد أحضرت والديّ إلى منزلها حسب اتفاق مسبق بينها وبين زوجها، كي يتسنى لي التحدث إليهما، وكانت بالفعل مفاجأة سارة، إذ استطعت، وأنا بالسجن، أن أسمع صوت والديّ مغتنماً، بطبيعة الحال، الفرصة لطمأنتهما بشأن إفراج وشيك. ولن أنسى أبداً هذه الالتفاتة من آيت أحمد، وكانت أغلى هدية تهدى لي بالسجن!.

ذات يوم، وأنا لا زلت مقيماً بالمستشفى المركزي لفران، كما كان معظم أفراد «الخمسة» طلب هؤلاء من مدير السجن السماح

لبعض المناضلات السجينات الانضمام إلينا لتناول الغداء معنا. من بين هؤلاء، كانت جميلة بوحيرد التي ما أن جلست حتى بادرت إلى القول: «يبدو أنه في الوقت الذي كان فيه الإخوان المعتقلون في إضراب عن الطعام، كنتم أنتم الخمسة تتلذذون بأكل السلمون والكافيار!» جمد الحضور حين سمعوا قولها هذا. وفي النقاش الذي تلاه، بدا كلامها من الصراحة والشجاعة وعدم الامتثال للآراء السائدة ما أثبت صحة ما سبق لي أن قرأته عنها. إن ما تعرضت له هذه المناضلة من تعذيب قد جعل منها بطلة جديرة بالانتماء إلى ذلك الصنف من المقاتلين الذين أبلوا بلاء حسناً وشرّفوا الشعب الجزائري في مقاومته عبر الأجيال. وبعد الاستماع إليها، قلت في نفسي إذا كانت جزائر الاستعمار قد أنجبت تلك الفئة من الأوباش من «البني وي وي»[13]، فإن الثورة قد أنجبت تلك السلالة من المناضلين القادرين على قول «لا» للظلم، لا للكذب، لا للذل. وكون جميلة بوحيرد امرأة فإن ذلك يمثّل مؤشراً إضافياً يدعو إلى الأمل.

ومن ناحية أخرى، تحصلت المجاهدات الثلاث المسجونات بالجزائر، واللآئي أفرج عنهن بفرنسا مؤخراً على ترخيص لزيارة إخوانهن المعتقلين. هؤلاء الثلاث هن: صافية باعزيز، ومريم بلميهوب، وفضيلة مصلي. وفي «المصحة الملحقة»، استطاعت المجاهدات الثلاث أن يدخلن على المكان مسحة من البشاشة في وقت كان الضجر قد بدأ يدب إليه.

* * * * *

شجعتني بعض مطالعاتي على الاتصال بشخصيات من عالم

الثقافة، وانتظمت بيننا مراسلات متواصلة. أذكر من بين هؤلاء كلاً من: كلود روا، وحيدر بامات، وروني حبشي، وجاك بيرك، والقس إتيان ماتيو، وعبد القادر محداد، ومكسيم رودنسون. وقد بلغ كرم النفس بهذين الأخيرين حد القيام بزيارتي. أما «الرسالة المفتوحة»[14] التي بعثتُ بها إلى ألبير كامو فبقيت من دون جواب.

لقد شعرت بالزهو عندما طلب مني كلود روا (وهو الشاعر، والروائي، والناقد) الاحتفاظ بنسخة من رسائلي لأنها، حسب رأيه، لا تخلو من قيمة أدبية. هذه الملاحظة كانت سبباً في قيامي، غداة الاستقلال، بنشر مجموعة من «رسائل من السجن»[15].

كما حظيت بزيارة الأب م. د. شونو وجرى بيننا نقاش قيم حول الحوار بين المسيحية والإسلام. وقد اتفقنا على أن هذا الحوار، عندما يقوم على العقيدة فقط، غالباً ما يؤدي إلى مأزق؛ وكي يكون مثمراً، ينبغي أن ينطلق، منذ البداية، من احترام الذات الإنسانية، متجهاً نحو ذلك «الفضاء الذي يسمح بالأخذ والعطاء»، فضاء الثقافة. إضافة إلى ذلك، لم يغتظ الأب شونو أبداً عندما أكّدت له أن الكنسية، في ما يخص القضية الجزائرية، كانت تفتقر إلى موقف حاسم وواضح. فهي، من جهة، تسمح لبعض الأساقفة، لا سيما في إطار «بعثة فرنسا» في ماي 1958، بإدانة التعذيب، بل وبالاعتراف بحق الجزائر في الاستقلال، ومن جهة أخرى، تترك الأسقف لاجيي، مدير هيأة «أعمال الشرق»، يبرّر التعذيب، ويعرب عن أسفه لكون قمع الشعب الجزائري لم يكن بالصرامة اللازمة.

*****

كان هناك زائر آخر معتاد، ألا وهو الدكتور جان ألبار فاي،

طبيب السجون. إنّ هذا الطبيب لا يكتفي بفحص المساجين الذين كانوا يأتونه، وإنما كان أيضاً يطرح عليهم أسئلة حول الظاهرة الاستعمارية وأسباب لجوئنا إلى الكفاح المسلح. كان يحاول دائماً أن يكشف، من وراء المريض الإنسان وتطلعاته الكامنة، وكذا نقائصه والدوافع التي تحركه. كان يهوى التحدث إلي بشأن ما جمعه، خلال تجربته الطويلة، من ملاحظات كثيرة في ما يخص الأمراض المعروفة في السجون. في أوائل 1961، ومع التزام قدر كبير من الحذر، أبلغني باحتمال إصابتي بمرض نادر، ألا وهو التورم الليفي العصبي Neurofibromatose أو مرض راكلينغهوسن Recklinghausen موضحاً أن التأكد من ذلك يتطلب إجراء خزعة (biopsie) وتأكيد ذلك بتحليل تشريحي (anatomopathologique). بعد ذلك، توالت الكشوفات الطبية والخبرات المضادة، وسرّب المحامون خبر المرض إلى الصحافة، فنشر كلود روا مقالاً في جريدة Le Monde بعنوان «من أجل سجين»، كما تحركت جمعيات دولية للطلبة، وانطلقت حملة صحفية حقيقية إلى درجة أنني تلقيت عدداً كبيراً من المراسلات من مجهولين، من كل من فرنسا، وإيرلندا، وإيطاليا، والمغرب، وإنّي أستغل هذه الفرصة اليوم لتقديم جزيل الشكر لهم وجميل العرفان، وكانوا كلهم يتمنون لي الشجاعة والشفاء. وقد وصلتني بطاقة بريدية لم تحمل إلا جملة واحدة: «Le vità e bella» (الحياة جميلة)، وكانت عبارة عن نسخة من لوحة لجورج دو لاتور بعنوان «السجين». وكانت لوحة رائعة! وسرعان ما تذكرت لوحة لدو لاكروا معروفة بـ«تاسّو في السجن»[16] التي ألهمت بودلير فنظّم قصيدة تمجد الروح «التي يخنقها الواقع بين جدرانه الأربعة». حينئذٍ حلمت بكتابة عمل حول «السجين في الفن التشكيلي».

أفضت هذه الضجة عن حالتي الصحية إلى إصدار وزارة العدل قراراً استفاد منه قبلي كل من الأشرف ومشاطي، وهو منحيَ الحرية لأسباب صحية، لكنها كانت، هذه المرة، حرية مشروطة بإقامة جبرية ببواتيي. وفي حديثي إلى المحامين، لفتّ انتباههم، مازحاً، أن اختيار بواتيي لم يكن صدفة لعلهم أرادوا أن يذكروني أن هذا المكان هو الذي أوقف فيه زحف أجدادي على أوروبا!.

ولا بدّ من الإشارة هنا أننا عشنا بعض اللحظات السعيدة: مثلاً عندما عقدتُ قران زميلين قرّرا الزواج في السجن بعد أن يئسا من إفراج قريب وهما صالح الوانشي وموسى قبايلي.

آخر حادث هز حياة الخمود بـ«المصحة الملحقة» قبل خروجي هو عملية الفرار العجيبة التي قام بها فضيل بن سالم. الواقع أنّ بن سالم كان، منذ إلقاء القبض عليه يفكر دائماً في الهروب طيلة الأربع سنوات التي قضاها بالسجن. وقد ظل خياله يرسم الخطة تلو الأخرى حتى حالفه الحظّ في نهاية الأمر بفضل المثابرة وشدة العزيمة.

في صباح ذلك اليوم، عبرنا الساحة في اتجاه المنضحات (الدوش) الموجودة بالجهة الأخرى المشرفة على ساحة ثانية مؤدية إلى الباب الخارجي. بعد الاغتسال، عدنا إلى زنزاناتنا ما عدا بوضياف وبن سالم ودوم المعنيين بخطة الهروب دون سواهم. لم ينتبه الحارس إلى أي شيء وهو يغلق أبواب المنضحات. لقد استطاع بن سالم، من خلال زائريه، أن يحصل على ثلاث قطع مثيلة لتلك التي تعطى للزوار عند الدخول ليعيدوها بعد انتهاء الزيارة. داخل المنضحات، تنكر الشركاء الثلاثة مرتدين بذلة وربطة عنق. حلق بن سالم لحيته، وعندما بدأت الزيارات عند الزوال، قام الزوار

المتواطئون بترك القطع الثلاث الحقيقية، التي تسلموها عند دخولهم، عند مدخل المنضحات محتفظين، طبعاً، بالقطع المزورة في جيوبهم لتسليمها عند الخروج. غير أن بن سالم، وفي الوقت الذي كان فيه يهم بفتح النافذة، وجدها عصية بسبب الرطوبة فقفز من على جبهة الباب ليجد نفسه بالساحة الثانية من السجن. كان من المفروض أن يتبعه بوضياف ثم دوم، ربع ساعة بين الواحد والآخر، لكن، للأسف، لفت الضجيج الذي أحدثه بن سالم عند قفزه انتباه الحراس فسارعوا إلى فتح المنضحات ليتفاجأوا بوجود بوضياف ودوم. وما كان لهذين الأخيرين إلا القسم بأغلظ الأيمان أنه تمّ نسيانهما هناك منذ الصباح، ولم تجد صيحاتهما نفعاً في جلب الانتباه إليهما. في هذه الأثناء، عبر بن سالم الساحة الخارجية ليخرج من الباب الرئيسي وهو يعيد القطعة رغم أنف الحراس الذين كان يعرف بعضهم ولم ينتبهوا إليه ظانين أنه زائر عادي. استقل سيارة كانت في انتظاره خارج السجن وأصبح حراً طليقاً.

لقد أثارت عملية الفرار هذه ضجة كبيرة سواء على مستوى مديرية السجن أو على مستوى وزارة العدل. فأما المدير، وبعد فترة من الغليان مليئة بأنواع اللوم والتهديد، فقد انتهى إلي التقليل من شأن العملية، بل لقد بلغ به الأمر حد تقديمها على أنها انتصار بحجة أن الحراس استطاعوا أن يمنعوا بوضياف من الهروب حسب زعمه.

* * * *

كانت أيامي الأخيرة بـ«المصحة الملحقة» حافلة بالحوادث. وكان يبدو أن إطلاق سراح جميع المساجين الجزائريين قاب قوسين

أو أدنى، ويعني ذلك قرب إعلان استقلال الجزائر. فوسائل الإعلام توحي بذلك، والزائرون يؤكدونه، وكذلك إدارة السجون التي خففت من إجراءاتها، أضف إلى ذلك كلّه حركة كبيرة للمحامين. كان «الخمسة»، لا سيما بن بلة، محل اهتمام كبير، وفي زنزانتي زارني كثير ممن لم يستطيعوا إخفاء إعجابهم به، لا سيما بعد مقابلة أجريت معه. من بين هؤلاء كان: الأستاذ بيار ستيب لأنه وجد فيه الضامن لجزائر اشتراكية أصيلة، والأستاذ دو فيليس لأنه سمعه يؤكد ضرورة اتحاد المؤمنين (من مسيحيين ومسلمين) ضد الماركسيين، والدكتور عبد الكريم الخطيب، قائد جيش التحرير المغربي، لأنه تحدث معه عن إنشاء حركة إسلامية مغاربية. حينئذٍ قلت في نفسي إن عقدة المرآة التي يتحدث عنها علماء النفس موجودة فعلاً، غير أنني أدركت أن الرجل ـ الذي ما لبث أن صار يرى نفسه أول رئيس للجمهورية الجزائرية ـ كان يسعى لإرضاء الجميع مردداً على كل من يخاطبه ما كان يطيب له سماعه.

*****

إن السجن هو المكان الأمثل لمعرفة المرء لرفاقه، بكل محاسنهم ومساوئهم، ومدى مطابقة أفعالهم لأقوالهم. إنه أيضاً المكان الأمثل الذي يعرف المرء فيه ذاته. وهكذا، اكتشفت أنني إذا كنت أجمع بين رحابة الصدر واعتدال المزاج فإنّني مع الأسف أركن إلى لذّة اللامبالاة والكسل. فكم من مشروع راودني لكنه لم ير سبيلاً إلى النور أبداً. لقد شرعت، بحماس فياض، في دراسة حول ابن خلدون، وأردتها أن تكون على منوال سلسلة «Ecrivains de toujours» (كتاب خالدون) لدار النشر Seuil، لكنني تخليت عنها. ثم بدأت

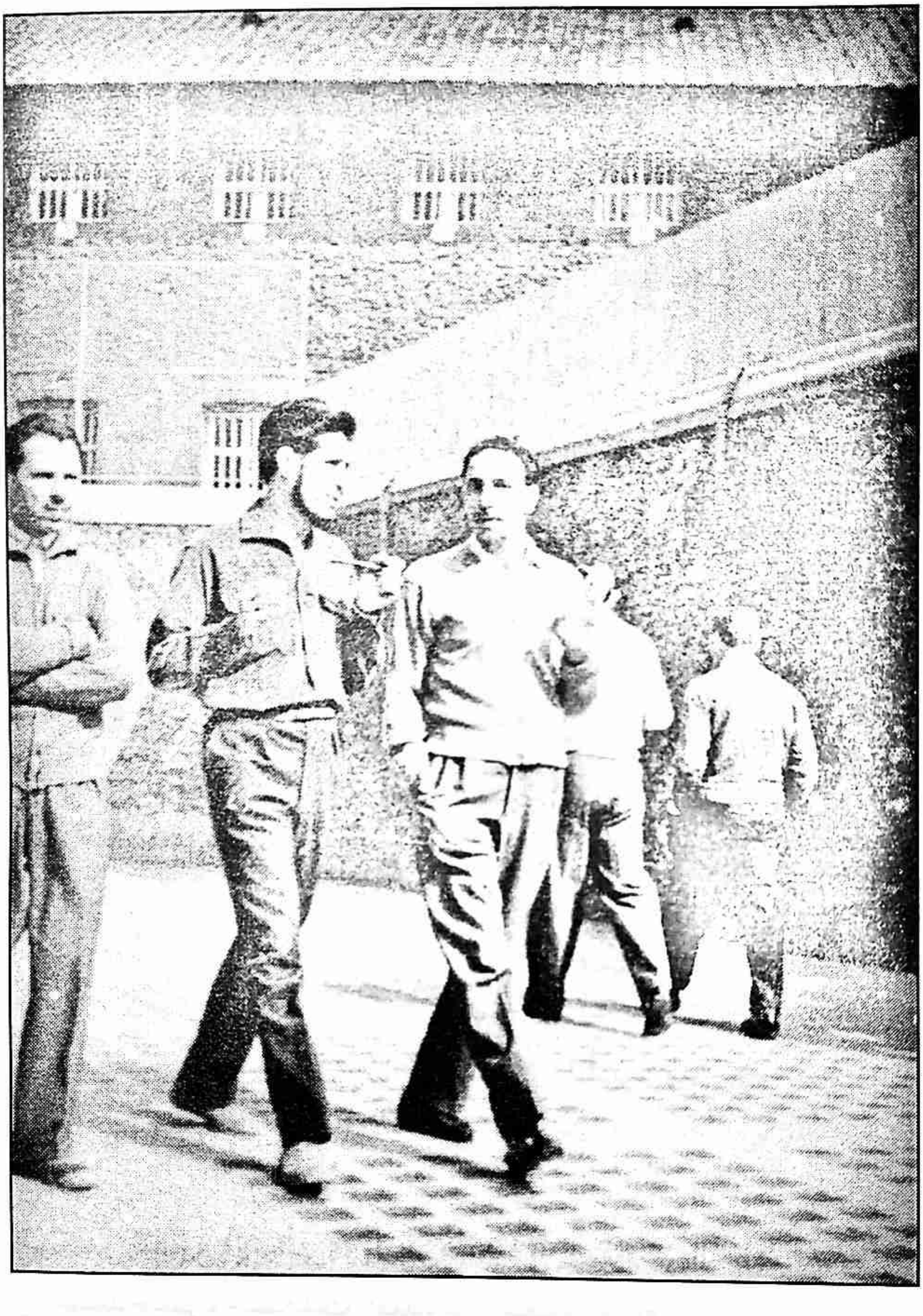
ترجمة «Les Fusils de la mère Carrar» (بندقيات الأم كرار) لبرتولد بريخت إلى العامية لفائدة المسرح الجزائري، إلا أنني توقفت عنها في الصفحات الأخيرة. كما جمعتُ الآلاف من الأمثال الجزائرية بهدف نشر طبعة جديدة لكتاب «الأمثال» للعلامة محمّد بن شنب، غير أن الفكرة بقيت في طور المشروع. قمت أيضاً بتحرير ملاحظات عديدة حول المستشرق لوي ماسينيون والقس شارل دو فوكو، لكن الأمور لم تتعد هذا الحد. لقد كان ابن خلدون على حق عندما قال إن لطبيعة البلد أثراً على خصائص سكانه. هكذا، ألفيت الجزائريين، شأنهم في ذلك شأن وديانهم، غريبي الأطوار في مشاعرهم، قليلي الاستماتة في جهودهم، متذبذبين في مبادراتهم.

في 8 سبتمبر 1961، ودّعت رفاقي بسجن فران. لم يكن الوداع مؤثراً لأننا كنا واثقين من اللقاء قريباً في حضن الجزائر المستقلة. ومن غرابة الأمور أني غادرتهم بنوع من الحسرة وأنا أشعر أن إقامتي الطويلة بالسجون الفرنسة لم تترك في نفسي أية مرارة. بالعكس أحتفظ بذكرى مؤثرة؛ وهو، كما أظن، ما يتجلى من قراءة «رسائل من السجن» التي دونتها.

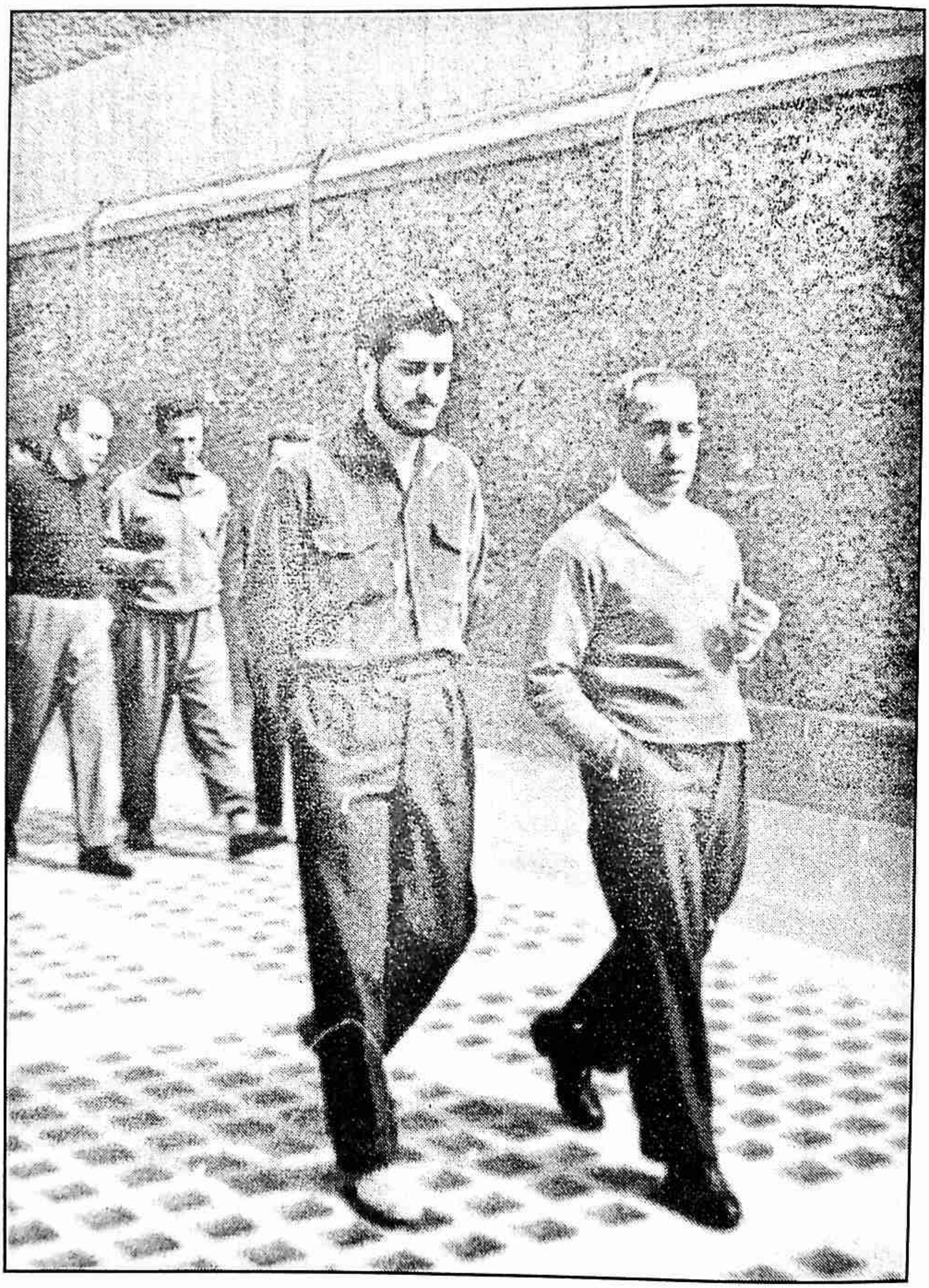
يُزعم أن السجين قادر على التحمل بفضل طاقات كامنة فيه لا يدركها. وفي الحقيقة، إن تحملي لحياة السجن الطويلة بين أربعة جدران لم يكن ممكناً إلا بفضل أمرين اثنين: إيماني بالله الذي جعلني «أعشق زنزانتي» (على حد تعبير جوزاف دو ماستر) وإيماني بقضية سمحت لي بأن لا أشعر بالوحدة أبداً. إن هذا التزاوج بين الشعور بسمو الروح والإحساس بالانتساب إلى مجموعة هو الذي يفسر هدوئي طيلة فترة السجن.



سجن «لاسانتي»، باريس 1958 من اليسار إلى اليمين:
محمد خيضر، حسين آيت أحمد، بن يوسف بن صيام، عمار بن غزال، أحمد طالب الإبراهيمي، العياشي ياكر، بولعراس حريزي، مصطفى الأشرف، محمد مشاطي، فضيل بن سالم، أحمد بن بلة



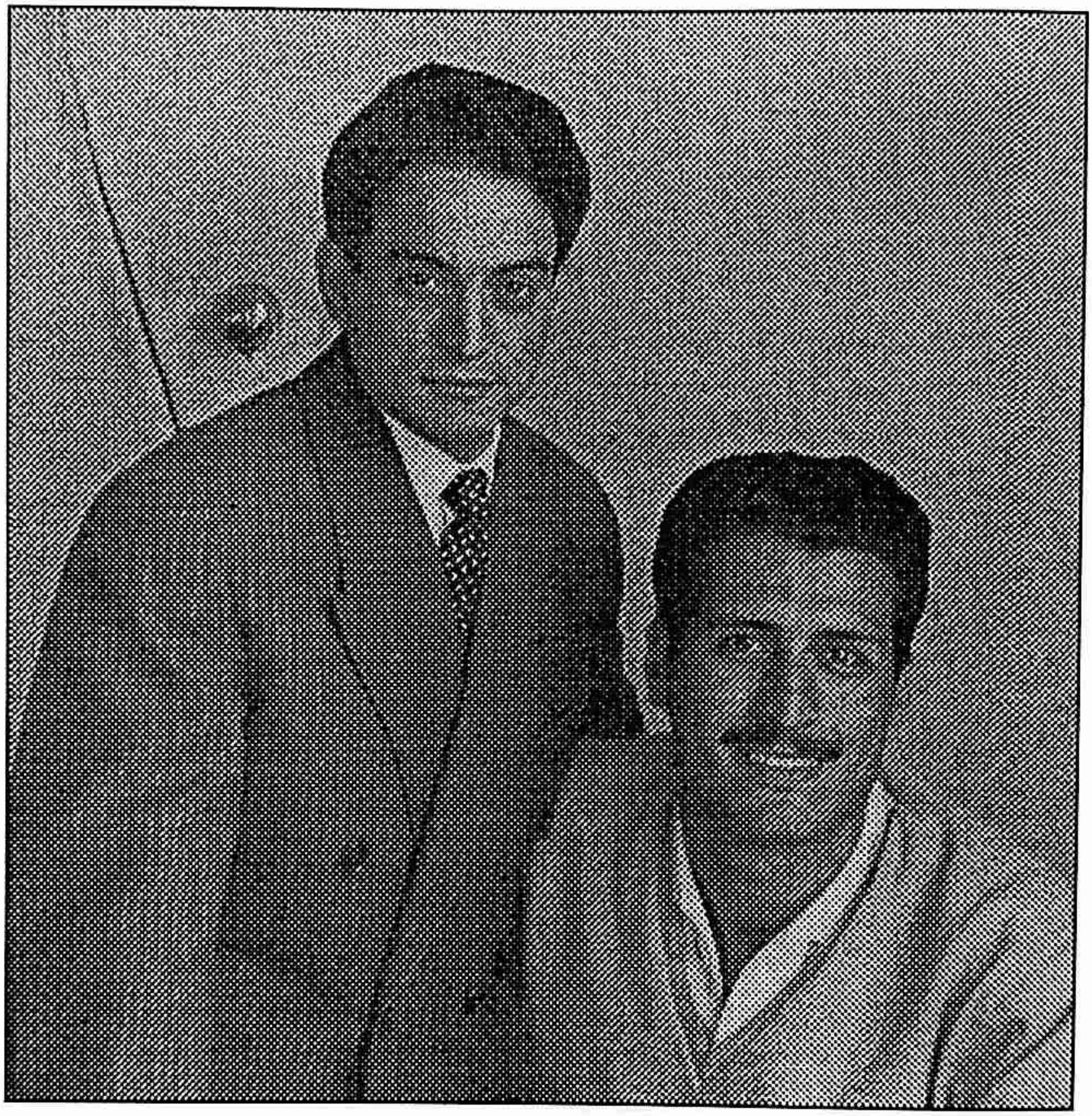
سجن «لاسانتي»، باريس 1958. من اليسار إلى اليمين:
مصطفى الأشرف، أحمد طالب الإبراهيمي، محمد بوضياف



سجن «لاسانتي»، باريس 1958. من اليسار إلى اليمين:
أحمد طالب الإبراهيمي ومحمد خيضر، في الخلف محمد لبجاوي وأحمد بن بلة



سجن «فران»، باريس 1960، من اليسار إلى اليمين:
عمار أوزڤان، حسين آيت أحمد، أحمد طالب الإبراهيمي



سجن «فران»، باريس 1960، من اليسار إلى اليمين:

أحمد دوم، أحمد طالب الإبراهيمي

# هوامش الفصل الخامس

(1) نائب عمالة، يعني نائب محافظ. فالعَمَالة هي الولاية أو المحافظة.

(2) علي شكّال أحد الجزائريين الذين وضعوا أنفسهم في خدمة فرنسا، فاستعملته في دعايتها زاعمة أنه يمثل نسبة من الجزائريين، وأن الجزائريين ليسوا مجمعين على تمثيل جبهة التحرير لهم. وقد أحضرته إلى الأمم المتحدة للترويج لتلك الدعاية.

(3) ثلاث عَمَالاَت مفردها عَمَالَة، وهي المحافظة أو الولاية، وكان شمال الجزائر مقسماً إدارياً إلى ثلاث عَمَالاَت هي قسنطينة، والجزائر، ووهران، وأما الجنوب فكان يحكم عسكرياً.

(4) «يوم الطماطم» زار رئيس الوزراء الفرنسي غِي مُولِي الجزائر، وكان قد طرح اقتراحات لا تلبي طموح الجزائريين لحل القضية الجزائرية، وبرغم ذلك لم تُعْجِب الكولون الفرنسيين، فقابلوه بمظاهرة وقذفوه بالطماطم والبيض.

(5) انقلاب الجنرالات في ماي 58: هو الانقلاب الذي جاء بالجنرال ديغول إلى الحكم.

(6) قضية سي صالح: هو صالح زعموم، قائد الولاية الرابعة، الذي استطاع ديغول الاتصال به عن طريق وسطاء، في محاولة منه لشق

صف الجزائريين، وقد استقبل ديغول صالح زعموم في قصر الإيليزيه في باريس في 10 يونيه 1960. وقد حُوكم صالح زعموم في تونس وأعدم لاتصاله بالعدو، والتفاوض معه بدون إذن القيادة.

(7) «مصير الصحراء» كانت فرنسا عندما تبين لها أنه لا بدَّ من الاعتراف بحق الجزائريين في استعادة استقلالهم؛ كانت تجتهد لفصل الصحراء عن الجزائر، خاصة بعد ما ظهر البترول.

(8) «مشروع قسنطينة»، أو «مخطط قسنطينة»، أعلن عنه الجنرال ديغول من قسنطينة في أكتوبر 1958، لتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للجزائريين لعزلهم عن الثورة، وإضعاف قيادتها.

(9) مظاهرات 11 ديسمبر 1960. مظاهرات سلمية، خرج فيها الجزائريون للتعبير عن ولائهم للثورة، ومطالبتهم بحقهم في الحرية، وقد جرت هذه المظاهرات عندما كان ديغول يزور الجزائر، فتأكد أن الجزائريين من الغرب إلى الشرق مُوَالُون ومؤيدون لقادتهم، وتبين زيف التقارير الفرنسية التي تُوهِمُه بأن الجزائريين غير مؤيدين للثورة وقيادتها.

(10) انقلاب الجنرالات: هذا الانقلاب كان ضد الجنرال ديغول الذي اضطر تحت صمود الجزائريين أن يجنح إلى المفاوضات معهم. والجنرالات هم راؤول صالان، وموريس شال، وإدمون جوهو، وأندري زيلر. والمحاولة الانقلابية كانت في أفريل 1961.

(11) منظمة الجيش السري، (O.A.S) منظمة إرهابية مسلحة أسسها في 1960 غلاة الفرنسيين المؤمنون بخرافة «الجزائر الفرنسية». وقد رفضت إجراء السلطات الفرنسية المفاوضات مع الحكومة الجزائرية.

(12) الأقدام السوداء: هم الفرنسيون المقيمون بالجزائر.

(13) «بني وِي وي» أي أبناء نعم. نعم. عبارة أطلقها الجزائريون على

أَرَاذِلهم الذين ركنوا إلى فرنسا، ويُلَبُّون لها كل ما تطلبه.

(14) انظر: الملحق 4.

(15) أحمد طالب الإبراهيمي: «رسائل من السجن»، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1966، والترجمة العربية تونس 1969.

(16) Tasso Torquato، كبير شعراء إيطاليا (1544 ـ 1595) في أواخر عصر النهضة.

# 6

# من الخروج من السجن إلى إعلان الاستقلال

## (سبتمبر 1961 ـ ديسمبر 1962)

## تونس ـ الرباط ـ نيويورك ـ القاهرة ـ لوزان ـ الجزائر العاصمة

في الثامن من شهر سبتمبر، وبعد أربع سنوات، وستة شهور وعشرة إيام من السجن، أخلي سبيلي لأسباب صحية على أن أوضع تحت الإقامة الجبرية في مدينة بواتيي. لقد قضيت أول يوم لي كرجل حر برفقة كل من شقيقي، وصديقي عبد الحرمان حاجي، ومحاميتي الأستاذة ميشال بوفيلار (Michelle Beauvillard). في اليوم الموالي، وبدل أن أتجه إلى بواتيي كما كان مقرّراً، تكفلت بي شبكات الدعم التابعة لجبهة التحرير الوطني التي تأكدتُ من خلال مرافقتها لي من فعاليتها ودرجة تنظيمها العالية.

بعد قضاء بضعة أيام في «مخبإ» بفرنسا، نقلت، يوم 14 ستمبر، إلى بروكسيل. كانت السيارة المقلة لي مسبوقة بسيارة أخرى كان عليها العودة أدراجها في حالة اكتشافها لمركز مراقبة أو تلقيها أي إنذار بوجود كمين محتمل. وعند وصولنا إلى الحدود البلجيكية، تفرقنا وعبرت الحدود راجلاً مصحوباً بدليل قبل أن نستقل السيارة

نفسها. وبعد ثلاث ليال قضيناها بالعاصمة البلجيكية، أو بالأحرى بشقة بهذه المدينة، عبرت الحدود الألمانية بالطريقة نفسها، لكن بصحبة فريق آخر. في 18 سبتمبر، بلغت مدينة دوسلدورف حيث استقبلني عمر بوداود وقدّور العدلاني - وهما عضوان في قيادة فيدرالية جبهة التحرير التي خلفتنا بعد إلقاء القبض علينا يوم 26 فبراير 1957، وفضلت الإقامة بألمانيا - وقد أطلعني الأخوان على آخر التطورات السياسية من دون أن يخفيا عنّي ميلهما إلى تأييد الحكومة المؤقتة في الصراع الدائر بينها وبين قيادة الأركان العامة.

في 26 سبتمبر، غادرت كولونيا، وبحوزتي الوثائق اللازمة، على متن القطار المتوجه نحو جنيف حيث استقبلني بحفاوة رئيس الهلال الأحمر الجزائري، الدكتور جيلالي بن تهامي، وكان في غاية الكياسة واللطف. غير أنه سرعان ما دبّ القلق في نفسي وأنا أحس أن الّذين حولي يشعرونني بتصرفاتهم المتكلفة كأنه لم يبق لي في الحياة إلا أيام معدودات.

في الفاتح من أكتوبر، طرت إلى تونس حيث كان أهلي في انتظاري بعد أن قدموا من القاهرة لاستقبالي واستأجروا منزلاً بحي مونفلوري (Montfleury). قضيت هناك شهراً رائعاً حتى وإن كان كل من حولي يحثني على الاهتمام بصحتي قبل أي شيء آخر. لقد شعرت بالسعادة وأنا أجد نفسي في حضن العائلة من جديد. كانت والدتي مثلما عهدتها من قبل، أما والدي فقد كان متعباً جراء حادث كسر تعرض له بباكستان. وقد بدا لي كأنه سئم الحياة ولم يعد ينتظر منها شيئاً ما عدا العودة في أقرب وقت إلى الوطن للإخلاد إلى الراحة الأبدية. كان يتحدث إلي بنوع من التجرد عن تلك السنوات الطوال

من الفرقة، وعن المتاعب التي لقيها مع الحكومة المصرية، وعن العلاقات الجيدة التي كانت له مع بعض الأعضاء في الحكومة المؤقتة، لا سيما الدكتور أمين الدباغين بفضل معرفة قديمة وكريم بلقاسم الذي كان يفيده، بانتظام، بمعلومات عن نشاطات الحكومة المؤقتة وتطور المفاوضات مع فرنسا وكذا عن مختلف المهام التي كان يكلّف بها عبر العالم. لكن حتى وإن كان التعب الجسدي بادياً على والدي، إلا أنني سرعان ما لاحظت أن معنوياته بقيت مرتفعة. ولا أدل على ذلك من الطريقة التي رأيته يخاطب بها مبعوث الرئيس التونسي، السيد ترزي، الذي جاء ليقدم له الاعتذار على الطريقة غير اللائقة التي عومل بها والدي عند وصوله الحدود الليبية التونسية قادماً من القاهرة برّاً، ورفض والدي الدعوة التي وجهها له الرئيس بورقيبة الذي كان يأمل استقباله بصحبة صديقه مفتي القدس الحاج أمين الحسيني.

وأنا سعيد بالعودة إلى الحياة العائلية ومنشغل بحالتي الصحية في صمت، لم أعر اهتماماً كافياً للجو السائد آنذاك في أوساط الجزائريين المقيمين بتونس. ومع ذلك، كنت ألاحظ، بما لا يدع أي مجال للشك، كم كانت هذه الأوساط تتشدق بعبارات جوفاء تنم في واقع الأمر عن تسبيق المصلحة الخاصة وبروز نزعة فردانية لا تحدها حدود. وطالما تساءلت عما إذا لم تكن الأخوة في السلاح آيلة إلى الزوال بمجرد سكوت الرصاص، إذ وعلى عكس آمال شهدائنا، سرعان ما عادت الروح الحزبية إلى الظهور من جديد، وزالت معها تلك الوحدة التي أمكن الحفاظ عليها في كل الأحوال، أثناء سنوات الكفاح المسلح السبع. كنت أقول في نفسي إن شعبنا لا يختلف عن الشعوب الأخرى، ومن سخرية القدر أن نجد في هذه الحالة من ينتقد

بحدة ما يسمى بـ«الأمراض الطفولية للاستقلال» التي ظهرت في التجربتين التونسية والمغربية. كنت أستشف من خلال اقتراب موعد العودة إلى أرض الوطن صدوعاً شتى، مندهشاً لتلك القدرة على نسيان الشهداء، سواء لدى العامة من الناس أو لدى رجال الحكومة.

على مستوى الدولة، لم تكن الأمور بأحسن حال حيث لم أكن أرى ذلك الرجل الجديد الذي صنعته الثورة، وكنت أستقبل رفاقاً عرفتهم في السابق معرفة جيدة إلا أنني وجدتهم قد تغيروا، وكأن لا عهد لي بهم. كانت التحالفات تعقد وينفرط عقدها بحسب القرابات الجهوية والمصالح الضيقة سواء كانت حزبية أو قبلية. وكان السباق على أشده للظفر بمناصب الشرف والامتيازات، فما كان لي إلا أن أتساءل: أين هي النخب التي يفترض أنها انصهرت في بوتقة الثورة؟.

كنت ألتقي أصدقاء قدماء في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وكان حفيظ كرمان هو الذي عرض علي المساعدة في إيجاد سبيلي في تلك المتاهة التونسية. لقد خصصت أولى زياراتي لعبد الحميد مهري الذي كانت تجمعني به مراسلات عندما كنتُ في فيدرالية جبهة التحرير لفرنسا، ثم اقترح علي حفيظ لقاء أعضاء الحكومة المؤقتة، بدءاً بِـ بَنْ يوسف بن خدة المعيّن منذ وقت قصير على رأس الحكومة خلفاً لفرحات عباس، غير أن الزيارة لم تتعد حدود المجاملة. أما لقائي بالأخضر بن طوبال، فلم يكن إلا عبارة عن استماع لخطاب مليء بالطرائف المتصلة بالفترة التي قضاها بجبال الشمال القسنطيني من دون الإشارة، ولو بكلمة، إلى حاضر الشعب وهمومه ولا إلى المستقبل وما كان يثيره من مخاوف.

أما المسؤول الذي كنت ألتقيه أكثر من غيره بواسطة محمد

طربوش، رفيقي السابق في السجن، فهو كريم بلقاسم لأنه، من ناحية، كان وزيراً للخارجية لفترة طويلة وكان لديه الكثير مما يمكن أن يقوله في ما يخص المحادثات مع فرنسا، ولأنه، من ناحية ثانية، هو الذي تكفل بملفي الطبي، وتحديد مكان معالجتي، كان هناك تردد بين إرسالي إلى الاتحاد السوفييتي أو الولايات المتحدة الأمريكية، وكل خيار كان له من يؤيده. غير أن كريم بلقاسم حسم الأمر بعد استشارة فرانز فانون الذي نصح بالخيار الثاني ربما بسبب سوء الانطباع الذي حصل له بشأن الطب السوفييتي أثناء وجوده بموسكو للعلاج من مرض اللوكيمياء؛ وهكذا تم إرسالي إلى الولايات المتحدة الأمريكية في نيويورك. وسعياً منه لشفع منفعة بمنفعة ثانية، طلب مني كريم اغتنام فرصة وجودي بهذا البلد للانضمام إلى الوفد الرسمي للحكومة المؤقتة المكلف بالدفاع عن الملف الجزائري أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة.

*****

في أوائل شهر نوفمبر، قمت بزيارة إلى المغرب إذ كان يجب علي أن ألتقي شقيقي الذي لجأ هناك منذ تفجير محله التجاري بوهران من طرف منظمة الجيش السري، وكذا عمتي رفقة إحدى بناتها. وقد بدا لي عدد الجزائريين المقيمين بالمغرب أقل منه بتونس، كما بدا لي هؤلاء أكثر تنظيماً وأقل كلاماً.

بعد الزيارات العائلية، سعدت بلقاء رفيق سابق لي في السجن استقبلني بحفاوة الأخ بأخيه، ألا وهو فضيل بن سالم الذي أحدث هروبه من سجن فران الفرنسي ضجة إعلامية كبيرة ثم صار مسؤولاً

عن فيدرالية جبهة التحرير الوطني بالمغرب. كما التقيت الشيخ خير الدين والدكتور شوقي مصطفاي، اللذين يمثلان الحكومة المؤقتة بالمغرب. لقد أشار علي شقيقي ـ الذي أخبرني أن فرحات عباس استقر به المقام مؤخراً بمدينة الرباط ـ لزيارة هذا الأخير، ليس فقط تقديراً للروابط التي كانت تربطه بالوالد منذ سجنهما من طرف إدارة الاحتلال أثناء حوادث 8 ماي 1945، وإنما أيضاً نظراً لحالته النفسية منذ إقالته.

لم يمر إلا وقت قصير بعد وصولنا إلى منزل فرحات عباس حتى أخذت زوجته ترينا صوراً لآخر لقاء لنا بمدينة بيرن سنة 1956. في تلك الزيارة، التقينا قايد أحمد[1] الذي أراه لأول مرة والذي غادر المنزل عند وصولنا، وسرعان ما هاجت نفس فرحات عباس وأخذ يصب جام غضبه على «الباءات الثلاثة» (بلقاسم كريم، وبن طوبال لخضر، وبوصوف عبد الحفيظ)[2]. ثم بدأ يشتكي من إقالته بغير وجه حق في صالح بن خدة ليمر مباشرة إلى طرح هذا السؤال عليّ: «ما رأيك في «الخمسة» أنت الذي عشت معهم في السجن؟»، فما كان لي إلا أن أجيبه أنه لم يكن من اللائق في ظل المرحلة الحساسة التي كنا نعيشها، لا إظهار «الثلاثة» بمظهر الشياطين، ولا إظهار «الخمسة» بمظهر الملائكة انطلاقاً من أن لكل محاسنه ومساوئه. ثم أنّى لنا أن نعرف أن «الخمسة» لو لم يقم الفرنسيون بإبعادهم من الحلبة لم يكونوا ليتصرفوا بالطريقة نفسها التي تصرف بها «الثلاثة». وختمت كلامي بقولي: في ظل المرحلة النهائية من الكفاح، ومهما يكن الأمر، نحن في حاجة إلى لقاء الفريقين معاً. بعد سماع رأيي، اتهمني فرحات عباس بـ«الانحياز» وأوقف المقابلة بهذه اللهجة القطعية: «كيفما سيكون الأمر سأضع نفسي تحت تصرف بن بلة»، فاندهشت

لأن عباس، على الرغم من الاعتدال المشهود له به، لم يستطع أن يبتعد عن الخصومات الشخصية ويسمو بنفسه فوقها.

*****

غادرت الرباط متوجهاً إلى لاهاي، بعد توقف قصير بأمستردام، بغرض تقديم شكري لقادة الـ COSEC(3) الذين ظلوا مهتمين بحالتي الصحية إلى حد عرض التكفّل بمعالجتي بالولايات المتحدة الأمريكية.

بعد ذلك، حطت بي الرحال بنيويورك في شهر نوفمبر 1961 وتصادف ذلك مع بداية عقد الدورة السنوية للجمعية العامة للأمم المتحدة.

فور وصولي، تعرفت على أعضاء الوفد الرسمي للحكومة المؤقتة، وهم أمحمد يزيد رئيس الوفد، وعبد القادر شندرلي الذي كان يقود، بكفاءة، مكتب جبهة التحرير الوطني بنيويورك ويسهر على تكوين دبلوماسيي جزائر الغد، من بينهم محمد سحنون، ورؤوف بوجقجي، ولخضر إبراهيمي. لقد أحسست بالغربة هناك غير أن شندرلي عمل كل ما في وسعه لتعويدي على الجو السائد.

بعد فحص طبي (biopsie)، تأكد لدى الأطباء الأمريكيين أنني لم أكن مصاباً بمرض Recklinghausen. وإنما الأمر كان يتعلق بورم غير خبيث، فتنفست الصعداء، واحتفاء بهذه المناسبة السعيدة، أقيمت مأدبة عشاء بمنزل شندرلي دعي إليها كافة أعضاء الوفد وأظهر أمحمد يزيد فيها براعته في فن الطبخ.

في تلك الليلة، استسلمت للنوم كما لم أنم أبداً من قبل.

ونتيجة لشعوري بالارتياح حول حالتي الصحية، بعد ما زال كابوس المرض الخبيث قبلت عرض كل من بوجقجي لاكتشاف معالم مدينة نيويورك ونصبها التذكارية، وسحنون الذي دعاني لزيارة غرينويتش فيلج Greenwich Vilage حيث قدمني إلى جامعيين أمريكيين.

إن مشاهدة تمثال الحرية لم تستطع أن تحجب عني رؤية غيتوهات هارلام ـ ولم تكن بأحسن حالاً من محتشدات العالم الثالث ـ قبالة وال ستريت، رمز الرأسمالية المتغطرسة. إنني والحق يقال شعرت بالاختناق في نيويورك، تلك المدينة التي لا جذور لها وحيث كل شيء يتسم بالضخامة. لقد كنت أشعر كأن ناطحات السحاب كانت تسحقني وتمنعني من رؤية السماء إلا قليلاً (كماكان الحال في «فناء» سجن لاسانتي الذي قضيت به أزيد من أربع سنوات) وكأنها تمنع الإنسان من الاتصال بالسماء. ومن ناحية أخرى، بدا لي غرينويتش فيلج كأنه لم يكن إلا رد فعل على ذلك الطابع غير الإنساني لنيويورك، في محاولة لخلق صورة باهتة لحي سان جارمان دي بري الباريسي.

كنا كل صباح نجتمع بالمكتب حيث كان أمحمد يزيد، بِخفَّتِهِ المعهودة وروح النكتة لديه، يوافينا بأخبار عن اتصالاته برؤساء الوفود. أما شندرلي، فكان يقوم بتوزيع المهام. بعد ذلك، نلتحق بمقر الأمم المتحدة حيث كانت الجزائر تتمتع بوضع الملاحظ. كان هناك فنانون مشهورون، من أمثال هاري بيلافونتي، يأتوننا للتعبير عن تأييدهم لقضية استقلال بلادنا ويأخذون صوراً تذكارية معنا. لقد ارتفع عدد البلدان المؤيدة لقضيتنا في تلك السنة بحيث كان رؤساء الوفود يطلبون منا، ليس فقط معلومات أو أفكاراً أو حججاً للدفاع عن هذه

القضية، وإنما حتى القيام بتحرير إما الفقرات المخصصة للجزائر في خطابهم أو كتابة الخطاب بكامله لقراءته أمام الجمعية العامة، مثلما كان الشأن مع المصري عمر لطفي أو النيجيري جارماكوي. لقد كانت مثل هذه الثقة تدغدغ لدينا حب الذات، غير أنها كانت تحثنا على بذل المزيد من الجهد. ثم إنني كنت معتزاً أيّما اعتزاز وأنا أرى ممثلنا بنيويورك، عبد القادر شندرلي يحظى باحترام الجميع إلى درجة أنه عندما يدخل المطعم كان يو ثانت الأمين العام للأمم المتحدة يقف لتحيته إجلالاً له.

لم يكن هناك أدنى شك في أن منبر الأمم المتحدة كان يمثل فرصة ثمينة للتمرس على فن الخطابة. بطبيعة الحال، لم تكن هناك لا بلاغة الإغريق ولا بيان شيشرون ولا فصاحة خطباء العرب، لكن قلَّ ما تجد شخصاً لم يعجب بفن الخطابة لدى ممثل المملكة العربية السعودية، الفلسطيني أحمد الشقيري الذي كان الكثير يعتبرونه أفصح خطيب. لقد كنا نشعر بمتعة كبيرة ونحن نستمع إليه متحدثاً بلغة إنجليزية بليغة وهو يخوض مرتجلاً في كل ما كان يختلج في صدره، ابتداء بالقضية الفلسطينية وانتهاء باستقلال الجزائر.

ومن ناحية ثانية، وأنا أستمع إلى بعض ممثلي القوى العظمى، كانت تحضرني كلمة قالها نابوليون: «الدبلوماسية، إنها الشرطة بلباس أنيق». وفي ما يخص الولايات المتحدة الأمريكية، فإن الموقف الذي وقفه جون ف. كينيدي سنة 1957 ـ كسيناتور قبل أن يصير رئيساً ـ حببه إلى أنفسنا إلى درجة أنني في إحدى «رسائل من السجن» تحدثت عن «تلك البارقة القادمة من الغرب».

بعد مغادرتي لأصدقائي في المكتب ومقر الأمم المتحدة، كان

الحدس يوحي لي بأنه سيتم قبول الجزائر رسمياً، في غضون السنة المقبلة، في منظمة الأمم المتحدة وسترفرف رايتها خفاقة إلى جانب رايات الدول الأعضاء الأخرى.

*****

في مطلع سنة 1962 حين كان الكل متفقاً على أنها ستكون سنة الاستقلال، غادرت نيويورك في اتجاه تونس عبر جنيف. وفور وصولي، قدمت عرضاً عن مهمتي لكريم بلقاسم الذي أعرب، في حضور طربوش، عن رغبته في الاحتفاظ بي في تونس. غير أنني شرحت له أنني في حاجة إلى مراجعة النفس باستئناف ممارسة الطب والانغماس في الحياة العائلية.

في 17 جانفي، التحقت بأهلي بالقاهرة حيث كانوا مقيمين منذ التحاق والدتي بزوجها سنة 1957. أمضيت ليلة في الاستماع إلى والدتي وهي تسردعلي وقائع ما قاسته بالجزائر العاصمة أثناء سنوات الفرقة، لا سيما بعد إلقاء القبض علي وتفتيش منزلنا بحي القبة من طرف المظليين الفرنسيين المرفقين بكلابهم البوليسية، وكذا المعاملة السيئة التي عاملوا بها أقاربنا، وما كسروه وما نهبوه. ثم أردفت أنها لم تيأس أبداً وأنني كنت دائماً حاضراً في دعواتها. وقد اعترفت لها أنني كنت، من جهتي، أخشى من فقدانها وفقدان والدي. وعندما افترقنا عند الفجر، قالت بشيء من الإلحاح: «الآن وقد بلغت سن الثلاثين، والجزائر على وشك انتزاع استقلالها، سنعود إلى أرض الوطن، إن شاء الله. لقد حان وقت الجدّ والمسؤوليات». لكن كيف كان بإمكاني أن أشرح لها، وأنا على عتبة حياة الكهولة، أن شبابي لم

يعرف غير الأخطار والمسؤوليات. غير أنني أدركت أنها كانت تلمح إلى أن الوقت قد حان للزواج.

أما والدي، فلم يصدر أي حكم ولم يلمح بأي مشروع. كانت تكفيه سعادة عودتي إلى حضن العائلة، كما كان مبتهجاً بتقديمي إلى أصدقائه الآتين لتهنئته بإطلاق سراحي. كان يستقبلهم بمكتبته التي استطاع أن يعيد تشكيلها من جديد. من بين هؤلاء كان هناك أردنيان مواضبان على زيارته، هما عبد اللّٰه التل، قائد سابق في المقاومة الفلسطينية في 1948، والشيخ فهمي هاشم، قاض سابق بالعاصمة الأردنية عمان، ومحمد علي الحوماني، الشاعر اللبناني الموهوب. كما كان هناك مصريان أحدهما اللواء صالح حرب، رئيس جمعية «الشبان المسلمين» ومساعده أحمد الشرباصي الذي كان ينهل بحذق من كلام والدي ما يستعمله في كتاباته المستقبلية. أضف إلى ذلك كلا من المعارض التونسي صالح بن يوسف مرفوقاً بزوجته وأحياناً بمعاونه عبد العزيز شوشان، ومن بين الملازمين لوالدي الشيخ محمد سرور الصبّان، وهو عالم متواضع ونصير للعلم والعلماء، يجل والدي إجلال الولد لأبيه إلى درجة أنه وضع منزله تحت تصرفه.

الجزائريون، هم أيضاً، كانوا يترددون على والدي بمنزله الكائن بهيليوبوليس، منهم موظفون لدى البعثة الجزائرية بمصر، وأعضاء الحكومة المؤقتة المارون بالقاهرة، وطلبة مختلف البعثات الذين أوفدتهم جمعية العلماء، ومن بينهم محمد خمار الذي كنت قد عرفته بدمشق سنة 1954، وكان قد أنهى دراسته بالقاهرة للحصول على شهادة ليسانس في علم الاجتماع، كما تعرفت على عبد العزيز

بن حَسين، دبلوماسي بالبعثة، وكان متقناً للغتين العربية والفرنسية غاية الاتقان ويتميز بذكاء حاد لا يخلو من روح النكتة.

كما التقيت أحمد توفيق المدني، الأمين العام السابق لجمعية العلماء وكان آنذاك نائب ممثل الحكومة المؤقتة لدى الجامعة العربية. وقد اغتنمت فرصة لقائنا لأفرغ جام سخطي أمامه قائلاً له: «إنني حزنت أيَّما حزن عندما علمت أن بعضاً من مثقفينا (أو بالأحرى أصحاب الشهادات) كانوا مسرورين جداً لخدمة مسؤولين أميين كما لو أن حمل السلاح وحده كان كافياً لمنح الحق في قيادة الجزائر». ثم أردفت: «كان عليك أن تحترم اسمك أو على الأقل الجمعية التي أوصلتك إلى تبوء منصب في المجلس الوطني للثورة الجزائرية». ومن دون أن يحرك ساكناً، أجابني أنه يعتبر نفسه دائماً جندياً ينفذ أوامر، فما كان لي إلا أن أرد عليه أن هذا النوع من التصرف، المنتشر مع الأسف في صفوفنا، لا يمكن إلا أن يقوي تلك النزعة السلبية التي ميزت ثورتنا تجاه المثقفين، بل إنه يمثل إحدى نقاطها السوداء. وبعد ما انصرف، لامني والدي على قساوتي تجاه ضيف في بيتنا، وعلاوة على ذلك يكبرني سناً. وفي اليوم الموالي، سارعت إلى مكتبه معتذراً له على ما بدر مني مؤكداً له في الوقت نفسه أنني أبقى متمسكاً برأيي من حيث الجوهر.

أما مع خمار، فقد استطعت، بفضله، أن أعيد صلتي بأحياء تلك المدينة المتشعّبة. وكما قال الكاتب الفرنسي فلوبير قبل نحو قرن: «القاهرة مدينة لا تنضب!» إلا أن الناس الذين كان يصفهم بَقُوا على حالتهم تقريباً «لا يبالون بشيء، يعيشون حياة التسكع والكسل، كثيرو الكلام، مرحون، يعشقون الهزل والتقنع والمواكب».

وأما بن حَسين، فكان يرافقني إلى المكتبة الوطنية حيث كنا نتمتع بالاطلاع على سلسلة المخطوطات والمنشورات الجميلة لدار الكتب. وذات يوم، اقترح علي حضور جلسة من جلسات قصر العدالة بالقاهرة المخصصة لمحاكمة «جواسيس فرنسيين». وعلى الرغم من الهوة التي تفصل بيننا وبين الفرنسيين، لم أطق رؤية أندري ميكال André Miquel، وكان مستعرباً ممتازاً، وهو في قفص الاتهام.

وصممتُ على زيارة الأب جورج قنواتي الذي قرأت له في السجن كتاب «مقدمة في علم اللاهوت الإسلامي» وهو مدير معهد الدومنيكان للدراسات الشرقية، وقد استقبلني بحفاوة وعرّفني بمكتبة المعهد التي تعدّ من أثرى مكتبات العالم العربي.

*****

أثناء الأشهر الثلاثة التي قضيتها بالقاهرة، (من 17 جانفي إلى 15 أفريل 1962)، ظل كافة الجزائريين يتابعون باهتمام كبير كل ما يدور في بلادهم من أحداث. غير أن الفرحة بقرب موعد الخلاص شابتها جرائم منظمة الجيش السري الإرهابية التي زرعت الرعب في الجزائر وأشاعت الخوف في فرنسا. ومن سخريات القدر أنه في الوقت الذي هبّ فيه الشعب الفرنسي في مظاهرات بالقرب من ميترو شارون احتجاجاً على استمرار الحرب، وفي الوقت الذي يلتقي فيه من جديد مفاوضون جزائريون وفرنسيون بـ Les Rousses في شهر فيفري، تُقدم المنظمة المذكورة على إبادة أكبر عدد من المسلمين. وقد بلغ بها الأمر حد الاعتداء على الخادمات المنزليات («تلنيش الفاطمات» «Le lynchage des fatmas»). في الشهر الموالي، لم يؤد

التوقيع على اتفاقيات إيفيان، وإعلان وقف إطلاق النار، وإنشاء الهيأة التنفيذية المؤقتة[4] بروشي نوار ـ بومرداس حالياً ـ (المحطات الثلاث قبل الاستقلال) إلا إلى المزيد من أعمال الإرهاب والتقتيل من طرف منظمة الجيش السري التي انتهجت استراتيجية مكشوفة متمثلة في حرمان الجزائر المستقلة من الاستفادة من إسهام الأقدام السوداء، ومن إطاراتها الوطنية ومن المنشآت التحتية المتوفرة. إنها سياسة الأرض المحروقة التي بلغت أوجها بحرق مكتبة جامعة الجزائر.

*****

في 12 مارس 1962، استُقبل والدي رسمياً بوصفه عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وطُلِبَ منه إلقاء كلمة خلال الحفل باسم الأعضاء الجدد غير المصريين. لقد كان يوماً عظيماً لي ولبن حسين وخمار رافقنا فيه والدي، الذي قدم لنا بعض كبار الشخصيات الشهيرة من أمثال المصريين عبّاس محمود العقاد، وأحمد حسن الزيات، وأمين الخولي، وثروت عكاشة، وعبد الرحمان الرافعي، وكذا التونسيين حسن حسني عبد الوهاب والفاضل بن عاشور، والمغربي عبد اللّه قنون، والعراقي محمد رضا الشبيبي، وغيرهم. في السيرة الذاتية التي كتبها والدي بطلب من المجمع، اكتشفت حلقات من حياته كنت أجهلها تماماً. ولعل ما حز في نفسي في هذه المناسبة السعيدة هو أنني لم ألمس في الخطاب الذي ألقاه والدي ذلك الصوت الجهوري، وتلك الفصاحة المتميزة، وتلك السهولة في الارتجال التي عهدتها فيه. إن حزن المرء لشديد وهو يرى عزيزاً عليه تخور قواه تدريجياً تحت وطأة الشيخوخة الزاحفة.

كان والدي يفضل قضاء أوقات فراغه في جمع وترتيب أحسن الافتتاحيات التي كتبها في جريدة «البصائر»، ثم يأخذ في تصحيح الكتاب الذي يضمها[5] قبل نشره في «دار المعارف» الشهيرة.

*****

في الفاتح من أفريل 1962، غادر «القادة الخمسة» السجن متوجهين إلى القاهرة بعد جولة في كلّ من المغرب وتونس، وكما كان الشأن في هذين البلدين الشقيقين، فإن مصر، هي الأخرى، استقبلتهم بحفاوة منقطعة النظير. كنت مع والدي في انتظارهم بمطار القاهرة وكان اللقاء حاراً، غير أننا استغربنا غياب واحد من «الخمسة»، وهو محمد بوضياف. لقد كان ذلك علامة على أن الصراع من أجل الحكم يزداد حدة كلما اقترب إعلان الاستقلال.

أما فيما يخصني، فقد شرحت لوالدي حاجتي الملحة إلى إنهاء رسالة الدكتوراه في الطب كي أباشر حياتي المهنية في الوطن والشهادة في جيبي. وكان أقرب بلد فرنكوفوني والأكثر ترحاباً بالنسبة إلي هو سويسرا بالتأكيد.

في 15 أفريل، غادرت القاهرة بنية الاتجاه إلى سويسرا معرجاً على بيروت بدعوة من صديقي مسعود آيت شعلال الذي تولى من بعدي رئاسة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. وكان قد زارني بسجن لاسانتي ولم ينقطع أبداً عن مراسلتي أثناء سنوات اعتقالي. في تلك الفترة، كان على رأس بعثة الحكومة المؤقتة ببيروت. وبعدما استعدنا ذكرياتنا معاً بـ115 شارع سان ميشال الباريسي، حدثني عن أنشطة الاتحاد الطلابي منذ إلقاء القبض علي ثم

أسر إلي بمخاوفه من «مناوشات القمة». وعندما أخبرته برغبتي في الرجوع إلى الوسط الطبي، وفي سويسرا هذه المرة، نصحني بالإقامة في مدينة لوزان لأنها تأوي العدد الأكبر من الطلبة الجزائريين.

****

عملت بهذه النصيحة فاستقر بي المقام في 20 أفريل بلوزان حيث قضيت نحو ثلاثة أشهر تقريباً. كنت أتوجه إلى مستشفى المقاطعة كل صباح حرصاً مني على حضور الفحوص التي كانت تُجرى بمصلحة الأستاذ فانوتي. خلال وجودي هناك ربطتني صداقة قوية مع طالبين جزائريين اثنين هما عبد النور ياكر الذي أنهى دراساته الطبية وإبراهيم حسب اللاوي الذي كان يتابع دراساته بالمدرسة المتعددة التقنيات Ecole Polytechique.

كنا مقيمين بلوزان، متأرجحين بين فرحة العودة إلى أرض الوطن والخوف من انفجار جبهة التحرير الوطني. كانت هناك شائعات ملحة عن نشوب خلافات بين الحكومة المؤقتة وقيادة هيئة الأركان. كما كانت هناك أخبار غامضة تصلنا عن اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في شهر جوان بطرابلس (ليبيا) وتفيد بانتهاء أشغاله بصفة غير عادية بعد ما اتفق الحاضرون بالإجماع عل مضمون الأرضية السياسية واختلفوا في اختيار أعضاء المكتب السياسي. كما بلغنا أن الأمر بين بن بلة وبن خدة وصل حد الاشتباك بالأيدي. لكم كانت النهاية حزينة وأبعد مما تكون مبشرة بالخير!.

لقد فتحت الاتفاقيات الشجاعة التي أبرمت بين مصطفاي ممثّل الهيئة التنفيذية «لروشي نوار» وسوزيني ممثّل منظمة الجيش السري

الإرهابية، على الرغم من تأخرها، أفقاً للمصالحة. إلا أن الجنون القاتل الذي ميز تصرف منظمة الجيش السري عجل بهجرة الأوروبيين، كما تسبب في قتل مسلمين وتدمير مؤسسات تربوية واستشفائية، وغيرها. وفي أواخر جوان، انكشفت خلافات القمة في جبهة وجيش التحرير للرأي العام بعدما أعلن خيضر استقالته من الحكومة متبوعة بإقالة الحكومة المؤقتة لهيئة الأركان العامة(6).

*****

والدي ذاته لم يسلم من المناورات في تلك الصائفة من سنة 1962. وقد علمت من خلال رسالة بعث بها إلي من القاهرة أن مسؤولين من المخابرات المصرية (وهما فتحي الذيب وعزت سليمان) زاراه في بيته ليقولا له ما معناه: «إن الرئيس عبد الناصر يضع تحت تصرفكم طائرة خاصة ستقلكم إلى المغرب حيث يوجد بن بلة، ومن هناك ستدخلان الجزائر معاً على متن سيارة مكشوفة تنقلكما من وجدة إلى تلمسان». رفض والدي العرض برفق قائلاً: «بما أن جميع أطراف هذه الأزمة الجزائرية أبنائي، لا يمكنني أن أؤيد هذا أو ذاك على حساب طرف أو آخر. وإذا كانت لي كلمة أقولها، وأنا في هذه السن ومن هذا الموقع، لدعوت إلى توحيد الصفوف لإنقاذ الجزائر من انقسام خطير»؛ وهو النداء نفسه الذي وجهه في 5 جويلية في تصريح له باليومية المصرية «الجمهورية» إذ قال: «أنا مستعد للعودة إلى أرض الوطن اليوم كي أتوسل إليهم تفادي التمزق».

إلا أن الأمور تسارعت بوتيرة عالية، فبن خدة وأعضاء الحكومة المؤقتة دخلوا العاصمة في 3 جويلية واستقبلهم الشعب استقبال

الأبطال؛ في الجناح الغربي، دخل بن بلة تلمسان يوم 11 جويلية قادماً إليها من وجدة ليلقى، هو الآخر، نفس حفاوة الاستقبال، وكأن الشعب الجزائري كان يريد بموقفه أن يوجه للرجلين رسالة قلق: لا خلاص إلا في الاتحاد.

ولم تكن أجواء فرحة الاستقلال بعيدة عنا في مدينة لوزان، حيث قام مناضلو جبهة التحرير الوطني وفرع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، تحت رئاسة كل من خديجة بلقاسم ومصطفى بن حَسين، في 5 جويلية، بتنظيم حفل بمناسبة ذلك اليوم الموعود، الذي استرجعت فيه بلادنا استقلالها بعد تضحيات جسام. وعندما طلب مني إلقاء كلمة في الحفل، لم يكن بوسعي لا التكتم على تضحيات الماضي ولا إخفاء المخاوف بشأن المستقبل.

* * * *

لم تمضِ إلا أيام حتى استدعت الحكومة المؤقتة إطارات فيدرالية جبهة التحرير الوطني لفرنسا والاتحاد الطلابي للحضور إلى الجزائر العاصمة. وهكذا، وفي شهر جويلية، وكان الخلاف على أشده في القمة، وَطِئَتْ قدماي أرض الأجداد لأول مرة بعد غياب دام سبع سنوات. كانت البهجة عارمة والاحتفالات في كل مكان، غير أنني ما لبثت أن تذكرت أولئك الذين لم يمهلهم القدر لمشاطرتنا هذه السعادة، وأخص بالذكر كلا من العربي بن مهيدي وعبان رمضان ومصطفى بن بولعيد[7] وديدوش مراد[8] الذين سيتركون فراغاً رهيباً في قيادة البلاد، كما تذكرت الشيخ العربي التبسي والأمين العمودي وأحمد رضا حوحو، والطلبة قاسم زدور، ومحمود منتوري، وعلاوة

بن بعطوش، ومحمد بلعربي، وأصدقائي علي بلال، ومراد بليلي، ومولود تبيب، سقطوا كلهم في ساحة الشرف. ومرت في مخيلتي صور المليون مجهول من ضحايا الإعدامات من دون محاكمة، والحملات الانتقامية والعنصرية، والقصف بالنبالم، وبشاعة التعذيب، وفرق الموت...

وفيما يعنيني شخصياً، كنت أشعر وكأنني أحمل في ثَنَايَايَ مقبرة عملاقة. وعلى مستوى أعم، فإني لا أستطيع أن أغفر لفرنسا حرمان الجزائر المستقلة من مواهب وطاقات جمة كان يمكن لها أن تساهم في إعادة بنائها.

أقمت مع زملائي في فندق أليتي. كانت تجري بيننا اجتماعات علنية وسرية ونقاشات طويلة وعريضة كانت تدور كلها حول الكيفية المثلى لإيجاد السبل الكفيلة بتفادي المواجهة المسلحة بين الفرقاء المتناحرين على السلطة. ولأجل ذلك، تشكلت لجنة مصغرة تتكون من ثلاثة أعضاء (محمد بن يحيى، ورضا مالك، وأنا) عهد إليها بإجراء الاتصالات الضرورية بـ«الكبار».

استقبلنا بن خدة بمقر الحكومة العامة في مكتب ضخم مطل على خليج الجزائر لعله كان من قبل مكتب الحاكم العام نفسه. لكن لكم كان هذا المكتب فارغاً! فلا لوحة فنية معلقة على جدار، ولا كتاب على رفوف المكتبة، ولا وثيقة على الطاولة. أبرزنا أمام بن خدة بإلحاح خطورة الوضع والمواجهة الوشيكة بين الولايتين الرابعة والخامسة، وكذا حالة انعدام الأمن السائدة والنعرة الولائية[9]، مبينين واجب السلطة المركزية باتخاذ الإجراءات المناسبة لتجنب إراقة الدماء. وبوصفه دائماً رئيساً للحكومة المؤقتة، قلنا لبن خدة إنه من

واجبه أيضاً مخاطبة الأمة. لقد كان متعباً وحائراً حين ضغط على زر الجرس. وعندما حضر عبد الملك تمّام، رئيس ديوانه، طلب منه إعداد مشروع نداء للشعب. وفعلاً تلي هذا النداء على أمواج الأثير في اليوم الموالي.

بعد أيام استدعاني بن خدة، وكان يبدو هذه المرة أكثر ارتياحاً، واقترح علي شغل منصب أول سفير للجمهورية الجزائرية بالرباط. رددت عليه أن أهلي كانوا بصدد العودة إلى أرض الوطن وهم في حاجة مادية ومعنوية إلى حضوري بجانبهم. غير أنه ألحّ علي بحجة أن المغاربة وافقوا على اعتمادي وهم في انتظاري، ومع ذلك تمسكت بالرفض.

وبعد لقاء بن خدة استقبلنا نحن الثلاثة آيت أحمد بملحقة صغيرة واقعة بـ«القصر الصيفي»[10] وخاطبناه بالكلام نفسه، وكان أكثر صراحة وأكثر تشاؤماً. أكد لنا أن الوضع السائد قد حكم بعدم أهلية جيله؛ وهو ما كان يحثه، كما قال، على الانسحاب من الساحة السياسية. ثم خلص قائلاً: «عليكم أنتم تحمل مسؤولياتكم، ومن واجبكم التقدم إلى مواقع السلطة وعدم الاعتماد على «التاريخيين».

لم ننجح لا في مقابلة بوضياف الموجود آنذاك بتيزي وزو، ولا بن بلة الذي لم يكن قد غادر تلمسان بعد، أي الشخصين اللذين إلتفت حولهما المجموعتان اللتان دخلتا في صراع من بعد. وفي 17 جويلية، التحق فرحات عباس بمجموعة تلمسان التي سبقه إليها مساعداه أحمد فرنسيس وأحمد بومنجل. في 20 جويلية، أدت اللائحة التي أصدرتها هذه المجموعة عندما قرّرتْ، من جانب واحد، أنها هي التي تمثل الشرعية، إلى استبعاد أية إمكانية لحل تفاوضي

داخل المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

حينئذٍ شعرت باليأس يتسرب إلى رفاقي وقد باتوا متأكدين من استحالة تحقيق مسعاهم. كما بدأت إعلانات الولاء تصدر تباعاً للطرف الأقوى. وذات صباح، استيقظت بفندق أليتي لأجد نفسي الوحيد هناك تقريباً. أدركت حينها أن السفر إلى تلمسان لإعلان البيعة للمكتب السياسي الجديد صار شرطاً على من يريد إدراج اسمه في القوائم الانتخابية التي كانت تعد من أجل «انتخاب» أول جمعية وطنية المقرر لشهر سبتمبر.

في أوائل هذا الشهر تحديداً، لم أعرف كيف، ولماذا، وبمبادرة مَن وجدنا أنفسنا نحن الخمسة بباريس بمقهى «روايال سان جرمان»، الخمسة هم: مصطفى الأشرف، ومسعود آيت شعلال، وبلعيد عبد السلام، ورضا مالك (وهؤلاء شطبت أسماؤهم من القوائم الانتخابية بعد إدراجها)، وأنا. قمنا باستعراض الأوضاع التي تميزت باستيلاء بن بلة على الحكم كأمر واقع، مجمعين، في ما يبدو، على ضرورة منح الوقت الكافي للنظام الجديد من دون معارضته ولا تأييده، وفي الوقت ذاته اتفقنا أن يقوم كل واحد منا بخدمة بلاده فردياً في المجال الذي يعنيه (الطب بالنسبة إلى البعض، والتدريس بالنسبة إلى البعض الآخر).

بعد ذلك اللقاء، عدت إلى الجزائر للعمل بمستشفى مصطفى باشا الذي ضمن لي المسكن والمأكل. لقد كان هذا المستشفى في حالة يرثى لها، بعد هجرة العاملين الطبيين وشبه الطبيين والتقنيين الأوروبيين إثر نسف عدد من قاعات الجراحة، إلا أن الجزائريين الذين كانوا هناك (من أطباء، وممرضين، وعمال) إلى جانب أطباء

فرنسيين اختاروا البقاء. كانوا متحلين بدرجة من التفاني قلّ نظيرها.

وقد كتب لي أن ألتحق بهم لأعمل بعض الوقت في قسم الولادة، ثم تعرفت على الدكتور جاك ميسرشميث المشرف على مصلحة أمراض الدم الذي أقنعني بالعمل معه. كنت أقضي الصباح بين الفحوص وزيارة المرضى المقيمين بالمستشفى، وأقضي بعد الظهر في خلوة مع المجهر. لقد كان ميسرشميث يخصص لي كثيراً من الوقت ويعلمني إعداد الصفيحات المخبرية، وطريقة اكتشاف حالات فقر الدم واللوكيميا والمونوسيتوز، والورم النخاعي، وما إلى ذلك. لقد بلغ تعلقي بمهنتي الجديدة حد بقائي بالمستشفى لا أغادره مدة أسبوع كامل لا سيما أنني كنت مقيماً به وأتناول طعامي بقاعة المناوبة. ومما ساعدني على ذلك أن الحياة السياسية لم تعد تهمني مع مرور الوقت، إلى درجة أنني كدت لا أعلم خبر تنصيب الجمعية الوطنية وتشكيل أول حكومة بعد الاستقلال، وهو خبر هام بكل تأكيد.

* * * *

في أكتوبر 1962، عاد أهلي من القاهرة. ولما كانوا لا يملكون أي شيء تولت عمتي إيواءهم في مرحلة أولى، ببيت ضيق يقع بحي القبة؛ في حين كانت توزع فيلات العاصمة، التي أخلاها المعمرون، على كل من هبّ ودبّ. ومع ذلك، لم أستجد أحداً وفضلت البحث عن منزل أؤجره، فوجدت فيلا متواضعة بحيدرة حيث استقر بي المقام مع أهلي.

ولأنني لم أكن قد ناقشت رسالة الدكتوراه بعد، كنت أتقاضى

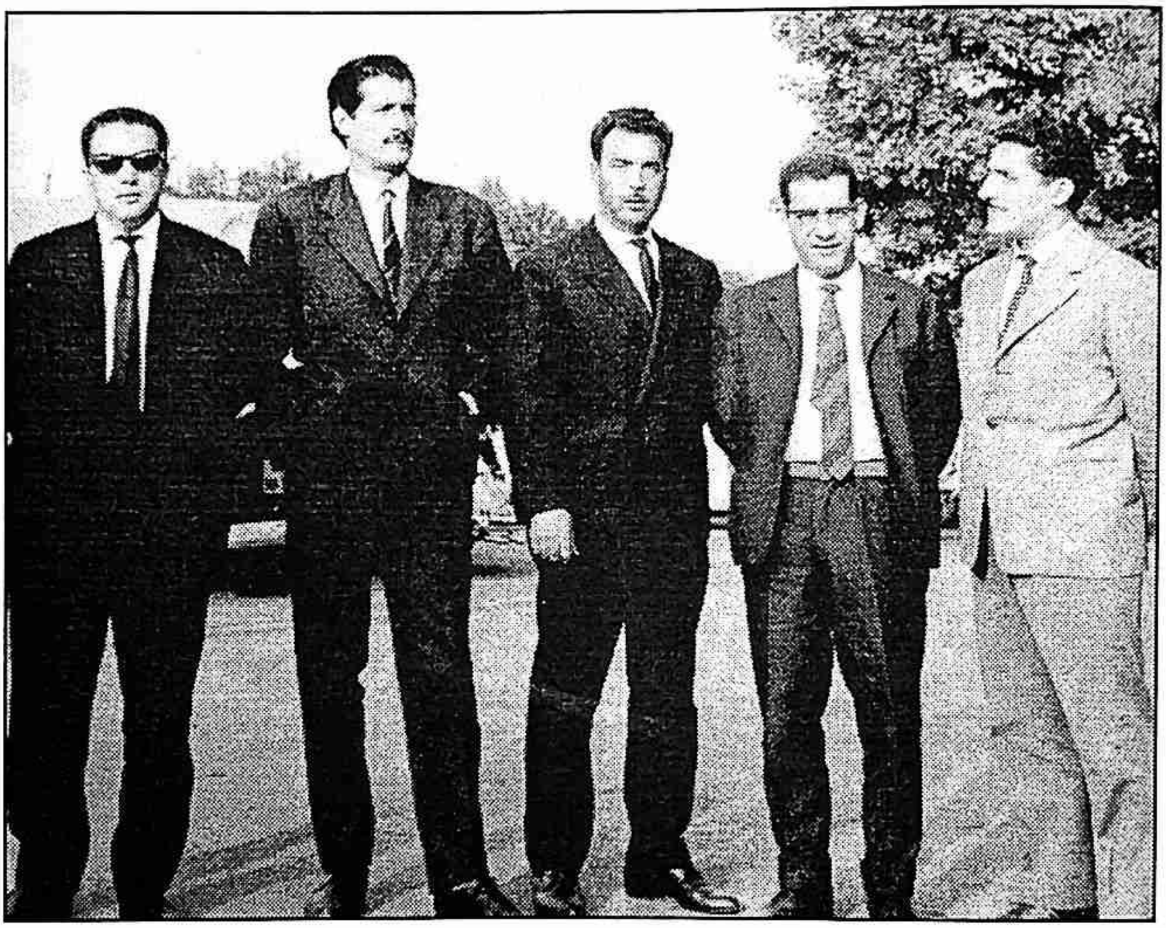
أجر طالب طب معاون حديث العهد، أي ما يعادل 400 دج للشهر؛ وهو ما كان أقل من المطلوب بكثير لإعالة أسرة كاملة بينما كان من حقي أن أتقاضى أجر الطبيب المتفرغ وهو ما يعادل 1830 دج. وللحصول على حقي، طلبت مقابلة مع وزير الصحة آنذاك، الدكتور النقاش، الذي استقبلني برواق قصر الحكومة ليصرح لي، عكس ما كان منتظراً تماماً: «الأجور محددة بحسب الشهادات؛ أما النضال، فلا يهمني إطلاقاً»!.

إن إيجاد حل سريع لهذا المشكل المادي الملّح هو الذي دفعني إلى إنهاء رسالة الدكتوراه في وقت قياسي. لقد كان تاريخ الطب العربي يشكل بالنسبة لي، منذ عودتي إلى الجزائر، هوايتي المفضلة. ولكن كانت سعادتي كبيرة وأنا أجد الفصل المخصص لأطباء المغرب العربي في الكتاب الكبير الذي ألفه ابن أبي أصيبعة («عيون الأنباء في طبقات الأطباء») مترجماً بشكل جيد للغاية، وقد شرحه ونشره هنري جاهيي وعبد القادر نور الدين[11]، ولما كان المؤلف قد عاش في القرن الثاني عشر، فقد كنت في حاجة إلى كتاب آخر يغطي الفترة اللاحقة. لحسن الحظ، اكتشفت في المكتبة الوطنية بالعاصمة كتاباً باللغة العربية نشر سنة 1942 بالقاهرة تحت عنوان «معجم الأطباء العرب» لصاحبه الدكتور أحمد عيسى. جمعت معلومات حول الأطباء المنحدرين من أصول مغاربية، وقابلت بينها، وترجمت ما كتبوه في سيرهم، وبعد أشهر قليلة كانت رسالتي جاهزة، وجاءت بهذا العنوان «إسهام في تاريخ الطب العربي ببلاد المغرب العربي»، وكان والدي حاضراً بالجامعة يوم مناقشتها.

*****

هكذا، شعرت، في أواخر سنة 1962، براحة الضمير، وأحسست أنني خدمت وطني المثخن بالجراح. صحيح، جزائر 1962 لم تكن تلك الجزائر التي حلمت بها لكنها، وهذا هو الأهم، استرجعت استقلالها. ترى، ماذا تمثل تضحيتي المتواضعة مقارنة بتضحيات من وهبوا أنفسهم فداء للوطن؟ إن معجزة تحقيق الاستقلال سمت على كل اعتبار آخر. وكنت كل مساء أتأمل في ما كان سبب قوتنا أثناء السنوات الثماني التي استغرقتها حرب التحرير لكي لا أفكر في الفتنة التي وقعت في النهاية. إن ما شكل سبب قوتنا كان، من جهة، اتحاد الصفوف أثناء فترة الكفاح، ومن جهة ثانية دور الإسلام في إذكاء روح المقاومة. كنت أدرك أن الاستقلال لن يحل المشاكل، لكنه كان يسمح بالتحلي بالعزيمة والبحث الحثيث عن السبل الكفيلة بتحقيق هذا الحل. ولئن دقت ساعة الإصلاح والترميم إلا أن ضعف قادة البلاد - بل ضعفنا نحن جميعاً - تمثل في عدم استغلال الوقت للتفكير والتأمل.

وفي ما يخص والديّ اللذين صرت، في وضعي الجديد، أراهما كل مساء، قمت بكل ما في وسعي كي يقضيا السنوات الباقية لهما في راحة، وكأنّ السنوات التي قضيتها بعيداً عن الوطن ليّنتْ من الطبع الخشن الذي يعرف به أهل مدينة مسقط رأسي سطيف. وقد كان ذلك بالنسبة لي رد جزء من حبهما لي طيلة الثلاثين سنة لا سيما أثناء السنوات الثماني الصعبة لثورة التحرير. وفي هذا الصدد، تعود إلى ذاكرتي جملة قالها بيغي Peguy: «. . . إذا كانت الحرب لا تقتل إلا الأجساد، فإن الأدهى أنها تدمر النفوس». إني أحمد رب العالمين الذي أكرمني وأسبغ علي نعمته حيث خرجت من الحرب سليماً معافى، جسداً وروحا.



دوسالدورف (ألمانيا)، سبتمبر 1961. من اليسار إلى اليمين:

محمد تربوش، أحمد طالب الإبراهيمي، عمر بوداود، قدور العدلاني، محمد مشاطي.

بعد إطلاق سراح تربوش، وطالب ومشاطي

استقبلوا مِن طرف مَن خلفهم على رأس فيدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني.




نيويورك، الجمعية العامة للأمم المتحدة، ديسمبر 1961.

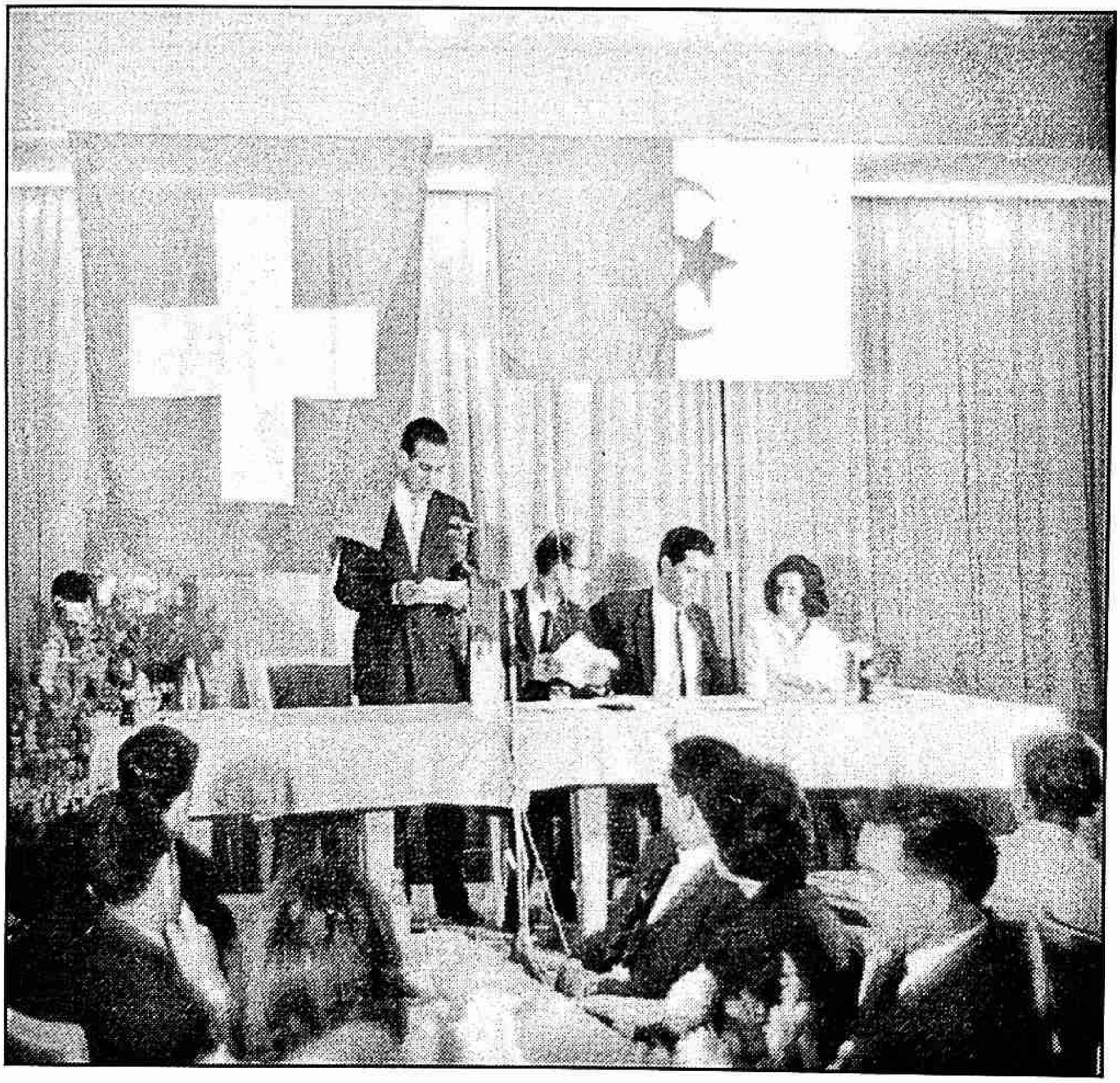
الجزائر تشارك كبلد ملاحظ. من اليسار إلى اليمين:

أحمد طالب الإبراهيمي، الأخضر إبراهيمي، رؤوف بوجقجي، عبد القادرة شندرلي.

في الخلف: هاري بلافونت مع فريد محرزي، عضو البعثة التونسية إلى الأمم المتحدة



نيويورك، الجمعية العامة للأمم المتحدة، ديسمبر 1961.
الوفد الجزائري من اليسار إلى اليمين:
رؤوف بوجقجي، الأخضر الإبراهيمي، أمحمد يزيد،
أحمد طالب الإبراهيمي، عبد القادرة شندرلي.



لوزان، جويلية 1962. في المنبر من اليمين إلى اليسار:

خديجة بلقاسم، أحمد طالب الإبراهيمي، مصطفى بن حسين

# هوامش الفصل السادس

(1) أحمد قايد: مناضل في الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري برئاسة فرحات عباس. انضم إلى جبهة التحرير الوطني. . وصار أحد نواب هواري بومدين في رئاسة أركان جيش التحرير الوطني. وتولى في عهد بومدين مسؤولية رئاسة جهاز الحزب قبل أن يختلف معه، مات في الرباط 1978.

(2) عبد الحفيظ بوصوف: مناضل في حزب الشعب الجزائري، ثم في حركة انتصار الحريات الديمقراطية. عضو المنظمة الخاصة ولجنة الـ(22). قائد الولاية الخامسة. وزير التسليح والاتصالات العامة (MALG) في الحكومة المؤقتة.

(3) المنظمة الدولية التي تجمع الطلبة الغربيين، وهي موازية لمنظمة الطلبة الشيوعيين UIE.

(4) الهيئة التنفيذية المؤقتة: هيئة مختلطة بين الجزائريين والفرنسيين يرأسها عبد الرحمن فارس. أُسِّست بعد وقف إطلاق النار (مارس 1962) لتدير شؤون الجزائر حتى إجراء استفتاء تقرير المصير في 1 جويلية 1962.

(5) الذي سيأخذ عنوان «عيون البصائر».

(6) هيئة الأركان العامة: أنشئت في يناير 1960، وكانت تتألف من رئيس

(هواري بومدين) وثلاثة نواب (علي منجلي، أحمد قايد، عز الدين زراري).

(7) مصطفى ابن بولعيد: أحد أهم قادة الثورة. مناضل في حزب الشعب الجزائري، وحركة انتصار الحريات الديمقراطية. ومنسق شُعَب جمعية العلماء في الأوراس. أحد الستة الذين قرروا إعلان الثورة في أول نوفمبر 1954. قائد المنطقة (الولاية) الأولى (الأوراس). اعتقل وحكم عليه بالإعدام، ولكنه فر من السجن. استشهد في 23 مارس 1956.

(8) مراد ديدوش: مناضل في حزب الشعب الجزائري، ثم حركة انتصار الحريات الديمقراطية. عضو المنظمة الخاصة (OS)، وأحد الستة الذين قرروا إعلان الثورة في أول نوفمبر 1954. قائد المنطقة الثانية، استشهد في المعركة في 18 يناير 1955.

(9) النعرة الولائية: هي تعصب وتحيز كل فريق إلى الولاية التي ينتمي إليها هيكلياً. وعدد الولايات هو ستة.

(10) قصر الشعب حالياً.

(11) عبد القادر نور الدين: (1890 ـ 1981). كاتب، مترجم، أستاذ. لم يعرف عنه اهتمام أو نضال سياسي. له عدد من المؤلفات والتحقيقات.

# 7

# نحو الأستاذية في الطب

## (أكتوبر 1962 ـ جويلية 1964)

«تجري الرياح بما لا تشتهي السفن»، عجز البيت هذا من قصيدة لشاعر العرب أبي الطيب المتنبي، ينطبق عليّ تمام الانطباق. فأنا الذي طالما حلمت في صباي أن أكون طبيباً للأمراض النفسية، من أجل التوفيق بين الصرامة العلمية وميولي الأدبية، أجد نفسي، في نهاية المطاف، طبيباً لأمراض الدم. وبعد ما سجلت موضوع رسالة جامعية بكلية الطب بباريس وتمكنت من الحصول، بمشقة، على منصب طبيب مساعد لواحد من كبار أطباء جنيف في مجال التشريح المرضي الأستاذ روتيسهاوزر، ها انذا أجد نفسي أعمل بمستشفى مصطفى باشا بالجزائر العاصمة. وإنّي لسعيد لذلك.

كنت كل صباح أغادر والديّ باكراً، أستقل الحافلة العمومية بساحة حيدرة لأنني كنت واحداً من الأطباء القلائل ممن لا يملكون سيارة، لأقضي الوقت كلّه بجوار المرضى وفي خدمتهم. ومرة في الأسبوع، كانت الفحوص تتم في الطابق ما تحت الأرضي خلافاً لسائر الأيام التي تتم فيها في المصلحة الواقعة بين الطابق الأرضي والطابق

الأول لمتابعة أحوال المرضى المقيمين بالمستشفى. كما كنت أساعد طلبة الطب الداخليين في تحرير ملاحظاتهم حتّى تكون، قدر المستطاع، مطابقة لشروط الدقة والإيجاز. وكنا أيضاً نقوم بأخذ العينات المخبرية الضرورية ونتناقش بحضور الأستاذ حول العلاج اللازم لها.

وباستعمال الأدوية غير المكلفة لأنها مصنوعة أساساً من الحديد حرصاً منا على التقشف، استطعنا أن نزيل كثيراً من حالات فقر الدم، لا سيما لدى النساء. لقد كان الأستاذ ميسرشميت يشن حملة ضد الإسراف في استعمال فيتامين B12 التي كانت توصف للمرضى بشكل عشوائي من طرف عدد من الأطباء. ثم إننا كنا نحصل على حالات خمود أطول للمرض في كل مرة في معالجة حالات لوكيميا مخ العظام المزمنة. وفي مقابل ذلك، لكم كنا عاجزين نعتصر ألماً ونحن نرى أطفالاً صغاراً يفارقون الحياة خلال بضعة أيام جراء الإصابة باللكوزيا الحادة الصاعقة.

أما الظهيرة، فقد كنت أخصصها للدراسة المجهرية للصفيحات المخبرية بهدف وضع تشخيص لفائدة المرضى المفحوصين في الصبيحة. كان يحدث لنا، مع ميسرشميت، أن نقضي في بعض الأحيان أكثر من ساعة كاملة على الصفيحة نفسها تفادياً للوقوع في خطإٍ التشخيص. وبعد الانتهاء من العمل بالمجهر، كنا نشرع في مناقشة مشاريع المقالات المزمع نشرها في مختلف المجلات المتخصصة عندما نكون قد أحصينا عدداً كافياً من حالات فقر الدم المعروفة بـ «anémie de Biermer»، أو نحصل على عدد كافٍ من حالات الخمود للوكيميات المزمنة، وشيئاً فشيئاً، اكتسبت السرعة في

تقدير الحالات، وتعلّمت ألا شيء يضاهي الممارسة اليومية والتجربة الميدانية.

في البداية، كان ميسرشميت هو الذي يقوم بجميع دروس مادة علم أمراض الدم (hématologie) بالكلية، غير أنه سرعان ما عهد إليّ بالبعض منها التي كان يَحضُرها شخصياً. وقد كنت من الحرص على حسن الأداء ما كان يكلفني في تحضير الحصص الأولى أَزْيَدَ من عشرين ساعة في بعض الأحيان. لكن مع مرور الوقت، استطاع ميسرشميت أن يعتمد عليّ في القيام بأكثر من نصف الدروس للطلبة المنتظمين في مجموعتين، السنتان الأولى والثانية، والسنتان الثالثة والرابعة.

أثناء تلك السنتين (سبتمبر 1962 ـ جويلية 1964)، انصبت كل مطالعاتي على مادة علم الدم. وانحصرت الكتب المفضلة لديّ في هذا التخصص في كتابين أساسيين، وهما الوجيزان المؤلفان من طرف الأمريكي وينتروب Wintrobe والألماني هايلميار Heilmeyer، بالإضافة إلى كتب الفرنسي جان برنار J.Bernard. ولم تتأخر نتائج هذه المطالعات المكثّفة في الإتيان بثمارها حيث تم تعييني مساعداً، ثم أستاذاً مساعداً في كرسي مادة علم أمراض الدم، ومن ثمة بدأت الإعداد لمسابقة شهادة التبريز.

موازاة مع ذلك، تحسنت وضعيتي المادية حيث صار إجمالي مرتبي الشهري بكل من الكلية والمستشفى أزيد من 3000 دج في المجموع. كنت أسلم نصف هذا المرتب إلى والدتي لسدّ المصاريف اليومية، أما النصف الباقي فكنت أنفق جزءاً منه في دفع إيجار الفيلا والجزء الآخر، وهو الأكبر، في رد المبلغ الذي كنت قد استلفته، في

سبتمبر 1962، لشراء ما يلزم من أثاث للفيلا قبل وصول أمتعة والديّ من القاهرة. بل لقد استطعت، في سبتمبر 1964، شراء شقة بحي تليملي بمبلغ يعادل 20.000 دج نصفه اقترضته من صديقي علي بوتقجيرت.

لقد مكنني انهماكي الكامل في النشاط الاستشفائي الجامعي من الإفلات من أجراس السياسة، باذلاً قصارى جهدي في اكتساف مناعة من فيروس السياسة. غير أن ظروفاً مختلفة برزت أثناء تلك السنتين وتضافرتْ لتتحول إلى قوة تجذبني نحو العودة إلى الحياة السياسية من جديد. فقد كانت المسافة التي حاولت إقامتها بيني وبين السياسة تتقلص من يوم إلى آخر لتنتهي من جديد يا للأسف، في شباك السياسة، وكم كنت أمقت السياسة لأنني، مثل غوته، أعتبر «السياسة هي خليط من الأخطاء وأعمال العنف».

*****

فور وصولي إلى مستشفى مصطفى باشا، ألح عليّ بعض الإخوان ـ وكانوا مناضلين سابقين في فدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني قبل أن يصبحوا موظفين في المستشفى نفسه ـ للانضمام إلى خلية الجبهة هناك. كنت أحضر كافة الاجتماعات التي يكرّس معظمها لإعادة تنظيم مختلف مصالح المستشفى. لكن ابتداء من أوائل 1963، حلت اتحادية مدينة الجزائر الكبرى هذه الخلية في سياق استراتيجية الدولة لبسط سيطرتها على جميع هياكل الحزب. لم أرد معرفة سبب هذا القرار وقلت في نفسي: حسناً ما وقع!.

في شهر جانفي 1963، رافقت صديقين نائبين في المجلس

الوطني إلى قصر زيغود يوسف من أجل أن أكوّن «فكرة عن مستوى النقاشات داخل هذه الهيئة». صادفنا بن بلة بمدخل القصر فهنأني بحرارة على دراستي التي نشرت منذ فترة قصيرة بجريدة Jeune Afrique التي «تعبر، على حد قوله، بدقة عما أراه بشأن المشكلات المطروحة في مجال الثقافة الوطنية».

في فيفري 1963، استقبلت بمنزلي زملاء سابقين في الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بعد أن صاروا موظفين بوزارة الخارجية وطلبوا مني قبول منصب الأمين العام لهذه الوزارة مع التأكيد أن الأمر لا يتعلق باقتراح من وزيرهم، محمد خميستي، وإنما هو مجرد اتفاق في ما بينهم. أجبتهم أن خياري لا رجعة فيه، أي المسار المهني في المستشفى والجامعة الذي كنت راضياً عنه كل الرضا.

في مارس 1963، أجبت بلعيد عبد السلام بالعبارة نفسها ـ وكان آنذاك مديراً عاماً لشركة سوناطراك ـ بعد ما أخبرني أن اسمي متداول لشغل منصب سفير بالقاهرة، ناصحاً إياي بالقبول. في الحقيقة، لم يتغير بالنسبة لي أي شيء منذ آخر لقاء لنا بباريس والذي قررنا فيه عدم المشاركة في نظام الحكم، كما سلف ذكره.

في سبتمبر 1963، الإجابة نفسها سمعها مني شعيب طالب ـ الذي كان صديقاً ومساعداً لوزير الخارجية الجديد، عبد العزيز بوتفليقة ـ عندما كرّر الحديث عن منصب الأمين العام للوزارة مرة أخرى. ومجيء الوزير الجديد كان بعد اغتيال أول وزير خارجية في عهد الجزائر المستقلة، محمد خميستي. وقد شاءت الأقدار أن أكون أثناء هذا الحادث المؤلم في المناوبة بالمستشفى حين أتت سيارة الإسعاف بالوزير المصاب، مرفوقاً بزوجته والرئيس بن بلة. تركت

غرفتي لزوجته التي كانت، بطبيعة الحال، مصدومة لأبقى ساهراً بجانب المصاب الليل كلّه. وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلناها، دخل خميستي في غيبوبة عميقة لتوافيه المنية بعد أسبوعين.

*****

في أواخر صيف 1963، قمت بزيارة إلى باريس؛ أولاً من أجل التعبير عن عرفاني لكل من قدم لي يد العون أثناء السنوات التي قضيتها بالسجون الفرنسية، وثانياً، لاستعادة الذكريات بتلك الأماكن التي كانت لها مكانة خاصة في حياتي الدراسية: كلية الطب القديمة، مستشفى بوبيني، المدينة الجامعية الكائنة بشارع جوردان، النادي الواقع بـ115 شارع سان ميشال، مقهى دو فلور، وغيرها. وعلى العكس من ذلك، تجنبت الاقتراب من سجني فران ولاسانتي.

لم يكن بعض أصدقائي موجودين بباريس، لا سيما جاك بيرك وماكسيم رودنسون. إلا أنني لمست عند أغلب من التقيت بهم عدم اهتمام واضح بالجزائر. وجدتهم آسفين لرؤية قادة متعطشين للسلطة، وأشقاء غارقين في صراعات داخلية، يصادرون تحرير شعب. هكذا وجدت روبار بارا وقد نسي الجزائر تماماً لينصرف، أكثر فأكثر، إلى الاهتمام بمشكلات تقنية ذات صلة بالاتصال والتربية. أما زوجته دونيز، فقد تحوّل حماسها وتفانيها في سبيل الجزائر إلى القضية الفلسطينية.

كلود روا، من جهته، استقبلني بمنزله بشارع دوفين. وقد وجدته أكثر سخاء وأكثر إشراقاً منه في رسائله. ولما كان ذا سرعة بديهة منقطعة النظير، ألفيته ينتقل من موضوع إلى آخر بكل خفة،

مقيماً بين مختلف المواضيع علاقات وروابط لم نكن لننتبه إليها أبداً، إذ تراه يربط، بسهولة بين الفنون الإفريقية وبيكاسو، وبين فيكتور هيجو وإيلوار، وبين موراس ولينين، وبين أدب أمريكا اللاتينية والفكر الصيني. أما رفيقته، الممثلة لولي بيلون، وبلطافتها وصوتها الناعم، فكانت تحاول في كل مرة كبحه وإعادته إلى موضوعات أكثر بساطة، لكن هيهات!.

كما استقبلني الفيلسوف جان بول سارتر، لكن ليس بمنزله الشهير الكائن بساحة سان جارمان دي بري الذي نسفته، للأسف، منظمة الجيش السري الفرنسية، وإنما بمنزله الجديد بشارع راسباي. كانت هناك إيفلين راي، الممثلة المفضلة لديه، التي لعبت أدواراً في أغلب مسرحياته. ثم التحقت بنا سيمون دي بوفوار. وقد كنت أتوقع أن يدور الحديث حول محورين أساسيين: أعماله والجزائر، غير أن شيئاً من ذلك لم يقع. ولم أكد أتلفظ أمامه إلا بكلمات عرفان من مناضل لم ينس ما قدمه ذلك الرجل للقضية الجزائرية، لا سيما «بيان الـ 121». وكنت أود أن أعرب له عن إعجابي بتلك الرائعة الصغيرة التي مثلتها قصته «الكلمات»، كما تمنيت أن أخوض معه في بعض النقاط حول «جلسة مغلقة» (Huis clos) و«محجوزو ألتونا» (Les séquestrés d'Altona). وبدل ذلك كان يوجه إلي السؤال تلو الآخر حول عملي، وأسرتي، وحياتي الخاصة، التي لا أحب الحديث عنها عادة. ثم، وبتواضع تام، أخذ يدلي بأفكاره التجديدية حول الحياة، والحب، والصداقة، والمعاناة، والموت، وما إلى ذلك. بقيت مفتوناً بما كان يقول، ووددت لو استمررت في الاستماع إليه. عندما هممت بالانصراف، ازدادت قناعتي رسوخاً أن عظمة الإنسان لا تكمن في ثقافته ولا في ذكائه، وسارتر كان له الاثنان، بقدر ما تكمن في طيبة

قلبه. من هذا الباب، سارتر يستحق جائزة الامتياز.

أثناء هذه الإقامة بباريس، تعرّفت بكلود لانزمان الذي استضافني بمنزله الكائن بشارع سان بار. وكان قد أشرف على العدد من مجلة Temps Modernes المخصص لاستقلال الجزائر الذي طلب مني الإسهام فيه بمقال حول «التحرر من الاستعمار الثقافي». لكن، للأسف الشديد، لم ير هذا العدد النور بسبب خلافات ظهرت بين أعضاء هيئة التحرير، إذ كان بعضهم مناصراً لنظام الحكم في الجزائر مناصرة تامة، بينما كان بعضهم الآخر، من أمثال لانزمان، يبدون نوعاً من التحفظ. وكان هذا الأخير قد زار تونس قبل استقلال الجزائر، واتصل بمسؤولين في جبهة التحرير الوطني من بينهم، على وجه الخصوص، الرائد موسى (محمد بن أحمد) ثم قفل راجعاً وهو حامل لانطباعات على جانب من الوضوح والتعاطف. أما الدراسة التي أعددتها للنشر في تلك المجلة، فقد آل بها الحال إلى الصدور بجريدة Jeume Afrique في شهر ديسمبر 1962. وفيما يخص لانزمان، فإنه من المؤسف أن ينتهي الأمر بخلافاتنا حول النزاع الفلسطيني الإسرائيلي إلى قطع صلة مودة عميقة كانت تجمعنا.

وبانغلاقه على مأساة الشعب اليهودي إبّان الحرب العالمية الثانية أصبح لانزمان لا يشعر بالخطر الذي يهدده حتى عمي أمام مآسي أخرى، ويتساءل المرء إذا لم يكن الهدف من التركيز على هاجس المحرقة هو طمس ذاكرة مآسي أخرى مثل مأساة الشعب الفلسطيني وشتاته.

*****

سعدتُ كثيراً عندما استقر والدِاي بصفة نهائية بالعاصمة، وإذا كانت إقامتهما بالقاهرة من الناحية المادية أَرْيَح، إلا أنهما كانا مسرورين بالعودة إلى أرض الوطن. كانت والدتي تصيح من حين إلى آخر ساخطة: «كل هؤلاء الذين كانوا يتسابقون إلى منزلي بمصر لتناول الطعام عندي، أين هم اليوم؟. يا للعار، صاروا وزراء، أو نواباً، أو سفراء، لكنهم يخافون زيارة شخص لم يعد الحكام ينظرون إليه بعين الرضا».

أما والدي، فقد ظل محتفظاً بهدوئه المعتاد. وكنت في كل مرة أعود إلى البيت، في منتصف النهار أو في المساء، أجد بين يديه واحداً من الكتابين المفضلين لديه، فإما نسخة من المصحف الشريف التي ظل محتفظاً بها منذ الثلاثينيات بتلمسان، أو مجلد من معجم «المخصص» لابن سيده. اللغوي العربي الأندلسي الذي عاش في القرن الحادي عشر، وما دام المرء يعود دائماً إلى ما كان يحب في صباه، تهيأ لي أن سبب هذا الاهتمام مردّه إلى أن والدي عندما كان في العشرين من عمره، كان ركناً من أركان المكتبات الخاصة والعمومية في المدينة المنوّرة، وكان مولعاً بالمخطوطات والمؤلفات المتصلة بفقه اللغة والمعاجم.

ومع ذلك، أحسست أن والدي كان منزعجاً لضيق المكان الذي لم يكن يسمح له بالاستفادة من مكتبته الضخمة. أتذكر أنه ذات يوم، أَسَرَّ إلى فرحات عباس، رئيس الجمعية الوطنية آنذاك، قائلاً: «لا أطلب أي امتياز، لكن ألا تستطيعون تبديل منزلي بالقاهرة بمنزل مماثل له بالعاصمة. قوموا. إذاً، بتقدير قيمته وحوّلوه إلى ملك الدولة الجزائرية لإيواء أحد دبلوماسييكم، ولعله لا يليق بمقام «السفير

بالذات». إلا أنه بقي في انتظار الرد الذي لم يأته أبداً، حتى انتقل إلى جوار ربه.

لكن، ومن حسن الحظ، لم يكن نكران الجميل الذي طالما اشتكت منه والدتي هو القاعدة. لقد كان هناك كثير ممن كانوا يترددون على والدي في منزله، من بينهم محمد خير الدين، وعباس بن الشيخ الحسين، وعبد الرحمان شيبان، والطاهر فضلاء، وعبد الحميد مهري، وعبداللّه شريط، وغيرهم. أما أولئك الذين كانوا يشغلون مناصب عليا في الدولة وظلوا يترددون على الشيخ، فقد كانوا أقل عدداً، أتذكر من بينهم العقيد محمدي السعيد، وأحمد قايد، وأحمد بومنجل، وخاصة الشريف بلقاسم، وزير الإرشاد الوطني. وكان الشريف بلقاسم في أول زيارة له، برفقة شيبان، قد خاطب والدي قائلاً ما معناه: «عندما انتزعت الجزائر استقلالها، استطاعت أن تجد من بين أبنائها أناساً كانوا مستعدين لإعادة بنائها في مجالات السياسة، والاقتصاد، والجيش. أما في مجال التربية والتعليم، فبفضل جهودكم أثناء الحقبة الاستعمارية تكوّن أوائل المدرسين باللغة العربية مهيئين بذلك خميرة التعريب. من أجل ذلك، تراني ألتمس منكم اليوم ترأس اللجنة المكلفة بإدماج هؤلاء الإطارات في مختلف أسلاك التربية الوطنية».

وهناك زيارات أخرى من المشرق والمغرب أدخلت على الوالد البهجة والسرور، مثل زيارة العالم المغربي محمد الفاسي الذي طلب منه إجازة على الطريقة القديمة، والكاتبة المصرية سهير القلماوي التي تحمّلتْ مشقّة السفر إلى مصيف «الشريعة» لرؤيته، والسفير السوري شاكر الفحام الذي تعب بحثاً على عنوان الوالد ولم يحصل عليه إلاّ

بفضل الطاهر فضلاء.

* * * * *

كان من الطبيعي أن يتطلع الجزائريون الذين عانوا من ويلات حرب شرسة على امتداد ثماني سنوات إلى السلم والسكينة والاستقرار، ولِمَ لا إلى تحسين ظروف معيشتهم؟ غير أن اليأس ما لبث أن دب إلى نفوسهم وهم يرون حكاماً يلمع بريقهم ديماغوجية وارتجالاً من خلال خطابات مملة لا طعم لها حول الاشتراكية، وتأميمات في غير محلها وفي بعض الأحيان من السخافة بمكان كتأميم قاعات الحلاقة، وفتح «المخازن الاشتراكية النموذجية»، وسنّ «التسيير الذاتي الفلاحي» الذي أدّى إلى فرار كل من كان يحب الأرض فعلاً، إلى جانب قمع استهدف كل مواطن لا يبدي استعداداً لـ«العمالة»، بل وللخنوع...

ولسوء الحظ، استغل المغرب هذا الجو ـ المتميز بالعياء من الحرب وخيبة الأمل في الاستقلال ـ لفرض حرب حمقى على جاره مخترقاً حدوده الغربية بحجة استعادة إقليمي بشار وتندوف. لم يفهم الشعب الجزائري، الذي لم تكن جراحه قد التأمت بعد، هذا التصرف العدواني لا سيما أنه جاء شهوراً فقط بعد زيارة الملك الحسن الثاني للجزائر. لذلك استجاب هذا الشعب بقوة لنداء التعبئة الشاملة الذي وجهه الرئيس ابن بلة، وان هذا النداء هو السبب الذي جعل العقيد محند أولحاج يضع حداً لتمرده في منطقة القبائل.

كنت من بين أوائل الأطباء في مستشفى مصطفى باشا الذين تطوّعوا لتلبية نداء التعبئة، وكنت مع الجراحين محمد أبو العلا

والهادي منصوري ضمن أول فريق طبي توجه إلى كلومب بشار. وهناك، قضينا مدة أسبوعين نعالج الجرحى، الجزائريين والمغاربة على حد سواء. وفي المساء، كانت لنا مناقشات مهمة مع بعض ضباط جيش التحرير الوطني ممن لم تعمهم بعد العصبية، ولم يقعوا تحت سلطان المادة أو النعرة الجهوية.

*****

ذات يوم، وبينما أنا واقف على الرصيف في انتظار حافلة النقل العمومي بساحة حيدرة، إذا بكريم بلقاسم يتوقف أمامي ليأخذني في سيارته. قلت له أثناء الحديث إنني كنت سعيداً عندما سمعت أنه فتح محلاً للمجوهرات بشارع ديدوش مراد متخلياً بذلك عن السياسة وخيبات أملها، فما كان له إلاّ أن ردّ علي بهذه العبارة: «بعد كل الذي عشته، أتساءل اليوم إن لم يكن من الأليق العمل على جمع المال وممارسة السياسة في الآن ذاته!». ولما وصلنا المستشفى، قلت له: إن المهنة التي ارتضيتها لنفسي، أي ممارسة الطب، تأبى الضرة. هكذا توادعنا، وما كنت أدري أن فراقنا سيكون إلى الأبد.

خلال سنة 1963، ظهرت فكرة إنشاء «اتحاد للكتاب الجزائريين». أيّدت هذه الفكرة وشاركت في جميع الاجتماعات التحضيرية، كما شاركت في إعداد القانون الأساسي للاتحاد. لكن سرعان ما نشب خلاف بين مؤيّدي تأسيس «اتحاد» يكون في خدمة النظام، ويدافع عن سياساته وبين من كانوا يظنون، ومنهم أنا، أن المثقف ينبغي عليه أن يكون دائماً في الطليعة وأن لا يتخلى عن دوره الطبيعي في النقد الدائم.

خلال السنة نفسها، قدم شقيقي محمد ملفاً من أجل الحصول على تعويضات على غرار كل من تعرّضت ممتلكاته للتدمير على يد أفراد منظمة الجيش السري. لكن، وعلى الرغم من المساعي العديدة التي قام بها، لم يتلق أي جواب. حينئذٍ، تدخلت لدى بشير بومعزة، وزير الاقتصاد، الذي قال لي في معرض الحديث إنه كان في حاجة إلى شخص على رأس شركة «برليي»، وإن شقيقي تتوفر فيه الشروط التي يتطلبها المنصب. في ما بعد، استقبل بومعزة شقيقي بودّ وسلّم له كل الملفات ذات الصلة بمنصبه الجديد في انتظار صدور مرسوم التعيين في الجريدة الرسمية. إلا أن فرحتنا لم تدم طويلاً لأن المرسوم لم ير النور أبداً بسبب اعتراض بن بلة عليه.

في نهاية سنة 1963، أثارت دراسة لمصطفى الأشرف، صدرت بـ Les Temps modernes وأعيد نشرها بمجلة Révolution africaine، نقاشاً بينه وبين مراد بوربون. أدليت، أنا أيضاً، بدلوي في هذا النقاش بإرسال رسالة مطوّلة إلى الأسبوعية الجزائرية نفسها. وقد وعدني محمد حربي، المشرف على هذه الجريدة آنذاك، عندما التقيته بمخرج الجامعة، بنشر المقال. غير أن ذلك لم يتحقق! هل كان بن بلة وراء الأمر مرة أخرى؟.

في جانفي 1964، تم الإعلان عن قائمة أعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر جبهة التحرير الوطني الذي يهيّأ لعقده لأول مرة في الجزائر المستقلة، واندهشت لرؤية اسمي فيها من دون استشارتي. لقد علمت بالتعيين مثل سائر الناس عبر خطاب ألقاه رئيس الدولة على شاشة التليفزيون. لكنني أدركت فيما بعد أن اسمي أدرج في القائمة باقتراح من العقيد محند أولحاج، قائد الولاية الثالثة

وأنني في نظر الكثيرين، سأكون بمثابة الناطق الرسمي للمعارضة داخل اللجنة. أيعقل أن يكون المرء ناطقاً رسمياً لجماعة لم يعرفها أبدا؟ هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن خيبة الأمل التي شعرت بها بعد قراءة القائمة واستعراض أسماء الأعضاء في هذه اللجنة كانت بقدر الأمل الناجم عن عقد المؤتمر. لذلك، قمت، في اليوم ذاته، بتحرير بلاغ اعتذار عن العضوية سلّمته شخصياً لوكالة الأنباء الجزائرية وجريدة Alger Républicain. وعندما رفض نشره، أرسلته إلى وكالات الأنباء العالمية.

في فيفري 1964 ، قام بوربون ـ المعيّن مؤخراً محافظاً للثقافة ـ بزيارتي بمستشفى مصطفى باشا، مرفوقاً بمحمد بودية ليعرضا عليّ العضويّة في لجنة وطنية للثقافة. وبعدما علمت أن هذه اللجنة ستكون تابعة للحزب، وأن ساحلي ومصطفى الأشرف لم يطلب منهما الانضمام إلى عضويتها، رفضت العرض مع تأكيد استعدادي للإسهام في المجلة المقرر إصدارها وفي كل نشاط ثقافي ستنظمه اللجنة في المستقبل.

في 15 أفريل 1964، عشية إحياء ذكرى وفاة الإمام ابن باديس، عدتُ ككل مساء إلى البيت، ولكني هذه المرة وجدت والدي مستاء وهو يرى هذه الذكرى تمر في الجزائر المستقلة مرور الكرام. في تلك اللحظة أخبرني أن الفرصة سانحة للإدلاء بموقف حول الأوضاع العامة للبلاد وعليه، أملى عليّ نصاً وجيزاً قمت بصياغته وترجمته إلى الفرنسية. وهذا هو النص:

«كتب اللّه لي أن أعيش حتى استقلال الجزائر، ويومئذٍ كنت أستطيع أن أواجه المنية مرتاح الضمير، إذ تراءى لي أني سلمت

مشعل الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام الحق، والنهوض باللغة العربية ـ ذلك الجهاد الذي كنت أعيش من أجله ـ إلى الذين أخذوا زمام الحكم في الوطن، ولذلك قررت أن ألتزم الصمت.

غير أني أشعر أمام خطورة الساعة، وفي هذا اليوم الذي يصادف الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باريس، رحمه اللّٰه، أنه يجب علي أن أقطع ذلك الصمت، إن وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة ويتخبط في أزمة روحية لا نظير لها، ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل.

ولكن المسؤولين ـ فيما يبدو ـ لا يدركون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية، وأن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم، يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية، لا من مذاهب أجنبية.

لقد آن للمسؤولين أن يضربوا المثل في النزاهة وألا يقيموا وزناً إلا للتضحية والكفاءة، وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الاعتبار عندهم. وقد آن أن يرجع لكلمة الأخوة ـ التي ابتذلت ـ معناها الحق، وأن نعود إلى الشورى التي حرص عليها النّبي (ﷺ).

وقد آن أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيّدوا جميعاً «مدينة» تسودها العدالة والحرية، «مدينة تقوم على تقوى من اللّٰه ورضوانه».

في اليوم التالي، سلّمت نص التصريح لوسائل الإعلام باللغتين العربية والفرنسية، وكان بمثابة القنبلة. وقد اغتنم بن بلة فرصة عقد مؤتمر جبهة التحرير الوطني ليصب جام غضبه على من أسماهم بـ«أصحاب العمائم الذين يجرأون اليوم على انتقاد توجهاتنا الاشتراكية

باسم الإسلام، ناسين أنهم رفضوا، في السابق، مد يد العون لنا عندما انطلقنا في الكفاح المسلح». قمت بتحضير ردّ مفصل يدحض هذه المزاعم الكاذبة مذكراً أنه في الوقت الذي كان فيه الشيخ الإبراهيمي منفياً من طرف إدارة الاحتلال إلى الجنوب الوهراني، كان بن بلة يعمل في صفوف الجيش الفرنسي بكاسينو (إيطاليا). غير أن والدي نجح في صرفي عن نشر الرد مؤكداً أن الكلمة الأخيرة ستعود إلى اللّٰه، وأن التاريخ سيكتب في النهاية على أسس حقيقية عملاً بالحكمة القرآنية: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

وشاءت الصدف أن التقي بعد سنة بوزير الداخلية آنذاك، أحمد مدغري الذي أخبرني أن الرئيس بن بلّة انزعج من هذا التصريح وأمره «بإلقاء القبض على الشيخ الابراهيمي، لكنّه تراجع عندما بيّنْتُ له أن مثل هذا الإجراء من شأنه أن يثير اضطرابات في الشارع قد تهدّد استقرار النظام»

لقد أثار تصريح 16 أفريل كذلك هرجاً ومرجاً في أوساط إطارات جمعية العلماء إذ حاول بعضهم. وقد صاروا موظفين في الدولة ـ التعبير عن عدم تأييدهم لموقف الشيخ إلى حد التفكير في التنديد به رسمياً لولا اعتراض الشيخين خير الدين وشيبان على ذلك بقوة. لقد اتخذوا مثل هذا الموقف خشية إضاعة تلك الامتيازات التي تأتت لهم بأعجوبة بعد سنوات من الحرمان. غير أن موقفهم لم يخل من المفارقة لأن إدماجهم في مختلف الأسلاك التابعة لوزارة التربية الوطنية لم يكن، في الواقع، ممكناً إلا بفضل موافقة الشيخ. لم يكن وزير الإرشاد الوطني، الشريف بلقاسم، يوقع على الطلبات الفردية للانضمام إلى سلك التربية الوطنية إلا بعد موافقة الشيخ الإبراهيمي الذي كان يمثّل السلطة المعنوية الوحيدة القادرة على الحكم على المترشح من حيث جدارته بالالتحاق بهذا السلك أو ذاك في التربية الوطنية، بناء على أقدميته، وكفاءاته، وشهاداته في إطار التدريس بجمعية العلماء.

في أواخر أفريل، بعد نهاية الاحتفال بعيد الأضحى مباشرة، تلقيت، في حوالي الساعة السادسة مساء، مكالمة هاتفية من حبيب يوسفي، رئيس ديوان بن بلة، الذي كان معي في سجن فران، ليخبرني أن رئيس الدولة سيزور والدي لتقديم التهاني له بمناسبة الاحتفال بالعيد. لم أصدق ماسمعت لأنه بدا لي أنه من غير المعقول أن يهنىء شخص شخصاً آخر بعد مهاجمته علانية أياماً فقط قبل ذلك! وما كدت أستعيد أنفاسي حتى سمعت صفارات الإنذار للموكب الرئاسي وهي تدوي أمام الباب.

دخل بن بلة، مصحوباً بعبد الرحمان شيبان، النائب في المجلس الوطني عن ولاية سطيف، وكان والدي جالساً في غرفة الضيوف، محاطاً بولديه، محمد وأنا، والشيخ عباس، عضو المكتب الإداري لجمعية العلماء. قبّل بن بلة رأس والدي ثم انطلق في خطاب مطوّل يمكن اختصاره هكذا: «أعترف أنني تأخرت في زيارتك علماً أنك أنت، الشيخ، الذي بيّنت لنا الطريق إلى الإسلام والعروبة؛ وهو طريق سلكناه ولا زلنا نسلكه». خلال مدة اللقاء كلها، لم يتفوه والدي إلا بجملة واحدة مخاطباً زائره: «إذا كنتَ حقاً على طريق الإسلام والعروبة سأظل إلى جانبك، لكن إذا حدت عنهما، سأكون لك بالمرصاد». ثم، ومن دون تمهيد، عقّب بن بلة قائلاً: «أنا، اعترفت بأخطائي في حق الشيخ، لكن هناك شخص بيننا (يقصدني أنا) لا يريد أن يعترف بخطئه في حقي، علماً أننا عرفنا، في السابق، نفس السجن. لقد اقترحت عليه، عبر بشير بومعزة، شغل منصب سفير بالبرازيل لكنه رفض». ولما كنت في حضرة والدي، تفاديت الجدل، غير أنني اضطررت إلى الرد بهذه الصيغة: «المنصب الذي تتحدث عنه لم يعرض علي أبداً، لا عن طريق بومعزة ولا عن طريق غيره. وحتى لو عرض عليّ لرفضته لأنني أظن أنني، في الظروف الراهنة وكطبيب،

أكثر نفعاً منّي كسفير». إثر ذلك، ودّع بن بلة والدي ورافقته إلى الباب. وهو يعانقني، ثم أعطاني بطاقته قائلاً لي: «لا بد أن نلتقي ثانية».

لم أهتف له أبداً، لكن، ذات يوم، في أواخر شهر ماي، وبينما أنا بالمستشفى، اتصل بي حبيب يوسفي ليخبرني إن الرئيس في انتظاري في اليوم التالي على الساعة العاشرة صباحاً بفيلا جولي. ولما كنت لا أملك سيارة، طلبت من زميلي وجاري الدكتور محمد بن عباجي، مدير مركز حقن الدم، أن يرافقني.

دام الحوار الذي جرى بيننا على انفراد أزيد من ساعتين بقليل. بدأ بن بلة بسرد طويل لآخر رحلة قام بها إلى الاتحاد السوفييتي. ومن جملة ما قال في هذا الشأن، لم أبق محتفظاً إلا بهذه الجملة الغريبة: «تصوّر أن خروتشيف أكّد لي أنهم لو كانوا يعرفون مبادىء الإسلام في 1917 لتبنوه أساساً أيديولوجياً لثورتهم» (هكذا قال بالحرف الواحد!». ومن دون سابق إنذار، طرح عليّ هذا السؤال: «إلى متى، الأخ أحمد، وأنت ترفض العمل معنا؟»، فذكرته بما سبق وقلتُه له عندما زار والدي في البيت، أي أنني أفيد أكثر في المستشفى منه في مكان آخر.

بعد ذلك، حوّل اللقاء إلى الحديث عن آيت أحمد وبوضياف اللذين «يبدو أنك تلتقي بهما»، فما كان مني إلاّ الرد عليه أنهما، مثله، رفيقان سابقان في السجن، وأن لقاءاتنا ليست فيها أية سرية ولا بروتوكولات، بينما هو، بوصفه رئيس دولة، كان عليه أن يتخذ المبادرة بلقائهما كما فعل معي في ذلك اليوم. إثر ذلك، انطلق في القدح في شخص آيت أحمد، المستفيد، حسب زعمه، من إعانات مالية من الحكومة المغربية. ثم عاد من جديد إلى الغرض من

استدعائي إلى مكتبه مضيفاً: «لقد فكرت فيك من أجل الانضمام إلى لجنة للإرشاد الوطني تكون تابعة للمكتب السياسي، إلى جانب صالح لوانشي وحسين زهوان وستتكفل بالمسائل المتصلة بالتربية في انتظار تكليفك إياها في إطار الحكومة». العبارة الأخيرة شدت انتباهي بسبب ما كان يشاع عن وجود خلافات بينه وبين وزير الدفاع الوطني العقيد هواري بومدين، تساءلتُ عما إذا لم يكن، في الحقيقة، الغرض من عرضه هو استعمالي ضد بومدين. وبمنتهى الهدوء، أكدت موقفي بشأن تفضيلي للعمل بالمستشفى الجامعي الذي كان يرضيني غاية الرضى ولا أنوي البتة تبديله لا سيما وأن التوجّه العام لنظام الحكم لم يكن ليتفق مع أفكاري على المستوى السياسي والاقتصادي والثقافي.

لقد بدا لي، في نهاية اللقاء، غاضباً وهو يقترح علي ما يلي: «إني متفهم للأسباب التي تدعوك إلى رفض منصب سياسي، لكن إذا طلبت منك التعاون في المجال الثقافي، هل ستقبل؟». رددت بالإيجاب شريطة ألا تفرض الرقابة على ما أكتب كما حدث لي مع المقال الذي أرسلته إلى مجلة Révolution africaine، فأقسم لي أنه لم يكن البتّة وراء ذلك. هكذا تفارقنا على تعانق حار ووعدني أنه سيكلف لوانشي الاتصال بي لاحقاً.

وبعد عودتي إلى المنزل في المساء، حررت مذكرة أنشرها حرفياً لأول مرّة لأنها توضح موقفي علاوة على الأسباب التي أبقتني بعيداً عن نظام الحكم منذ 1962.

«مقابلة مع بن بلة. . . شرح أسباب رفضي. لكن كان الأحرى بي، ربما، أن أخوض في التفاصيل.

خلال السنتين الأخيرتين بعد الاستقلال، ظهرت، شيئاً فشيئاً، إلى العلن تناقضات داخلية:

1. على الصعيد السياسي، بما أنه لا توجد أية علاقة أيدولوجية بين أعضاء المجموعة التي استولت على الحكم، كان من المنتظر أن تؤول الأمور، بعد إقصاءات متتالية، إلى تمركز كل السلطات في يدي رجل واحد واستعمال دستور 1963 لإضفاء الصبغة القانونية والشرعية عليها. فقد وقع إقصاء رئيس الجمعية الوطنية، فرحات عباس، الذي كان يريد توازناً في السلطات ما بين رئيس الجمهورية والبرلمان، كما استبعد الأمين العام لجبهة التحرير الوطني، محمد خيضر، الذي كان يريد الفصل بين الحزب والجهاز التنفيذي. وبعد أن تحول الحزب إلى أداة في يد الحكومة، ماتت الديمقراطية وقتلت روح النقد في المهد. وعوض تشييد حكيم لهرم الحزب انطلاقاً من القاعدة ووصولاً إلى القمة، تمت تعيينات من فوق إلى أسفل؛ وهو ما يفسر كون المؤتمر، وبدل أن يكون مناسبة للمواجهة بين مختلف التيارات الحيّة، كان تبريراً لهذا الأسلوب الانفرادي في الحكم.

2. على الصعيد الأخلاقي، فإن النظام في اختياره للإطارات الوسطى، لم يأخذ في الحسبان إلا اعتبار الولاء، ضارباً عرض الحائط بالكفاءة والنزاهة. هكذا، نمت بيروقراطية استطاعت، بفضل خنوع لا تحده حدود، أن تقوم على الترف بل والفسق في بعض الأحيان، وبذلك ترك «مناضل» الثورة المتنور والشجاع، مكانه لـ«الموظف» الجبان، الجاري وراء إشباع رغباته.

3. على الصعيد الاقتصادي، لم يكن لسياسة نظام الحكم إلا أن تكون ارتجالية. حقاً، كان من الحتميّ أن تفضي ثورتنا إلى تأميم

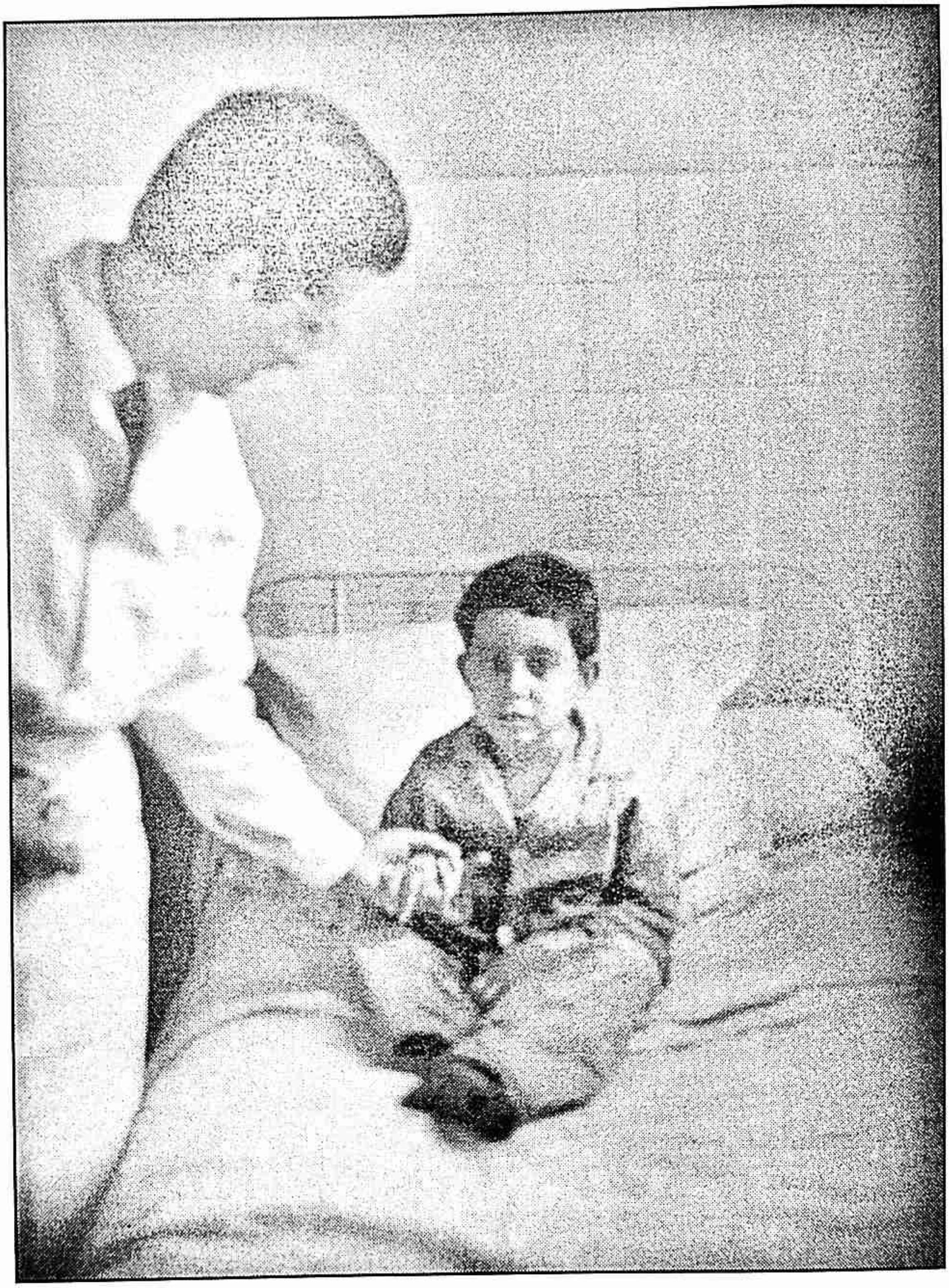
وسائل الإنتاج، غير أن هذا التأميم جرى بطريقة مرتجلة وعلى أساس اعتبارات ذات صلة بالسياسة الداخلية. وإذا أضفنا إلى ذلك غياب إعداد نواة من الإطارات المسيرة، تبيّن لنا لماذا كان الإخفاق حليف هذه السياسة. مثلاً، كيف يمكن أن نفسر الأسباب التي جعلت سهول المتيجة ـ التي كانت تدر سنوياً المليارات من الفرنكات للمعمرين الذين يحولونها إلى فرنسا في حين كان من الممكن استغلالها للرفع من مستوى المعيشة بالمناطق المحرومة مثل الأوراس ـ كيف يمكن أن تصبح هذه السهول تعاني عجزاً في الإنتاج؟.

ومن جهة أخرى، وبما أن الباب فتح على مصراعيه في وجه مغامرين قدموا من بلدان مختلفة لم يجدوا فيها مَوْطِئ قدم لينصبوا أنفسهم في بلادنا منظرين في الاقتصاد، تحولت الجزائر بفعل تطبيق نظرياتهم إلى حقل للتجارب.

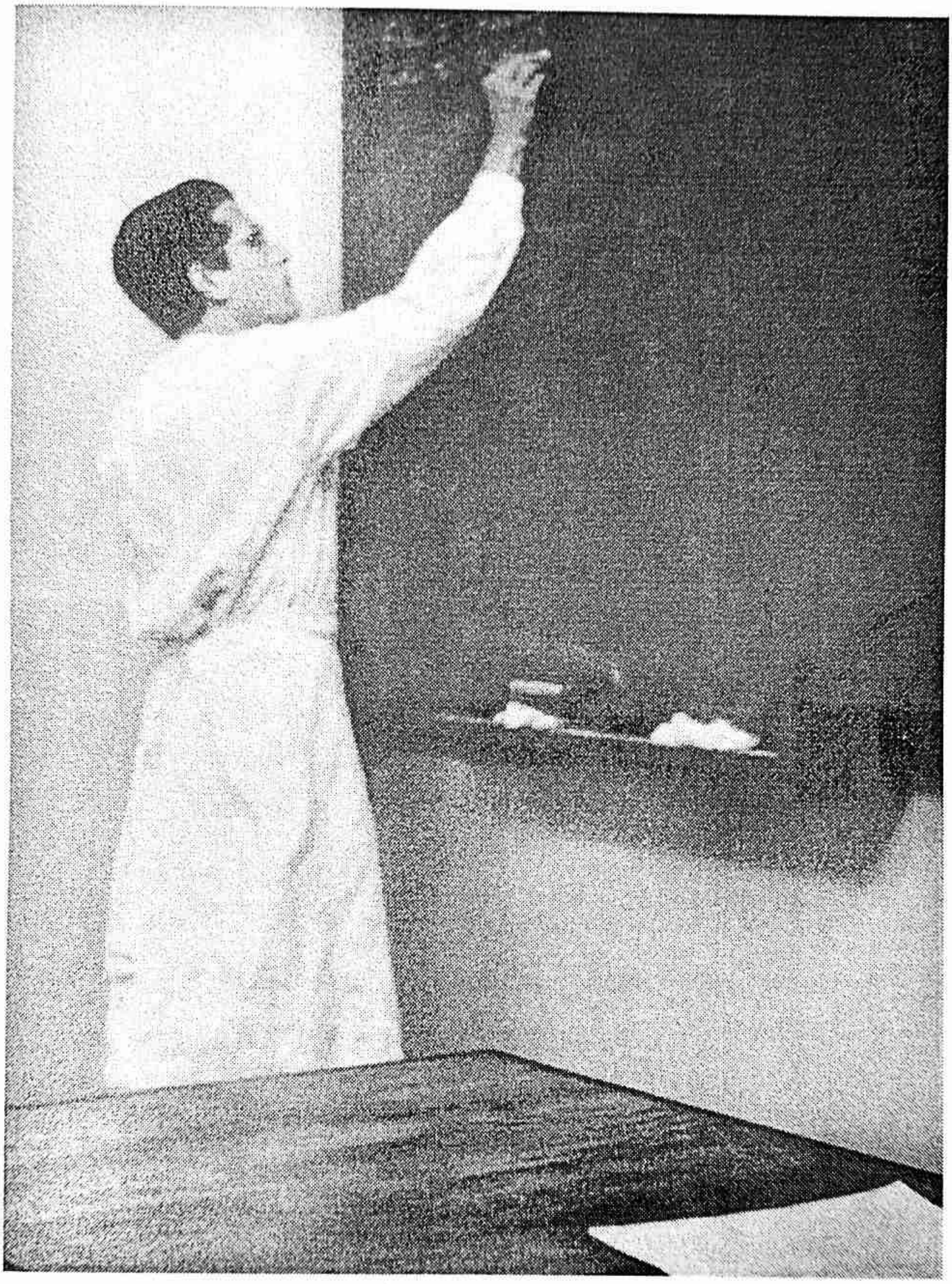
**4.** على الصعيد الثقافي. ظل الاغتراب على حاله حتى إن الكلمة العليا كانت لخصوم تعريب التعليم، علماً أن التعريب كان أحد الأهداف الأساسية للثورة. لقد بقينا سنتين بعد الاستقلال نناقش مشروعين، أحدهما بعيد كل البعد عن منح اللغة الوطنية المكانة اللائقة بها، ومن جهة أخرى لم تتخذ أية مبادرة من أجل تشجيع التكفل بتراثنا الوطني» (انتهى نص المذكرة).

مر شهر جوان 1964 في جو مشحون بالقلق والريبة، وتلك خاصية كل نظام بوليسي. كنا نسمع عن وقوع اعتقالات، وحالات اختطاف، وإحالات على الإقامة الجبرية بجنوب البلاد. في هذا الجو المتأزم تمّ إلقاء القبض على شقيقي محمد في بداية شهر جويلية. لقد خيّم الوجوم في عائلتنا وتهنا في التخمينات بشأن الأسباب التي أدت

بالشرطة إلى اعتقاله، لا سيما أنه لم يخض أبداً في السياسة ولم ينتمِ إلى حزب أو جمعية خارج الاتحاد العام للتجار الجزائرين الذي كان أحد أعضائه المؤسسين سنة 1955 تحت لواء جبهة التحرير الوطني. فهل كان والدي هو المستهدف من هذا الاعتقال؟ تلك كانت فرضية معقولة. أم كنت أنا المستهدف من خلال استنطاق شقيقي حول أنشطتي واتصالاتي؟ وهذا ما لم أتأخر في استجلائه.



الجزائر، مستشفى مصطفى باشا 1963.
المؤلف قرب سرير طفل مريض بمصلحة أمراض الدم



الجزائر، مستشفى مصطفى باشا، 1963، المؤلف يلقي درسه

# 8

# في السجون الجزائرية

## (جويلية 1964 ـ فيفري 1965)

عثرت في أرشيفي الخاص على هذا النص الذي كنت حرّرته بالسجن المدني بوهران في ديسمبر 1964 بطلب من المحامين. ولا أظنني قادراً بعد مضي أكثر من أربعين سنة على الإتيان بأحسن منه اليوم دقّة وتفصيلاً، لا سيما استعادة الجو السائد خلال تلك الفترة القاتمة. لذلك، أقدّمه كما هو، من دون أي نقصان أو إضافة.

«لقد تمّ اعتقالي يوم 12 جويلية 1964 بمنزلنا، إذ بينما كنت أهمّ بالتوجه إلى المستشفى ـ رغم أن اليوم كان يوم عطلة ـ حضر ثلاثة من أفراد الشرطة، بزي مدني وطلبوا مني أن «أتبعهم إلى مقرّ الأمن العسكري حيث ستطرح عليّ بعض الأسئلة بشأن شقيقي محمد» على ألا يستغرق الأمر «أكثر من ربع ساعة»، على حد قولهم، وبعد أن طمأنت والديّ، ركبت سيارة من نوع «دوفين» بيضاء بصحبة شرطيين، بينما ركب الشرطي الثالث سيارة سوداء من نوع «بيجو» 304 كانت تتبعنا.

عندما سلكت السيارة المقلّة لنا مسلكاً متجهاً نحو فيلا واقعة

بالسيدة الإفريقية (Notre-Dame-d'Afrique)، أدركت أنني موجود بدار النخلة (عيادة الدكتور روبي سابقاً)، أي بالمقرات الشهيرة للشرطة القضائية لا مقرات الأمن العسكري. وفور وصولي، أدخلوني مكتباً حيث طلب مني إفراغ كل ما في جيوبي ونزع ساعتي وخيطي حذائي. بعد ذلك، ألقوا بي في زنزانة.

أول شيء قمت به هو تفقد المكان، مقارناً مأواي الجديد بأول زنزانة شغلتها قبل سبع سنوات بسجن فران في فرنسا. كانت زنزانة متسعة من دون ماء ولا مرحاض، وكذا من دون نافذة إلا أنها كانت مضاءة وجيدة التهوية بفضل فتحة في السقف. أما الأثاث، فلم يكن هناك سوى حصير وبطانية وقصعة مما يستعمله الجند ووعاء للتبوّل.

في اليوم التالي، استنطقني طوال النهار مفتش أبدى حسن المعاملة معي. وفي اليوم الذي أعقبه، أي يوم الثلاثاء 14 جويلية، نحو منتصف النهار، طلب مني مغادرة زنزانتي حاملاً معي البطانية. وتم اقتيادي إلى قبو تحت الأرض حيث وضعت في زنزانة مظلمة ذات جدران مشققة مليئة بالحشرات من كل نوع، وفي وسطها حفرة كبيرة كنت أرى فئراناً كثيرة وهي تقفز منها.

لا أستطيع أن أقول كم يوماً قضيت في ذلك المكان المشؤوم. كل ما أتذكره أنني استسلمت للنوم عدة مرات على الرغم مما بذلت من جهد كي لا أنام، وأنني عندما صعدوا بي إلى مكتب «المعلم»[1]، كانت ساعة المحقّق معي تشير إلى منتصف الليل. لم يدم استنطاقي أزيد من خمس دقائق، وعندما وجد «المعلم» أن إجاباتي لم تتغير، اندهش لرؤية «ابن الشيخ الإبراهيمي يكذب من دون أي حياء» على حد تعبيره، ثم أوسعني شتماً بعبارات يأبى علي خُلقي ذكرها ولو

تلميحاً. ثم، وبعد أن أخبرني أن التعذيب ممارسة جارية لدى رجاله، عهد بي إلى «فرقة» من ثلاثة أفراد اقتادوني إلى «غرفة التعذيب».

هناك، أمروني بخلع ملابسي كلها. ربطوني من الأطراف الأربعة على طاولة من رخام، ثم قام الثلاثة بتوزيع المهام في ما بينهم:

ـ كان فضيل يمسك بأنبوب الماء، وبعد ما رشّ بقوة جسمي كاملاً بالماء، ألصق ضمادة على فمي ووضع فيها طرف الأنبوب فبدأت أحس، شيئاً شيئاً، ببطني ينتفخ بالماء إلى حَدِّ القيء.

ـ أما جمال، فكان يمسك بالـ «جيجان»[2] وبعد تثبيت قطب كهربائي على شحمة أذني اليمنى وآخر على خنصر يدي اليمنى وثالث على الذكر، راح يبعث في جسمي شحناته الكهربائية الممزقة.

ـ وأما قدور، فكان يمسك قلماً، وهو جالس في طرف الطاولة على الطريقة التي يجلس بها المحلل النفساني الذي نسمعه ولا نراه. لقد تمثل دوره في طرح الأسئلة عليّ وتسجيل إجاباتي موجهاً إليّ أفحش الشتائم في كل مرة.

السؤال الذي كان يتكرر، وكأنه لازمة، تعلق بانتمائي إلى حكومة معارضة بالمهجر. ومن حسن الحظ أن صديقاً كان قد أخبرني، أياماً قبل اعتقالي، أن إذاعة «مونتي كارلو» بثّت بلاغاً أعلنت فيه نبأ إنشاء مجلس للمعارضة مؤلف من أربعة أعضاء مع ذكر الأسماء: بوضياف، آيت أحمد، موسى حساني، وموسى بن أحمد. وفي إجاباتي، وعلى الرغم من الألم الذي كنت أعانيه، بقيت متمسكاً بهذا النبأ مواصلاً نفيي لأي تورط من جانبي في العملية، مضيفاً أنني

لو كنت فعلاً عضواً في هذا المجلس لما كان بإمكانهم إلقاء القبض عليّ بتلك السهولة.

دام عذاب جهنم هذا ساعات عديدة، ثم فكت قيودي. لم أعرف كيف أرتدي ملابسي من جديد. جررت قدمي بمشقة إلى الزنزانة وارتميت على الحصير، ثم سمعت جرس ساعة السيدة الإفريقية يدق مشيراً إلى الساعة الرابعة صباحاً بعدما وعدني جمال بـ«حصة» أخرى في صبيحة اليوم الموالي، حينئذٍ عشت أحلك اللحظات في حياتي: لقد خطرت ببالي، وكأنها ومضة برق، فكرة الانتحار. ولما لم أجد أي أداة جارحة بالقرب مني، رحت أبكي من شدة الغيظ ضارباً برأسي عرض الحائط، عاقداً العزم علي الفرار في المرة المقبلة عندما أقاد إلى طاولة التعذيب. لن يكون الفرار من أجل الحياة، وإنما من أجل أن تأتيني رصاصات رشاش فتحول بيني وبين الطاولة. وفجأة، تذكرت كل هؤلاء الإخوان الذين قتلهم الجيش الفرنسي برصاصات في الظهر (أو ما كان يسمى بـ «la corvée de bois»)، ولأول مرة تساءلت عما إذا لم تكن «محاولة الفرار» المزعومة حقيقية: عندما يبتلى المرء بالتعذيب يصير الموت لديه أهون من معاودة التجربة. وبعد اتخاذ هذا القرار، استسلمت للنوم. في صبيحة اليوم الموالي، وجدت نفسي عاجزاً عن القيام عندما فُتح باب زنزانتي كي أخرج إلى الساحة، كالعادة، لمدة خمس دقائق من أجل الاغتسال. ومثلي مثل الناجين من «الرعب» الذين يتحدث عنهم جول ميشلي(3)، كنت أرى نور الصباح عند اليقظة، فأتلمس رأسي وأطرافي ثم أصرخ: «ما أجمل الحياة!».

في الأسبوع التالي، كان الاستنطاق صباح مساء، ودائماً في جوّ

من الرعب وتحت طائلة التهديد المتواصل بالتعذيب. كنت كل صباح، أتبوّل دماً، ولم تزُل آثار التعذيب من على جسدي إلا بعد بضعة شهور. كان كل مساء كابوساً بالنسة إليّ: كنت أسمع صراخ المعذّبين، وأتخيّل تلك الطاولة الشيطانية حيث يمر مئات «المشتبه فيهم». آيت شعلال الذي صادفته في الساحة قصّ عليّ، وهو مرعوب، أنهم أتوه بسجين وأمعاؤه في الهواء. لقد عذّبوه بنافثة نار (chalumeau).

يوم 20 جويلية، وضعوا عصّابة على عيني والأصفاد في معصمي، ثم أخذوني على متن عربة إلى مكان مجهول. وهناك، وبعد لف ودوران، وجدت نفسي في حفرة بها حصير، وأمروني بعدم التحرك وعدم نزع العصابة. مع بعض التحايل من جانبي، استطعت أن أرى رواقاً طويلاً يمر به رجال بالزي العسكري ذهاباً وإياباً. في اليوم الموالي، أخذوني إلى مكتب حيث كان ثلاثة أشخاص في انتظاري ادعوا أنهم من الأمن العسكري. في البداية، استنطقني أصغرهم. ثم جاء دور من كان يبدو أنه قائدهم(4) ليقول لي لا تعذيب عندهم عكس ما هو الحال عند الشرطة القضائية، ثم انطلق في نقاش حول مسائل ذات صلة بالسياسة العامة. وفي الأخير، أثار ثالثهم حالة الصحة العمومية وضرورة القضاء على بعض المغامرين الأجانب المندسين فيها. بعد ذلك، قدموا لي قهوة وسجائر ثم عدت إلى حصيري. في اليوم الموالي، أي 22 جويلية، تم تقديمي إلى مصلحة قياس الأجسام (anthropométrie)، ومنها، وعلى الحالة نفسها (بالعصابة والأصفاد)، اتجهوا بي ثانية إلى «السيدة الإفريقية».

الإقامة الثانية لدى الشرطة القضائية، التي استمرت من 22

جويلية إلى 3 أوت، كانت أقل قسوة من سابقتها: كانت حصص الاستنطاق أقل، ولمست، خاصة، سلوكاً أكثر إنسانية لدى بعض أعوان الشرطة، لا سيما حسين، وقاسي، ونور الدين، وهي الأسماء التي كانوا يتنادون بها.

في 3 أوت، إقامة أخرى لدى الأمن العسكري استغرقت ثلاثة أيام: قضيت الليلة الأولى في مثل ظروف إقامتي الأولى، لكن الليلتين الأخريين قضيتهما بزنزانة لائقة حيث حظيت بحسن المعاملة. طلبوا مني تحرير سيرة ذاتية «منذ سن السادسة إلى يوم التوقيف».

في 6 أوت، نُقلت على متن عربة خاصة: النوافذ الوحيدة التي كانت تبعث الضوء بها كانت موجودة في السقف. رفيقاي، من غير ضابط الأمن العسكري الذي كان يحرسنا، هما آيت شعلال، ومحمد بن أحمد، المدعو الرائد موسى، الذي سبق لي التعرّف عليه بوهران، وكان صديقاً لشقيقي. لقد كنا سعداء جداً بالالتقاء من جديد لا سيما وقد ظَنَنَّا أننا تخلّصنا من جحيم «دار النخلة». كانت السيارة تسير منذ ساعات فتخيّلنا أننا متجهون إلى إقامة جبرية بالصحراء الجزائرية. غير أن هذا الوهم سرعان ما تبدّد عندما حططنا الرحال بالسجن العسكري في وهران، حيث كانت الزنزانات في غاية الضيق (1,5 م على 2م) تنتظر وصولنا.

13 أوت كان يوم السقوط في جهنم: أغلقوا عليّ في الزنزانة رقم 65 في الطابق الثاني تحت الطابق الأرضي حيث كان هناك، فعلاً، ماء ومرحاض، لكن أيضاً برد قارس خلال الليل وصمت رهيب. لبثت هناك إلى غاية 22 أكتوبر.

أثناء هذه المدة التي دامت شهرين ونصف، حرمت من ضوء

النهار، ولم أجتز أبداً عتبة زنزانتي. كان باب الزنزانة يفتح ثلاث مرات في اليوم: في الصباح لأمد قدحي من أجل «قهوة» كانت عبارة عن «عصير جوارب» بأتم معنى الكلمة، وفي منتصف النهار، وعلى الساعة الخامسة مساء لتناول «حساء» وقطعة خبز. في الواقع، لم يكن الحساء حساء، وإنما مجرد ماء ساخن تسبح فيه شذرات من الخضر: عدس أو لوبيا، أو قل في أغلب الأوقات فلفل أو باذنجان. طيلة حياتي كلها، لم أعرف جوعاً أكثر فظاعة من الجوع الذي عرفته هناك. وما أن أنتهي من تجرّع ذلك الحساء حتى أبدأ التفكير في قهوة الغد طامعاً في قطعة خبز معها. ولأول مرة في حياتي، أرى في المنام رؤى ذات صلة بالأكل.

إلا أن أصعب ما كان عليّ تحمله في شبه الحياة تلك التي عشتها مدة شهرين ونصف، وما عدا الظلام والجوع، كانت مظاهر القذارة من حولي: من دون صابون ولا ملابس للتبديل، كنت أغتسل كل صباح وعلى الساعة السادسة مساء بماء وفير. وعندما يشعل الضوء (ينطفىء ساعتين أو ثلاث من بعد)، أنصرف إلى حصة خاصة: نزع القمل، بعد ما رفضوا طلبي المتكرر للحصول على مبيد. أما الفراش، فكان مجرد بطانية مفروشة على الإسمنت مباشرة، ولقد عانيت الويل من جراء البرد والرطوبة إلى درجة أنني صرت، في شهر سبتمبر، لا أستطيع استعمال ذراعي اليمنى بسبب الإصابة بداء المفاصل على مستوى الكتف والعضد.

ذات صباح، استيقظت وفي ذهني قصيدة شعرية ثُمانية المقاطع، تصف ويلات ذلك الجحيم الذي لا يطاق. كنت أتلفت كل قصائدي الشعرية في السابق لكنني وجدت نفسي، هذه المرة، مولعاً

بالاحتفاظ بهذه القصيدة. لكن، وفي غياب الورق والقلم، لم يبق لي إلا أن أعوّل على الذاكرة. كتبت هذه القصيدة (باللغة الفرنسية) بعد أسابيع وأنا بالسجن المدني لوهران، وجاءت أبياتها كالآتي:

البرد قارس والظلام دامس

وأنا محبوس منذ شهرين

هل سأقضي هنا ليالي بلا عدد

كما كان الحال في الماضي

أم هو لحدي؟

إنها هدية بن بلّة

***

بعد هول التعذيب

عليّ أن أستريح

في استجمام بين أربعة جدران

أتدرون من منحني إياه؟

هو الصورة المصغرة لستالين

هو ذلك الطاغية الصغير: بن بلّة

***

في هذا السجن العسكري

يسود انضباط حديدي

يسلّط على النزلاء
تحت رحمة عريف
مجنون وماكر وخادم مطيع
للرقيب السابق: بن بلّة

***

في قبضة حرّاس غلاظ
خمسة نوّاب ووزير
يقبعون في هذا المكان المشؤوم
هل سيبقون هنا عقوداً
أم سيصبحون مشاهير
عند سقوط بن بلّة؟

***

رطوبة الزنزانة فائقة
وذراعي الأيمن عاجز عن الحركة
والصحن أجوف إلا من حبّات
قليلة من الجلبانة
تسبح في ماء سخن
تلك هي وليمة بن بلّة

***

أرتدي لباس المسح

وسريري عبارة عن بطانية

مفروشة على اليابس

أخبركم يا أصدقائي

أنني صرت كالمتسكّع

حتى يبتهج بن بلّة

* * *

الصمت الرهيب يسكرني

وليس لديّ ما ينقذني منه

لا زيارات ولا طعام

ولا تبغ ولا كتاب

كيف يستطيع الإنسان أن يبقى حياً؟

اسألوا بن بلّة

* * *

ماذا تريدون أن أفعل

ضد البرغوت والقذارة

وضد اللحية والشعر الطويل؟

أن أنحني أو أن أموت؟

الموت أهون

من الخضوع لبن بلّة

* * *

يا إلّهي لِمَ كل هذه المعاناة؟

لماذا؟ لأن رؤيتي

تختلف عن رؤية بن بلّة

عمّا يفعل وما لا يفعل

عن الجزائر وخطواتها الأولى

عن هويتّها ومصيرها

* * *

أكاد أنفجر من الضجر

أمام هذا الليل الطويل

وأكاد أتمزق من الجوع ومن الوحدة

أحلم بحمّام

وأحلم باستهلال موسيقي...

كما أحلم بجسد...

بين شرشفين أبيضين

* * *

ولكنّني ما زلت أتألم

من خاصرتي ومن ذراعي
والدواء مفقود
فأصرخ تبا لبن بلّة المتعالي
الذي نسي أن اللَّه سبحانه وتعالى
يهوّن الريح على الخروف المجتزّ
وأنه أكبر من كلّ الطغاة

السجن العسكري بوهران 1964/09/09

* * * * *

تمثّلت طريقة الاتصالات التي كان من الممكن تبادلها مع بن أحمد وآيت شعلال في السعال، من أجل تشجيع بعضنا البعض من دون شك، وليؤكد كل واحد منا للآخر «لا زلت حيّاً». وشيئاً فشيئاً، اكتشفنا أننا لم نكن الوحيدين بأقبية السجن العسكري لوهران، إذ كان هناك إطارات من الولاية السادسة لم أرهم قطّ من قبل، وكانوا يتهامسون، من زنزانة إلى أخرى، بكلمات خاطفة لم يلبث العريف بن رحو، قائد حرس السجن، أن وضع حداً لها. كان الوزير محمد خبزي يرتّل، كل صباح، آيات من الذكر الحكيم يقطعها إجهاش بالبكاء، أما النوّاب محمد جغابة، وحسين ساسي، والطاهر لعجل، والشريف خير الدين، والسعيد عبادو، فكانوا يحاولون تبادل المعلومات حول التحقيق الذي خضع له كل واحد منهم. وحسب المعلومات الضئيلة التي التقطتها من تلك الحوارات الخفية، فهمت أن العقيد شعباني تحمّل مسؤولياته كاملة أمام المحكمة لإنقاذ رفاقه، وقرّر الإضراب عن الطعام بمفرده، لأن سجانيه رفضوا تزويده بالحليب

على الرغم من إصابته بقرحة معدية. ذات يوم، ومن خلال الثقب الموجود على باب الزنزانة، رأيته مسنوداً من طرف حارسين أظن أنهما كانا يقودانه إلى التحقيق، تلك كانت أول مرة وآخرها أرى فيها العقيد شعباني الذي حكم عليه بعد أسابيع بالإعدام، ونفّذ فيه الحكم وهو لمّا يبلغ الثلاثين من عمره، بعد ما رفض بن بلّة العفو عنه[5].

في 26 أوت، حظي كل سجين بأول معاملة إنسانية: صابونة وقطعة من البطيخ. لكن في 10 سبتمبر، وعلى الرغم مما كنت أعانيه جرّاء حمّى التهاب في اللوزيتين، وذراع مشلولة، لم يسمح للطبيب بزيارتي.

في 18 سبتمبر، ولأول مرة منذ اعتقالي، أتخطى عتبة زنزانتي لألتحق بموسى وآيت شعلال ومعهما الحلاق. كنا ثلاثتنا بلحى كثيفة سارعنا إلى حلقها. وتساءلت في طريق العودة إلى الزنزانة: هل الأمر يتعلق بانفراج ما؟ لكن سرعان ما دب الشك إلى نفسي عندما أحجم رفيقاي عن الردّ كالعادة على «سعالي». حينئذٍ، تملّكني قلق شديد وتساءلت عمّا إذا كانا قد استفادا من الإفراج؛ وكان ذلك يعني أن حالتهما أقل خطورة من حالتي.

عشت بهذا القلق إلى غاية 20 أكتوبر، حيث زارني الوكيل العسكري للجمهورية، ميلود، مرفوقاً بمساعده الذي لم يكن شخصاً آخر غير قدور الغبريني، رفيقي السابق بسجن فران. أعلمني الوكيل بنقلي الوشيك إلى السجن المدني لوهران، إلى حيث سبقني الرائد موسى وآيت شعلال.

في 22 أكتوبر، أخرج من الزنزانة إلى الطابق الأرضي لأنعم بضوء النهار من جديد، وأسعد بلقاء محاميتي جاكلين جيجار

Jacqueline Jaejer التي وافتني بأخبار عن عائلتي. وفي 24 أكتوبر، تم نقلي إلى مقر الدرك الوطني (حي سانتوبار بوهران) حيث لاقيت معاملة حسنة. وفي 28 و 29 أكتوبر، خضعت لتحقيق «متحضّر» على يد المحافظين السايح وبوعلام لدى الشرطة القضائية لوهران، ومن ثمة أحلت على وكيل الجمهورية لدى النيابة العامة بن بلال لأجد نفسي، في الأخير، بالسجن المدني لوهران.

إن أشدّ ما لفت انتباهي أثناء هذه التحقيقات هو عدم إثارة أي من المحققين معي مسألة المشاركة في حكومة منفى (موضوع جلسة التعذيب السابقة). فكلّ ما صار يردد، هذه المرة، هو الاستفسار عن السبب الذي جعلني أرفض المشاركة في الحياة السياسية، فكان ردّي بما مفاده:

في جويلية 1962، كان أمامنا، في رأيي، طريقان:

1. بما أن صفحة جديدة من تاريخ الجزائر انفتحت مع استعادة الاستقلال، كانت، وككل صفحة جديدة، تستدعي رجالاً جدداً؛ وهو ما لم يفهمه مصالي خاصة في الفاتح من نوفمبر 1954. وعليه، كان على القادة التاريخيين أن ينسحبوا صراحة من الساحة، تاركين المكان لإطارات أفرزتها حرب التحرير في الداخل والخارج على حد سواء.

لكن لم يكن لمثل هذا الحل أن يرى النور من غير أن تكون الإطارات الشابة جاهزة لهذا الدور، جسدياً ومعنوياً معاً. غير أن معظم الناجين في الداخل، لم يكونوا يتطلعون لأكثر من الركون إلى قسط من الراحة (وأنا، على أية حال، أتفهمهم جيداً)؛ بينما لان عود الناجين في الخارج بفعل تعوّدهم على الحياة السهلة.

2. ولما كان مثل هذا الحل «الجذري»، «البطولي»، مستحيلاً،

كان هناك حل آخر في متناول الجميع، ألا وهو الوحدة الوطنية. حينئذٍ، كان على «التاريخيين»، وبعد إدراكهم لضعف قدراتهم الفردية، أن يقبلوا بالعمل اليد في اليد، ومن حولهم جميع الإطارات الوسطى. وكان هذا الحل بالنسبة لي منطوياً على ثلاثة محاسن:

ـ فمن جهة، كان بإمكانه إتاحة ربط الحماس الشعبي في مرحلة الكفاح المسلح مباشرة بمرحلة البناء الوطني، من أجل تفادي الحلول المضرة الناجمة عن الاستمرار في الخط نفسه وما يترتب عليه من خطر جسيم هو لامبالاة الجماهير.

ـ ومن جهة ثانية، كان بإمكان هذا الحل السماح للشعب الجزائري باستعادة أنفاسه وتضميد جراحه، مع تجنيبه أهوال الحرب الأهلية وويلات «الكنغلة» «congolisation».

ـ وأخيراً، كان منتظراً من هذا الحل إتاحة الوقت الكافي للمسيرين للتفكير بشكل أفضل في المشكلات المطروحة بعد استعادة الاستقلال، خاصة في إعداد الإطارات وتدريبها على التسيير الاشتراكي (socialisation). وهكذا، كان من الممكن ضمان أحسن مرحلة انتقالية من اقتصاد ذي طابع استعماري إلى اقتصاد ذي طابع اشتراكي.

إلا أن هذا الحل لم يكن ليتأتّى، هو الآخر، من دون أن يتحلى «التاريخيون» بالتواضع وبحسّ عال بالمسؤولية. لكن، مع الأسف الشديد، وصل الأمر بكلّ واحد منهم إلى الظنّ بأنّه قطب العالم، وأن كلّ شيء كان يجب أن يقع، أو لا يقع، بأمره.

وبما أن الحظ لم يكن، في النهاية، حليف أحد الحلين، أصبح، في رأيي، ظهور شقاق مبكر أمراً وارداً لا محالة. ولو شاء اللّٰه لكان الشقاق حول أفكار، حول برنامج حتى يتمّ، ولأول مرة، الخوض في

المسألة الأيديولوجية صراحة، من دون لف ولا دوران، والبتّ فيها بشكل أو بآخر بعدما لم يتناولها مؤتمر الصومام إلا من بعيد وتجنب مؤتمر طرابلس الخوض فيها. هذا العجز كان سببه جُبْن المثقفين، وضعف القادة، وضحالة الفكر لدى هؤلاء وأولئك على حد سواء.

لذلك، حدث الشرخ في جويلية 1962. لكن لحزني الشديد، ولسوء حظّ الجزائر، وقع هذا الشرخ حول أشخاص فانتهى الحكم إلى يد مجموعة منهم. بعد ذلك فقط، رفعت هذه المجموعة (أي مجموعة تلمسان) «راية» الاشتراكية كتبرير أيديولوجي لأمر واقع. من منّا، في الجزائر، لم يكن اشتراكياً آنذاك؟ لقد ذقنا من الويلات جراء الاستعمار ما جعلنا مستعدين لبذل ما أمكن من الجهود في سبيل تطبيق مبدإ العدالة الاجتماعية. ليس هناك أبداً من تفسير آخر لتأييدنا للسياسة الاشتراكية. ولا أدل على ذلك من أن القادة الرئيسيين الذين كانوا يتعجرفون بتلمسان، في جويلية 1962، صاروا، بعد سنتين، «خونة» أو «حيات متعطّشة»، بينما أصبح «أعداء الثورة»، وكما ينعتون في جويلية 1962 آنذاك أقطاباً لنظام الحكم سنة بعد ذلك!.

وبعدما فكّت خيوط الأزمة بالطريقة التي فكّت بها، ترى، ماذا يجب أن يكون موقفي منها؟ وبما أن أياً من الحلين اللذين كنت أقترحهما لم يُعتمد، وبما أنني، شخصياً، لم أحدد أبداً موقفي السياسي على أساس الولاء لشخص مهما يكن، فلم يبق أمامي، إذاً، غير اتخاذ هذا القرار، وهو وضع حد لحياتي النضالية والانصراف إلى خدمة بلدي في إطار تقني محض. ذلك هو ما يفسر سبب التحاقي بمستشفى مصطفى باشا، في سبتمبر 1962، علماً أن ملفي كان موجوداً على مستوى كلية الطب بباريس، حيث عرض عليّ موضوع

لرسالة الدكتوراه. وهو ما يفسر أيضاً عدم قبولي لجميع المناصب التي اقترحت عليّ حتى الآن.

في 15 نوفمبر، مر على وجودي بالسجن المدني لوهران أسبوعان حيث سعدتُ بلقاء آيت شعلال وبن أحمد ثانية. وعندما لاحظت عليهما بعض السمنة، اعترفا لي أنهما كانا يتناولان أطعمة مشبعة بالسكريات، بالإضافة إلى أن إحدى العائلات الوهرانية ـ فضلت كتمان اسمها ـ كانت، من حين إلى آخر، ترسل إليهما مأكولات شهية.

كنا نطالع من الكتب ما كانت مكتبة السجن توفره لنا، ولاحظت بين رفوفها سيادة المؤلفين من اليمين الفرنسي في فهرس الكتب: لوي بارتران، بيار غاكسوت، دانيال روبس.

في إقامتي الجديدة أصبحت أحظى بزيارة أفراد عائلتي التي بقيت، للأسف، شهوراً تعاني الغم بعد ما باءت بالفشل كل محاولاتها في البحث عني، والكشف عن مصيري إن كنت حياً أو ميتاً ولم تعرف مكان اعتقالي. كما كان يزورني محامون سارعوا، متطوعين إلى مساعدتي إلى أن صاروا من أعز أصدقائي. أذكر منهم كلا من: ميشال بوفيلار وجاكلين جيجار، اللتّين كانتا مُحامِيَتَيَّ عندما كنت بسجن فران، بالإضافة إلى شريف الماطري من تونس الذي أخبرني بانضمام محامين مغربيين إليه من أجل الدفاع عني، وهما مهدي العلوي وعبد الكريم بن جلون وأطلعني الماطري على مقال كتبه كلود روا في جريدة «لوموند» حول اعتقالي والذي أحدث ضجة حسب قوله.

لقد تكوّن عندي الانطباع أن التحضير لمحاكمتي كان جارياً على قدم وساق، وإلا كيف يمكن تفسير تلك التحقيقات الوهرانية التي كان الهدف منها «تلفيق» ملف يحظى بقبول المحامين الأجانب،

ويحتوي على تهم يمكن تصديقها، ولا أدلّ على ذلك من تلك الجلسات التي كانت لي مع الشرطة القضائية بوهران مسبوقة بزيارة إلى مقرّ الدرك الوطني كانت أكثر من لائقة بهدف «ترميمي» وتحويلي من ذلك السجين النحيف والأشعث إلى متهم يتم تقديمه للنيابة العامة بمظهر لائق. هكذا، أُرِيدَ لي أن أقدَّم على أساس أنني سجنت منذ 24 أكتوبر فقط، كأنّهم أرادوا محو كل تلك الفترة الممتدة من 12 جويلية إلى غاية ذلك التاريخ، ولكي يتسنّى لهم عدم الاعتراف بأن الأمر متعلق باعتقال غير قانوني.

إلا أن هذه الفترة بالذات هي التي استحال علي نسيانها. أيعقل أن يستخدم، في ظل الجزائر المستقلة، التعذيب الذي لطالما نددنا باستعماله من قبل الجيش الفرنسي؟ وربما على يد من كانوا مساعدين للضباط الفرنسيين الجلادين؟ ربما كنت سأرضى بالصمت لو كنت الوحيد الذي خضع لـ«الاستجواب» لكن صيحات المعذبين لا زالت تدوي في أذني، صيحات الآلاف من الجزائريين ممن كابدوا، مثلي، أنواع العذاب على تلك الطاولة المشؤومة، طاولة المرمر الأبيض.

ومع ذلك، لا ينبغي أن يظنّ أحد أن السلطة تخلّت عن سياسة العصا واكتفت بسياسة الجزرة فقط. فمن حين إلى آخر، كانت العصا تظهر من جديد: تفتيش عنيف لزنزانات في 9 ديسمبر واستنطاق في المسائل «الجوهرية» من طرف النائب العام في 16 من الشهر نفسه. في 23 ديسمبر، تعود الجزرة من جديد عندما زارنا عبد القادر حاج علي، الأمين العام لوزارة العدل، ليخبرنا أن الوزير الجديد، محمد بجاوي، منكب بجد على دراسة قضيتنا، وكأنّ العدالة تتمتع بقسط من الاستقلالية(6).

في 8 جانفي 1965، غادرنا، آيت شعلال وأنا، السجن مكبلين

برفقة شرطيين بالزي المدني، مشينا في شوارع وهران، تلك المدينة التي وصفها ألبير كامو في روايته الشهيرة «الطاعون»، التي كان الخوف سيد الموقف فيها. كان الناس يسترقون النظرات إلينا، ثم يغضون من طرفهم مواصلين سيرهم. وعندما وصلنا إلى محطة القطار، ركبنا القطار المتوجه صوب العاصمة لنجد أنفسنا بسجن الحراش.

لا زلنا، إذاً، رهن الحبس، لكن هذه المرة كنت بالقرب من والديّ. بدأت الزيارات تتوالى، وفي 12 جانفي وصلتني أول قفة من والدتي وتلذذنا، آيت شعلال وأنا، بما حملته لنا من أكل. ومع حلول شهر رمضان، في جانفي 16، صارت القفة تصلنا كل يوم.

هناك شخص يحمل اسماً قريباً من اسم وزير العدل ولكنه لا يقربه في شيء، كان له دور حاسم في إطلاق سراحنا. إنه محمد لبجاوي، قريب من بن بلّة وصديق قديم له. في أول زيارة له إلينا، أضحكنا مدة نصف ساعة بلهجته الساخرة من الدولة ومن المجتمع معاً. ثم اطْلَعَنَا على جميع المساعي التي قام بها من أجل الإفراج عنا لأن ملفنا، كما قال، كان فارغاً تقريباً. وفي زيارته الثانية، أياماً قبل الاحتفال بعيد الفطر، أبلغنا أننا أحرار وأنه جاء ليخرجنا من السجن. ومع ذلك، تجرأت على طرح بعض الشروط: عدم ركوب سيارة تابعة للسلطة أو التوجه إلى مؤسسة رسمية (كنت أفكر «في فيلا» جولي مقر رئيس الجمهورية). أقسم أنه سيستعمل سيارته الخاصة ليقودنا إلى منزل والديّ. وقد شد انتباهي أننا غادرنا السجن من دون وثيقة التسريح؛ ومعنى ذلك أن دولة القانون هي آخر ما يبالي به الطغاة. بعد ساعة من الزمن، وصلنا فعلاً إلى المنزل العائلي الذي استطاع، بعد سنة من الحيرة والقلق، أن يتنفس الصعداء ويفرح باجتماع الشّمل من جديد.

## هوامش الفصل الثامن

(1) هو محمد حمداش الشهير، رئيس الشرطة الخاصة لابن بلّة.

(2) آلة تعذيب بالكهرباء في العهد الاستعماري.

(3) Jules Michelet مؤرخ شهير للثورة الفرنسية كتب «في الرعب» («La Terreur») الذي شهدته أواخر هذه الثورة.

(4) هو الرائد ابن حمزة، أما الآخران فهما عبد المالك كركب الذي أصبح فيما بعد مسؤول حراسة الرئيس بومدين، والصادق آيت مصباح الذي صار لواءاً في الجيش الوطني الشعبي.

(5) أكّد هذه الحقيقة الرئيس الشاذلي بن جديد في تصريح له للصحافة في ديسمبر 2008.

(6) هنا انتهى النص المحرّر بسجن وهران المدني.

# 9

# قبيل وفاة والدي وبعدها

## (فيفري - جويلية 1965)

ينبغي أن أعترف أن أخشى ما كنت أخشاه، وأنا بالسجن، هو تدهور حالة والدي الصحية. وعندما خرجت من السجن، وجدته تقريباً في الحال التي تركته عليها منذ سبعة شهور، كما لو أن المحنة لم تزده إلا قوة. لكنني حرصت ألا أنبس أمامه ببنت شفة عن معاناتي في السجن.

ينبغي لي أن أعترف، أيضاً، أن أخشى ما كنت أخشاه أن تسعى بعض «النفوس الخيرة، الحسنة النية» إلى انتهاز كبر سن والدي ومرضه لحمله على التوّسل لدى رجال الحكم من أجل الإفراج عني. وأعربت لأخي محمد عن هذا الانشغال عندما زارني ذات مرة بالسجن المدني لوهران، محذراً إياه من مغبة مثل هذا المسعى. وها هو يخبرني، بعد إطلاق سراحي، أن أشخاصاً اتصلوا فعلاً بوالدي وعرضوا عليه القيام بـ«زيارة بسيطة لرئيس الدولة - رداً على تلك الزيارة التي قام بها إليه هذا الأخير في أفريل 1964 - وستكون هذه اللفتة كافية للإفراج عن أحمد». وما كان لوالدي إلا أن يرد بهذه

العبارة: «تعلمون جيداً مدى الحب الذي أُكِنُّهُ لأحمد، وهو أقرب أبنائي إليّ؛ ومع ذلك، لن أقوم بمسعى من هذا القبيل ولو قطعوه إرباً إرباً!. لقد ظل، ولله الحمد، الثابت الصلب إلى أن التحق بالرفيق الأعلى.

ما كان مهماً، بالنسبة إلي آنذاك، هو أن أطمئن على صحة والدي الجسدية والمعنوية. وعندما تحقق لي ذلك استحسنت طلب كل من حثني على الخلود إلى الراحة مدة أسبوعين، فغادرت الجزائر العاصمة، صحبة آيت شعلال، نحو فاربيي، وهي محطة جبلية بسويسرا، حيث حاولنا أن ننسى معاناة الاعتقال، وحيث كنا نقضي ساعات طوالاً في المشي على تلك الثلوج الناصعة البياض ونتمتع بدفء الشالي السويسري الذي كنا مقيمين به. ومع ذلك، لم يبرح خاطرينا كابوس ما قاسيناه «بدار النخلة» وزنزانة السجن الوهراني.

بعد الإقامة بسويسرا، طرنا إلى تونس لتقديم واجب الشكر والعرفان لكل من تضامن معنا هناك، وأخص بالذكر الصحفية درّة بوزيد التي استطعنا بفضلها قضاء أوقات ممتعة مع كل من محمود المسعدي، الذي حدثنا ببراعة عن رائعته «السد»، والمحامي الشريف الماطري الذي كانت والدته مثالاً لكرم الضيافة.

اغتنمنا فرصة وجودنا بتونس في بداية شهر أفريل 1965 لتحسيس حكومة الرئيس الحبيب بورقيبة بشأن مصير المناضل حسين آيت أحمد الذي حكم عليه النظام الجزائري بالإعدام، منذ فترة قصيرة، وحاولنا إقناع هذه الحكومة بالتدخل لدى السلطات الجزائرية قصد تحويل عقوبة الإعدام إلى عقوبة بالسجن.

وبعد عودتنا إلى الجزائر العاصمة، استأنفت عملي طبيباً

بمستشفى مصطفى باشا وأستاذاً مساعداً بكلية الطب. حينئذٍ، علمت أن بعض الزملاء من الأطباء تدخلوا بشجاعة وفعالية من أجل إعادة راتبي الشهري الذي قطعته الإدارة فور اعتقالي.

* * * * *

في أفريل 1965، عندما عدنا، آيت شعلال وأنا، إلى أرض الوطن قادمين إليها من تونس، وجدنا أجواء الأحقاد والقمع والسخط والشائعات تسود العاصمة.

فأما الأحقاد، فكانت نتيجة ثلاث سنوات من الحكم تميّزت، ليس بالارتجال والديماغوجية فحسب، وإنما أيضاً بالانتهاكات المتكررة لحقوق الإنسان. وإذا كانت 1962 سنة الفتنة، فإن سنة 1963 تميّزت بظهور شروخ في جدار السلطة أبرزت تناقضات داخلية عميقة: استقالة محمد خيضر، الأمين العام لجبهة التحرير الوطني (الرقم الثاني في السلطة)، في أفريل، نتيجة لخلافه مع رئيس الدولة؛ ثمّ استقالة فرحات عباس، رئيس المجلس الوطني (الرقم الثالث في السلطة)، في أوت، احتجاجاً على ما أسماه بـ«سفيتة» (soviétisation) الجزائر؛ ثمّ تمرّد حسين آيت أحمد، في سبتمبر، تعبيراً عن رفضه للحكم الفردي. لقد أدت هذه السلسلة كلّها من المعارضات بالرئيس بن بلّة إلى الاستيلاء على جميع السلطات ابتداء من شهر أكتوبر.

وإذا كانت 1963 سنة الشقاقات، فإن 1964 كانت سنة القمع. في جويلية - وفي نفس الوقت الذي أنشئت فيه «مليشيات شعبية» واستقال أحمد مدغري من منصبه كوزير الداخلية احتجاجاً على سحب بعض صلاحياته من طرف الرئيس بن بلة - طالت حملة الاعتقالات

كلا من فرحات عباس الذي وضع تحت الإقامة الجبرية بأدرار، والعقيد شعباني الذي نفذ فيه حكم الإعدام في سبتمبر ولم يتعدَ سن الثلاثين، وآيت أحمد الذي حكم عليه بالإعدام بعد أشهر، وقبل ذلك اعتقالي كما سبق.

وأما الشائعات، فكانت كلها متفقة على أمر واحد: ستكون 1965 سنة التوضيح. لقد كان جميع الناس متفقين على القول إن العلاقات بين بن بلة وبومدين كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم وإن الخلاف بين الرجلين آئل لا محالة، إلى إقصاء أحدهما. في هذه الأثناء، كانت وسائل الإعلام (التابعة كلّها للسلطة) تواصل تمجيد «الرئيس المحبوب»، مؤكدة محاسن النهج الاشتراكي، وتبرز في نشراتها وعلى صفحاتها حكمة ميثاق الجزائر، وتركّز على الإعداد الحثيث للقمة الأفروأسياوية (المقررة لشهر جوان)، وكثرة الرسميين الأجانب الزائرين للجزائر.

أمام سخط بعض السياسيين وتحركات بعضهم الآخر، لم أجد ما أقوله لآيت شعلال غير الإشارة إلى تلك الملاحظة التي أبداها فرنسوا مورياك بشأن ذلك «البون الفظيع بين التاريخ وبين صغار الرجال المتهافتين في صنعه».

* * * * *

واصلت تكتمي عما عانيته في زنزانات بن بلة، ولا شك أن ذلك كان بدافع الحياء فضلاً عن كوني أرفض أن أكون شاهداً ضد بلدي. ومع ذلك، كان لي، ذات يوم، موعد مع الدكتور عبد العزيز خالدي الذي عرفته منذ فترة «الشاب المسلم». وجدته بصحبة سيدة

قدمها لي على أنها «صديقته». ومن موضوع إلى آخر، اتجه اللقاء نحو إثارة ظروف اعتقالي الأخير بالسجون الجزائرية، وسرعان ما وجدت نفسي مدفوعاً إلى الحديث عن هذه الظروف بكل ثقة. ولكن كانت دهشتي كبيرة، أياماً من بعد، وأنا أكتشف على صفحات Jeune Afrique مقالاً للدكتور أحمد طالب قدمته جوزيت عاليه Josette Alia. ومن فرط سخطي، راسلت هذه الأخيرة لائماً إياها على تلك الطريقة الشائنة مطالباً إياها بنشر تكذيب. في الحقيقة، ما كنت أندد به، في هذه الحالة، هو شكل المقال الذي لم يكن معداً للنشر، أما في ما يخص المضمون، فلم أكن مغتاظاً أبداً وأنا أرى الرأي العام يكتشف أن التعذيب كان يمارس على نطاق واسع في عهد الجزائر المستقلة. وكما كان منتظراً، تفادت وسائل الإعلام الرسمية أية إشارة إلى الموضوع.

*****

في أوائل شهر ماي، تدهورت حالة والدي الصحية فجأة. كنت والأستاذ سعيد سليمان طالب نتناوب على البقاء بجانبه إلى أن وافته المنية يوم 20 ماي 1965. فحتى وإن كان المرء يتوقع وفاة عزيز عليه، إلا أن الموت، عندما يدرك صاحبه، يكون لذويه بمثابة الصاعقة. لقد شعرت كأن جسمي سحق وبتر جزء منه، إلا أنني كنت مضطراً إلى رباطة الجأش كي يتسنى لي استقبال حشود المواطنين والشخصيات الوافدة للانحناء أمام جثمان والدي، لأن نبأ وفاته، الذي أذيع عبر أمواج الأثير، انتشر بسرعة البرق في أرجاء العاصمة والوطن كلّه.

كان العقيد هواري بومدين، وزير الدفاع، من بين هؤلاء الذين توافدوا إلى البيت لإلقاء النظرة الأخيرة على الجثمان الطاهر. وكانت تلك أول مرة أراه فيها باعتباره القائد الوحيد في الثورة، الذي لم أكن أعرفه من قبل، فقرأ الفاتحة ثم خاطب الحاضرين ـ نحو عشرين شخصاً ـ قائلاً: «إن رحيل الشيخ البشير الإبراهيمي لا يعد خسارة لأسرته وحدها. فبرحيله تفقد الجزائر، بل والعالم الإسلامي قاطبة، رجلاً كرّس حياته كلها من أجل عزة الجزائر والإسلام. تغمد اللَّه الفقيد برحمته الواسعة».

في تلك الليلة، لم تنقطع وفود المعزين واضطررت إلى القيام بجهد يتعدى طاقة الإنسان من أجل الظهور بمظهر لائق، كاظماً آلامي وأحزاني.

في اليوم الموالي، أي في 21 ماي، كان يوم مراسيم الدفن. فضّل بن بلة، الذي كان من المنتظر أن يعود إلى العاصمة بعد زيارات قادته إلى شرق البلاد، تمديد جولته هناك لتفادي حضور الجنازة. غير أن مدير مؤسسة الإذاعة والتلفزة الوطنية، السيد ماحي، أظهر شجاعة لا تصدَّق عندما قرر نقل مراسم الدفن مباشرة في التلفزة بعد ما قطع، الليلة التي سبقت، البرنامج الإذاعي المعتاد لبث آيات بينات من القرآن الكريم حداداً على فقدان الراحل؛ ولكن هذا التصرف عرضه، في ما بعد، إلى شديد غضب الرئيس وانتقاده اللاذع له. كما أظهرت يومية «الشعب» الرسمية شجاعة غير معهودة هي الأخرى، عندما نشرت، في عددها الصادر بتاريخ 22 ماي، مقالاً بعنوان «الشعب في جنازة الإمام»، مشيرة ـ وهو ما كان أمراً غريباً حقاً ـ إلى ذلك التلاحم بين الشعب وأفكار الراحل.

انطلقت الجنازة من الجامع الكبير الذي كان إمامه الشيخ أحمد سحنون يومئذٍ، واتجه المشيعون، مشياً على الأقدام، نحو مقبرة سيدي أمحمد الكائنة بحي بلكور. كان هناك ما لا يقل عن مائتي ألف من المواطنين، حسب تقدير الإذاعة الوطنية نفسها، أبوا إلا أن يسيروا في الموكب الجنائزي تعبيراً عما كانوا يكنونه للشيخ من احترام ومحبة. ومن الشرفات، تعالت زغاريد النسوة. ألم تكن تلك الجنازة الشعبية، في ذات الوقت، وسيلة غير منتظرة بالنسبة إلى أعداد كبيرة من الجزائريين من أجل تحدي بعض رموز السلطة المعادين للشيخ في حياته؟.

استغرقت المسيرة زهاء ساعتين لقطع مسافة بضعة كيلومترات من الجامع إلى المقبرة. حضر رفاق بومدين من بينهم: الشريف بلقاسم، وزير الإرشاد الوطني، الذي كان في المسيرة منذ انطلاقها، أحمد مدغري وزير الداخلية، ثم عبد العزيز بوتفليقة الذي التحق بنا مرفوقاً ببعض سفراء الجزائر المعتمدين في الخارج، وكان كوزير للخارجية قد سمح لموظفي وزارته بالخروج في الصبيحة، لتمكين من أراد منهم حضور الجنازة، وهذا خلافاً لوزير الشؤون الدينية والأوقاف والتلميذ السابق للشيخ، الدكتور التيجيني هدام الذي صرح لموظفيه الذين طلبوا منه الترخيص نفسه أنه ينتظر الضوء الأخضر من الرئيس!.

وعند وصولنا إلى ساحة أول ماي، فوجئنا برؤية رجال بن بلة وهم يتباهون بالانضمام إلى الموكب الجنائزي. كان من بينهم حاج بن علاّ، رئيس المجلس الوطني، وآيت الحسين، عضو المكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني. لا بد أن أمراً ما وصلهم بهذا الشأن، كيلا يتخلفوا بالنسبة إلى موقف بومدين، ولا يتركوا الساحة لرفاقه

دون غيرهم. وقد حز في نفسي كثيراً وأنا أرى والدي، وهو ميت، يصير رهاناً لتلك العصب المتناحرة على السلطة.

بالمقبرة، استطعت أن أرى وجوهاً عديدة من بينها مولود قاسم وبن يوسف بن خدة. ومن المؤكد أن فرحات عباس لو لم يكن تحت طائلة الإقامة الجبرية، بأدرار، لكان حاضراً بيننا. كيف لا؟ وهو الذي كتب، في ما بعد، يقول: «في هذه الفيلا الواقعة بجنوب البلاد، بلغني نبأ وفاة الفقيد الشيخ البشير الإبراهيمي... إنها شخصية كبيرة ترحل عنا! إن الشيخ البشير رفيق سجن، بعد حوادث ماي 1945، بالسجن العسكري لقسنطينة، وكان أيضاً، أبي الروحي»[1].

الشيخ محمد خير الدين (أحد الأعضاء السابقين في أول مكتب إداري لجمعية العلماء القليلين ممن بقوا على قيد الحياة) هو الذي قرأ خطبة التأبين. غير أن اللحظة التي تأثرنا فيها أيما تأثر كانت عندما قام أمير شعراء الجزائر، محمد العيد آل خليفة، يلقي قصيدته التأبينية ذات المستوى الأدبي الرفيع والشحنة العاطفية الكبيرة. لقد أبكى جميع الحاضرين، ولم يستطع، هو ذاته، التحكم في دموعه وراح يجهش بالبكاء خاصة عندما قال:

فسلاماً ولا أقول وداعاً أبت النفس أن تراك عديما

عشت فوق الثرى عظيماً فأحرى بك أن تسكن السماء عظيما

ظلت التعازي تصلني لأسابيع عديدة، سواء عبر الهاتف والبرقيات، أو من خلال زيارات من لم يستطع، لسبب أو لآخر، حضور مراسم الدفن. كنت أقضي يومي في العمل بالمستشفى والكلية، ومسائي في استقبال الزيارات. كانت هذه الحركة تشغل بالي

غير أنني سرعان ما كنت، بعد مغادرة المعزين، أشعر بوطأة غياب والدي.

*****

ها أنذا، إذاً، يتيم الأب في سن الثالثة والثلاثين، أواجه سلطة معادية أرتني من كل ألوان العذاب. وكنت أرد على من كان ينصحني بمغادرة البلد بعد رحيل الوالد، أن الخلود للّه وحده وأن البلد ملك للجميع.

لم أجد مواساة إلا في الانهماك في عملي، حريصاً على الإعداد الحثيث لمسابقة التبريز في الهيماتولوجيا. كان من المتوقع أن تجري هذه المسابقة في غضون السنة الموالية.

ومع ذلك، كان لي هم آخر: كانت والدتي ترفض رفضاً قاطعاً مواصلة العيش بالبيت الذي شهد وفاة والدي، فاضطررت إلى البحث عن شقة أستأجرها لها بالقرب من شقتي بحي تليملي.

في 19 جوان، الساعة الخامسة صباحاً، أيقظني رنين الهاتف. كانت المكالمة من صديق يخبرني أن بن بلة لم يعد رئيساً، وأن مجلس ثورة برئاسة بومدين حل محله. أطللت من الشرفة فلم أر أية علامة تغيير بادية، ولم أسمع أزيز الدبابات، علماً أن مخاطبي لم يكن من ذلك الصنف المازح. وفي الصباح، تأكد الخبر: بن بلة سقط! لقد وقع الانقلاب من دون سفك للدماء أو مظاهرات مناوئة في العاصمة! ذلك هو مصير كل طاغة! حينئذٍ تساءلت في نفسي: أين هم من كانوا يهتفون باسم «القائد المحبوب»، أين هم قارعو الطّبول على شاشة التلفزة الوطنية؟ وأين هم خدمه المطيعون وجلادوه، وأين هي

مليشياته، وأين هم وزراؤه، وولاته، وسفراؤه؟.

* * * * *

بعد مرور أسبوع على هذا التحول في مسيرة الثورة، أخبرني الشريف بلقاسم أن بومدين يرغب في رؤية اسمي في قائمة الطاقم الحكومي الجديد الذي كان بصدد تشكيله. أجبته أنه من الصعب علي تصور مشاركتي في الحياة السياسية لبلدي بعدما عرفت التعذيب فيها.

وبعدها بأيام قليلة، استقبلني بومدين بمكتبه ليعيد علي العرض نفسه، موضحاً أن الأسباب التي جعلتني أرفض المشاركة في الحكومة، إلى حد الآن، لم يعد لها مبرر؛ وإلا يصبح رفضي أمراً غير مفهوم اليوم. ثم أكد لي أن بن بلة، عندما قرر نقلي إلى السجن العسكري بوهران (إلى حيث سبقني العقيد شعباني وأتباعه)، كان يريد أن يجمع بين القضيتين لأمثل أمام المحكمة نفسها. إلا أنه، أي بومدين، هو الذي رفض هذا الخلط بحجة كون القضيتين لا علاقة بينهما إطلاقاً، فإحداهما تتعلق بجهة مدنية، والأخرى بجهة عسكرية.

بعد ذلك، أسمعني هذا الخطاب: «حسب ما أعرفه عنك وقرأته لك، فإننا نحلم بنفس الجزائر، أي جزائر تعيد الصلة بهويتها الثقافية، جزائر ينتفع بثرواتها كل أبنائها، جزائر تأخذ بقيم العصر، مستندة في ذلك إلى العلم والتكنولوجيا. لذلك، علينا باليقظة أمام الأخطار المحدقة بنا: الاستلاب المولد لصنف جديد من «الأقدام السوداء» من بني جلدتنا؛ وبروز طبقة جديدة من «الكولون»، هم جزائريون هذه المرة؛ وعودة عهد ظلامي بائد من القرون الوسطى. صراحة، أظن أن بناء جزائر وفية لأصولها ومتمسكة بالعدالة الاجتماعية، ومنفتحة على

العالم لجدير بأن يكرس له المرء وقته ومواهبه. لذلك من واجب كل واحد ألا يدخر جهداً أو معرفة».

أعترف أن هذا الخطاب كان له وقع في نفسي، ولا شك أنه لقي صدى في أعماقي لأنه جاء بصيغة مغايرة لذلك اللغو اليومي الذي برع فيه المراءون الموالون للسلطة. لقد كان خطاباً اختلف تماماً عن ذلك الخطاب المنتفخ، الشعبوي، المعهود لدى الرئيس المخلوع، وبدا لي الرجل صاحب قناعات راسخة كان يسعى جاهداً لتحويلها إلى أفعال.

ختم بومدين كلاه باقتراح حقيبة وزارة التربية الوطنية علي. وعندما أردت، من جهتي، أن تكون لي فكرة عن تشكيلة الحكومة الجديدة، أخبرني أنه اختار من بين إطارات الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في السابق شخصين يمكن أن يصبحا وزيرين: الأمين خان وأنا، مضيفاً أنه على استعداد ليأخذ بعين الاعتبار أي اقتراح من جانبي. حينئذٍ، فهمت أنها كانت صيغة ذكية لسبر ميولي، فلم أتردد في ذكر أسماء كل من مسعود آيت شعلال، وزيراً للصحة، وبلعيد عبد السلام، وزيراً للطاقة، ومحمد بن يحيى، وزيراً للعدل، ورضا مالك، وزيراً للإعلام. تولى تسجيل هذه المقترحات على كراسة كانت أمامه. وعلى الرغم من ذلك، لم يبرح التردد ملامحي، فما كان له إلا مخاطبتي بهذه العبارات: «لا أتمنى أن أراك على هاش الحياة السياسية للبلاد لتؤول بك الأمور إلى مجرد رجل ناقم أو منتقد عقيم. ليس بوسع المرء أن ينتقد شؤون بلده من دون أن يقبل خوض غمارها. ليس لديك ما تخسره إن أنت وضعت يديك في العجينة (قال هذه العبارة باللغة الفرنسية). وإذا لم ترضك التجربة، يمكنك الانسحاب». ثم أردف بقسط من الدهاء: «هل يمكنك أنْ تُنكِر أن

اضطلاعك بشؤون التربية الوطنية سيكون من شأنه مواصلة عمل والدك؟ فكل مدينة ستزورها وكل قرية ستدخلها إلا ويقال لك فيها إن الشيخ جاء هنا في السنة الفلانية من أجل تدشين هذه المدرسة أو ذلك المسجد». وهنا، أدرك أنه ضرب على الوتر الحساس، وأنني بدأت أشك في صحة موقفي. وفي ختام اللقاء، وجدتني أقول: «نعم!»، طارحاً شرطين: المنع المطلق للتعذيب في الجزائر، وإطلاق سراح آيت أحمد وموسى بن أحمد. بالنسبة إلى المسألة الأولى، كان موقفه مؤيداً لي تأييداً قطعياً. أما بالنسبة إلى القضية الثانية، فطلب مني «بعض الوقت».

* * * * *

عندما نطقت بكلمة «نعم»، لم أكن أدري أني كنت بصدد الزج بنفسي في غمار تجربة من نوع جديد سوف تقيّدني على امتداد ربع قرن تقريباً بما تفرضه علي من تضحية ونكران الذات.

---

## هوامش الفصل التاسع

---

(1) فرحات عباس، «الاستقلال المصادر» (فلاماريون 1984، ص 13 باريس).

# الملاحق

Administration-Rédaction
12, rue Pompée — ALGER
Téléphone : 278-17
C. C. P. 1013-35

# Le Jeune Musulman

PRIX : 20 francs.

VENDREDI 22 DJOUMADA II. 1373
26 FEVRIER 1954
Bimensuel — 2me Année — N° 27

Organe des jeunes de l'Association des Oulemas musulmans d'Algérie
Directeur-Gérant : Abdallah SOUFARI

## «Les faux-délivrés»

Des milliers de jeunes Musulmans fréquentent l'école française à ses différents degrés. Leur nombre reste malheureusement très réduit par rapport à l'ensemble de la population ; il s'accroît cependant d'année en année en dépit de multiples entraves et des difficultés matérielles.

Nous sommes les premiers à nous réjouir de cet afflux, car, pour nous, la science est universelle et nous devons l'acquérir « sans nous inquiéter du récipient qui la contient » suivant le précepte bien connu du Prophète.

Toutefois, nous sommes en droit de faire des restrictions sur le revers de la médaille existe.

Un fait est certain : c'est que la politique de la France en Algérie s'est toujours inspirée de la peur de voir les jeunes musulmans s'attacher à leur religion, leur langue et leur passé. Et l'on comprend ainsi aisément les brimades contre l'enseignement libre de la langue arabe et la tentative d'assimilation incluse tacitement dans l'enseignement officiel du français.

*

Si cette « francisation » a subi un cinglant échec, elle n'en a pas moins laissé des adeptes, que dis-je, des victimes : ceux qui, reniant leurs traditions, vouent un culte insensé à l'Occident, une admiration sans bornes pour tout ce qu'il véhicule ; ils croient en avoir démêlé les profondeurs, alors que rien ne les y dispose, ni leur âme, ni leur tempérament.

Ces « faux-délivrés » sont en réalité des laquais de seconde zone qui, ayant vaguement touché à la culture et aux doctrines occidentales — philosophiques ou politiques — nous regardent du haut de leur « salut ».

Ils ont l'illusion de se libérer alors qu'ils s'embourbent dans la véritable servitude : écrasés sous le poids d'un complexe d'infériorité devant tout ce qui est « européen » et affichant du mépris pour tout ce qui est « musulman », ils établissent un écran entre leur esprit et les réalités du pays où ils résident et du peuple qui leur a donné le jour.

En un mot, ils ont perdu le sens le plus précieux : celui des valeurs vraies.

*

Tout en reconnaissant ce que nous devons à l'Europe, tout en affirmant que sa culture nous ouvre de larges avenues sur le monde moderne, nous avons le droit — et le devoir — de rester nous-mêmes, de sauvegarder notre personnalité. Nous ne devons guère perdre de vue notre civilisation à laquelle est redevable cette même Europe ; à une certaine période de l'histoire, les Européens qui voulaient s'instruire parcouraient le monde musulman ou fréquentaient les écoles où l'enseignement était emprunté à l'Orient.

La roue a tourné : c'est à notre tour de nous abreuver aux sources de la science sans pour cela nous dépouiller de ce qui fait notre force : notre vocation historique.

*

C'est ainsi qu'à côté des « faux-délivrés », il y a les autres : ceux qui sont restés insensibles au charme des sirènes de l'Occident et dont la culture n'a fait que catalyser leur foi, renforcer leur conviction ; ceux qui croient en l'Islam et en son avenir et qui, nourris des traditions ancestrales, en tirent fierté et exemple ; ceux aussi, faut-il le dire, qui ont tendance à un repli égocentrique affecté parce que menant au désespoir et à la « tour d'ivoire ».

Qu'ils sachent que nous vivons une époque où le choix est pur ; où l'intransigeance est la règle et qu'en dehors de l'idéal islamique, rien ne pourra forger notre union et, partant, notre force.

L'Islam est à la fois croyance et action, le Musulman doit avoir la nausée de la stagnation.

Pour ce, ils ne doivent pas rester « solitude qui va chemin », ils sont porteurs d'un message, leurs épaules supportent le poids d'une lourde responsabilité.

L'Islam est aussi amour : ayant vaincu leur propre apathie, ils se tourneront vers leurs frères « les faux-délivrés », non pour les plaindre, encore moins pour les mépriser, mais pour les éclairer. Ces derniers sont, en effet, plus victimes que coupables ; ils sont comme des « orphelins entre deux mondes », dont le contact avec l'Islam n'a été favorisé ni par le milieu familial, ni par le milieu social.

Ce courant vivifiant transformera un ensemble hétérogène d'intellectuels qui pensent comme « on se gratte où ça démange » en une véritable élite pensante et agissante, faisant corps avec le peuple, en une élite qui, nourrie des mêmes principes, mènera le même combat pour le même idéal.

J. M.

### A la lumière du Coran et du Hadith

## Les témoins de la vérité

« O croyants, soyez respectueux de la vérité quand vous témoignez devant Dieu, votre témoignage dût-il vous nuire à vous, à vos parents ou vos proches ».

(S. des Femmes, v. 134).

A la lecture du Coran on s'aperçoit que le message islamique est essentiellement un témoignage de vérité. Le Prophète est le Véridique par excellence, et ses adversaires — mêmes les plus implacables — lui reconnaissaient un tel caractère. Mohammad c'est al-Amine ; c'est l'irréprochable

PAR

**Abou Djamil Taha**

intégrité. Dieu, c'est la Vérité absolue. Et la religion de Dieu, c'est la manifestation de la vérité ; c'est le triomphe de la vérité, par l'enseignement, par l'action et par l'exemple.

Mais pour ainsi se dévouer à la vérité comme à une vocation totale, il est nécessaire de la bien distinguer et d'y croire. Nous avons besoin de connaître la vérité, et de voir clair dans le désordre qui nous enveloppe. Il y a des obscurités, des obstacles, des oppositions qui nous rendent le chemin difficile, si nous ne sommes pas armés de courage et de foi.

(Suite à la page 6).

### Dans ce numéro :

# الملحق 1

## «الناجون المزعومون»

**Le Jeune Musulman**

لسان حال شبيبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

رقم 27 الصادر بتاريخ 26 فبراير 1954

هناك آلاف من الشباب المسلمين ممن يزاولون دراساتهم بالمدرسة الفرنسية بمختلف مستوياتها. غير أن عددهم يبقى. للأسف، ضئيلاً مقارنة بالعدد الإجمالي للسكان حتى وإن كان في تزايد مستمر كل سنة على الرغم من العراقيل الكثيرة والصعوبات المادية التي تحول دون ذلك.

إننا أول من يفرح لتزايد عدد الوافدين إلى المدرسة لأننا نعتبر العلم أمراً مشاعاً بين البشر جميعاً وعلينا تحصيله «من دون التخوف من الوعاء الذي يحتويه»، مصداقاً لتلك الدعوة المعروفة عند الرسول (ﷺ).

ومع ذلك، من حقنا أن نرى ضرورة وضع بعض القيود في هذا الشأن لأن هناك أخطاراً واردة فعلاً. ومهما يكن من أمر، فإنه من الواضح أن السياسة الفرنسية بالجزائر كانت دوماً تخشى رؤية الشباب المسلم متمسكاً بدينه ولغته وماضيه. وعليه، فإننا ندرك، بسهولة،

سبب تلك العراقيل التي توضع في وجه التعليم الحر للغة العربية وتلك المحاولات التي تستهدف، بصورة غير صريحة، الإدماج من خلال التعليم الرسمي للغة الفرنسية.

* * * * *

ولئن منيت هذه «الفرنسة» بفشل ذريع إلا أنها، مع ذلك، تركت أتباعاً ومؤيدين، وضحايا إن جاز لي القول، أي كل هؤلاء الذين تنكروا لتقاليدهم وانساقوا وراء الغرب مبدين إعجاباً، لا تحده حدود، بكل ما يأتي من عنده معتقدين أنهم نجحوا في سبر أغواره ولو لم يكن هناك مايؤهلهم لذلك، لا روحهم ولا طبيعة مزاجهم.

في الواقع، إن هؤلاء «الناجين المزعومين» إنما هم حيارى من الدرجة الثانية، وإنك لتجدهم ـ بمعرفتهم السطحية للثقافة والنظريات الغربية، الفلسفية منها والسياسية ـ ينظرون إلينا من شرفة «خلاصهم».

إنهم يتوهمون أنهم تحرروا وهم يغوصون في العبودية الحقيقية: إنهم يرزحون تحت ثقل عقدة النقص أمام كل ما هو «أوروبي» مشهرين احتقارهم لكل ما هو «مسلم». إنهم يجعلون حاجزاً بين ضميرهم ووقائع بلد يقيمون به وشعب ولدوا من صلبه.

باختصار، لقد ضلوا سواء السبيل، سبيل القيم الحقيقية.

* * * * *

وإذ نعترف بأننا مدينون لأوروبا ونؤكد أن ثقافتها تفتح لنا أبواب العالم المعاصر واسعاً، فإنه من حقنا ـ بل من واجبنا ـ أن نحفظ هويتنا وشخصيتنا. ينبغي علينا ألا ننسى أبداً حضارتنا فأوروبا نفسها

مدينة لها. في فترة تاريخية معينة، كان الأوروبيون الطالبون للعلم والمعرفة يجولون أصقاع العالم الإسلامي أو يلتحقون بمدارس أخذت طرق تعليمها من الشرق.

غير أن الدائرة دارت حيث جاء دورنا لطلب العلم من غيرنا لكن من دون أن ننسلخ عما يمثل قوتنا بوصفنا أهل رسالة تاريخية.

*****

هكذا، وإلى جانب «الناجين المزعومين» هناك الآخرون، أي الذين بقوا صامدين أمام نعي الغرب فلم يجدوا في الثقافة إلا حفزاً لدينهم وتقوية لقناعاتهم؛ أي كل هؤلاء الذين يثقون في الإسلام وفي مستقبله ويجدون فيه، بفضل تشبعهم بالتقاليد العريقة، مصدراً للاعتزاز والقدوة. هناك أيضاً من نزع إلى الانطواء على الذات، وهو أمر خطير لأنه مفض إلى اليأس وإلى الانغلاق في «البرج العاجي».

فليعلم كل هؤلاء أننا نعيش في مرحلة حيث الاختيار واضح والتشبث بالمبادئ هو القاعدة؛ وأنه، خارج المثل الإسلامي، لن يكون هناك ما يصنع اتحادنا، ومن ثمة قوتنا.

إن الإسلام هو دين ودنيا معاً وعلى المسلم أن يمقت الجمود. لذلك، ينبغي للمسلمين ألا يبقوا مكتوفي الأيدي لأنهم حاملون لرسالة وعلى عاتقهم تقع مسؤولية ثقيلة.

إن الإسلام هو أيضاً محبة. وبعد تخلص المسلمين من خمولهم، عليهم أن يلتفتوا إلى إخوانهم، «الناجين المزعومين»، لا للرثاء لحالهم، ناهيك عن احتقارهم، وإنما لتنويرهم. إن هؤلاء، في

الحقيقة ضحايا أكثر مما هم مذنبون. إنهم مثل «أيتام بين عالمين» لم يسعفهم الوسط العائلي ولا الوسط الاجتماعي في الاحتكاك بالإسلام.

إن هذاالتيار المحيي سيحوّل ركاماً متنافراً من المثقفين الذين لا يفكرون إلا كما «يحك المرء في مكان الأكال» إلى نخبة مفكرة وفاعلة حقاً، مندمجة مع الشعب، نخبة متشبعة بنفس المبادئ وتخوض نفس الكفاح في سبيل نفس الغايات.

الشاب المسلم

# الملحق 2

## خطاب افتتاحي

### خطاب رسمي أُلقي بمناسبة افتتاح المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين (جويلية 1955)(1)

يمر الطلبة الجزائريون اليوم بمرحلة مشهودة في تاريخ حركتهم. إن مختلف الجمعيات المحلية المنتشرة عبر المدن الجامعية في كل من الجزائر، المغرب، تونس، وفرنسا لتشعر اليوم بالحاجة إلى الاندماج في تنظيم مشترك من أجل توحيد الإمكانيات، ومن ثمة العمل بأقصى حد ممكن من الفعالية في صالح مجموعتنا.

إن العدد المتزايد لطلبتنا وإلحاح المشاكل المطروحة وتعقُّدها في جميع الميادين هما اللذان يفسران سبب رغبتنا الشديدة في أن

(1) حرّر هذا النصّ في شقّة مولود بلهوان شارع Panoyaux بباريس، وشارك في صياغته بالإضافة إلى بلهوان: عبد المالك بن حبيلس وبلعيد عبد السلام والمؤلف، ويلاحظ أن النصّ لا يحتوي على أي إشارة للوضع السائد في الجزائر حتّى لا تمنع السلطات الاستعمارية إنشاء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الذي كنا نسعى لتأسيسه، وكانت جبهة التحرير تحثنا على ذلك.

ننظم أنفسنا تحت لواء اتحاد قادر على أن يعكس، بأكبر قدر ممكن من الصدق، تطلعاتنا الحقيقية.

إننا كطلبة كافحنا على المستوى الفئوي من أجل القضاء على كافة المشاكل التي صادفناها، وذلك بالتعاون مع مختلف الجمعيات الطلابية المحلية.

وكطلبة مسلمين، إننا لنعاني الأَمَرَّيْن، مادياً ومعنوياً، ونحن نرى لغتنا معتبرة لغة أجنبية في بلادنا. إن هذه اللغة، الحاملة لحضارتنا، نصِرُّ على أن تعاد لها المكانة المرموقة التي تستحقها. وفي هذا السياق، ينبغي علينا أن نحصل على تطبيق أحكام دستور الجزائر دون تأخير. يجب أن يتم تدريس اللغة العربية لكل أبناء الجزائر، في جميع مستويات التعليم، وأيضاً في كافة أنحاء بلادنا، من دون تمييز. ذلك هو الشرط الذي ينبغي توافره من أجل إشاعة التفاهم بين مختلف العناصر السكانية في الجزائر.

وبوصفنا من المحظوظين في وسط شبيبتنا، نحن مطالبون بخوض كفاح متواصل من أجل تعميم التعليم ليشمل جميع أطفالنا. ويكفينا هنا الإشارة إلى أن مليوناً وثمانمائة ألف من أطفالنا مرميون حالياً في الشارع، من دون أي مستقبل ومن دون أي أفق. سنسعى لضمان حق التعليم والتربية لشبابنا.

إننا نواجه في طريقنا عراقيل تعوق تطورنا لأن واحداً فقط من عشرة أطفال في سن التعليم يرتاد المدرسة. وعليه، ينبغي علينا أن نوفر أقصى قدر ممكن من الدعم لتلاميذ الطور الثانوي: جمعيات طلبة الثانويات والمتوسطات لها دور ما فتئت أهميته تتزايد في هذا المجال.

كما يجب علينا أن نهتم بالكيفية التي تتم بها الاستفادة من المنح الدراسية، لا سيما القيام بما من شأنه فرض تمثيل للطلبة على مستوى الأجهزة المكلفة بمنح المساعدات المادية المأخوذة من ميزانية الجماعات العمومية.

الأمر نفسه بالنسبة إلى الإيواء. لا أحد يجهل تلك المشاكل المتعددة التي يلقاها طلبتنا المضطرون إلى الهجرة من أجل إكمال دراساتهم. في فرنسا، على وجه الخصوص، فإن الطالب الجزائري غالباً ما يلقى صعوبات جمة في الحصول على إيواء. يجب علينا أن نكافح هذا النوع من الذهنيات بالتعاون مع مختلف الجميعات الفرنسية في هذا المجال وفي المجالات الأخرى ذات المنفعة المشتركة. سنسعى للفت الانتباه إلى أن الجزائر فقط هي التي ليس لها جناح بالمدينة الجامعية بباريس على الرغم من الوعود المتكررة.

من منا لم يشعر بالعواقب الوخيمة الناجمة عن غياب التوجيه المهني - هذا المشكل المرتبط ارتباطاً وثيقاً بفرص العمل المتاحة لشبيبتنا المثقفة؟ نحن كذلك في حاجة ماسة إلى التوجيه نحو تخصصات في اتجاه الشُعَب التقنية، والعلمية، والاقتصادية.

كما لا يمكننا أن ننسى ذلك الدور الأساسي الذي يعود إلى منظمتنا في مجال توفير فرص العمل لشبيبتنا. وهنا، يتعلق الأمر بمسؤولياتنا (كإطارات لبلدنا) في جميع مجالات الحياة العمومية. لذلك، سنطالب بتغيير جذري في اختيار الإطارات الإدارية، الاقتصادية، والسياسية، التي تمثل الهيكل الأساسي لكل بلد منظم، وذلك في صالح جميع سكانه على أساس ديمقراطي.

لقد أشرت منذ حين إلى الصعوبات التي نلقاها بوصفنا طلبة.

غير أن هذه الصعوبات تندرج في سياق مسألة أوسع، ألا وهي مسألة تطور الشبيبة المسلمة الجزائرية بشكل عام.

لهذا السبب، لا يقتصر نشاطنا على نظرة فئوية ضيقة إذ أن هناك مشاكل أخرى ينبغي أن نهتم بها مثل تلك التي سبق ذكرها باختصار. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الزيادة السكانية التي تجعل هذه المشاكل تتفاقم كل سنة، فإننا سنكون قد أعطينا صورة عن مدى بؤس الظروف التي تعانيها الشبيبة الجزائرية.

وإذا كنا لا نقلل من شأن جهود السلطات العمومية في مجال التعليم، وأننا نرى أن هناك كثيراً مما يجب القيام به من الناحية الكمية إن جاز القول. لكن الجانب الكيفي هو الذي يطرح مشاكل أكثر خطورة لأن التعليم الذي نستفيد منه لا ينسجم مع شخصيتنا التي صنعتها قرون من الزمن وبقيت تنهل من نفس المبادئ وتحيى بنفس التطلعات.

ولئن كنا نعترف بما نحن مدينون به لأوروبا، مؤكدين أن ثقافتها تفتح لنا أبواب العالم المعاصر واسعة، فإنه من حقنا ـ ومن واجبنا أيضاً ـ أن نبقى محتفظين بهويتنا وبشخصيتنا.

إن الخطأ الذي لا يغتفر هو ذلك الذي ارتكبه دعاة «الرسالة الحضارية» في محاولتهم، وبكل الوسائل ـ بما فيها تلك التي يأباها الضمير الإنساني ـ القضاء على الثقافات الوطنية لإحلال ثقافتهم محلها. والواقع أن الأمر لا يتعلق بخطإ فحسب، وإنما هناك خيانة حين استُغل العلم في فرض ثقافة بقتل ثقافة أخرى، مع اللجوء إلى التلبيس من خلال الجمع بين العلم والحضارة وكأنهما شيء واحد.

وقد أفضى هذا التلبيس إلى اختلاف بقي المثقفون الجزائريون يتخطبون فيه فصاروا أشبه ما يكونون بأيتام بين عالمين، فلم يسطيعوا الاتصال بثقافتهم ولا قدروا على هضم تلك الثقافة المفروضة عليهم.

لقد كتب الدكتور راداكريشنا منذ سنوات يقول: «سبق لوزيرنا الأول، نيهرو، أن اعترف أنه كان مزيجاً غريباً من الشرق والغرب فكان يشعر بالغربة حيثما حل. في حين، علينا أن نتعلم ألا نكون غرباء حيثما حللنا، وأن نشعر أننا في كل مكان عندما نكون في ديارنا».

أجل، لا يمكننا أن نكون في ديارنا حقيقة إلا إذا كنا متشبعين بتراثنا الروحي الذي يريد بعض الناس القضاء عليه. لا يمكننا أن نشعر أننا في ديارنا حقيقة إلا إذا استطعنا أن نطور الثقافة الإسلامية وندرِّس اللغة العربية لجميع أبناء شعبنا.

إن أحد المبادىء الأساسية لاتحادنا يكمن، بالذات، في منع عملية الفصل، بل والعزل، التي لا بد أن تصاحب نوع التعليم الذي يتلقاه الشباب الجزائري في المدارس الفرنسية البحتة منذ سن السادسة. إننا لمقتنعون أن نخبنا المثقفة لا يمكنها الإسهام في تحسين ظروف معيشة شعبنا إلا إذا بقيت في اتصال به على الرغم من درجة تقدمها. إن الاتحاد في التطلعات والمشاعر ما بين الشعب وبين من أسعفه الحظ في التكوين بالمدارس الفرنسية هو الضامن لتطور منسجم ولمستقبل أكيد.

ينبغي أن يزول، في الجزائر، احتقار اللغة الأصلية من أذهان كل من حملتهم الظروف أو اختاروا العيش بالجزائر.

وكي يتسنى لهذه الثقافة العربية الازدهار التام، ينبغي أن تتخلص الديانة الإسلامية من سيطرة الإدارة. إن ذلك أمر ضروري لكي يزول، وإلى الأبد، كل سبب للتمييز العنصري وكل سوء تفاهم وكراهية من قلوب كل من أرادوا التعايش. وباختصار، يجب ترقية صيغة جديدة في التعليم كي لا تكون الثقافة العربية مقصاة وكي لا تبقى الثقافة الفرنسية مجرد طلاء خارجي.

ينبغي أن يحصل تغيير في الذهنية التقليدية للإدراة حيال ثقافتنا؛ وهي مواقف كان مصدرها دوماً التخوف من رؤية الشبيبة المسلمة متمسكة بدينها، وبلغتها، وبتاريخها.

غير أن هذا التغيير في الذهنية لا يمكن أن يحصل إلا بإيجاد حل للقضية الجزائرية في شمولها.

لا بد أن يحل تعليم مناسب للشخصية الجزائرية، يكون خلاصة لثقافتين، محل التعليم الحالي الذي ليس هو إلا نتيجة حتمية لسياسة الإدماج.

وبعبارة أخرى، كي يكون هناك تعايش ممكن ما بين حضارتين، ينبغي أن يترك وهم الاندماج القديم المجال لسياسة واقعية قائمة على التعاون بين الشعبين، تعاون مبني على مساواة مطلقة تحظى بالقبول في إطار احترام حقوق من لن يكون أبداً مواطناً من الدرجة الثانية.

غير أن الجو السائد حالياً بالجزائر قائم على الخوف والقمع. إن مسؤولية ذلك تقع على هؤلاء الحكام الذين يرفضون رفضاً قاطعاً إشراك الممثلين الحقيقيين لشعب أرادوه أن يبقى خارج مؤسسات البلد منذ مئة وخمس وعشرين سنة.

إنّ وجود مشكل جزائري أمر لا يمكن نكرانه؛ وهذا المشكل يتطلب حلاً عاجلاً لأن المطالبة الطويلة بالعدالة يمكن أن تنال من الصبر وتزيد في حدة الكراهية وتُذهب المحبة من القلوب.

وهناك هدف آخر تسعى إليه منظمتنا ويتمثل في إقامة جسر بين الحضارتين. إننا نريد إن نتحرك في إطار مجال أوسع ونعمل بالتعاون مع رجال آخرين جاؤوا من آفاق أخرى من أجل نشر ثقافة يجد فيها كل واحد نفسه وشريكه. إن احترام الآخر هو الشرط الأول لكل تفاهم حقيقي ولكل صداقة خالصة وبناءة.

وباختصار، وإذا كنا نؤكد تمسكنا الدائم بالسياق العربي الإسلامي ونرفض، مهما يكن الثمن، التخلي عن قيمنا الذاتية وتراثنا الثقافي والروحي، فإن ذلك لا يعني، بأي حال من الأحوال، أننا نرفض الثقافة الفرنسية التي نحن مدينون لها، بل نحن متعلقون بها. في الواقع، نحن لسنا غرباء عن هذه الثقافة الفرنسية ما دام أسلافنا قد أسهموا في نشأتها بقسط لا يستهان به، على الأقل من حيث كونهم هم الذين نشروا الفكر الإغريقي في أوروبا.

نحن مقتنعون، ليس فقط بضرورة معرفة الحضارة الفرنسية، وإنما أيضاً بحاجتنا إلى استعمالها في سبيل ازدهار ملكات كل واحد من طلبتنا.

غير أنه من اللازم أن نوضح أننا لا نخلط بين فرنسا الرجال العظماء الذين نستلهم منهم أخص أفكارنا في بعض الأحيان وبين المتسلّطين على شعبنا، أي هؤلاء الذين يصرون على الاحتفاظ بسيطرتهم وما يترتب على ذلك من امتيازات.

لا يمكن أن ننكر أن هناك واقعاً ينبغي أن يُستغَلّ في اكتساب فعلي لثقافة مزدوجة، ألا وهو وجود أقلية أوروبية في بلادنا. هذه الأقلية سوف تكون لها مكانتها المستحقة في تلك الجزائر الديمقراطية والموحدة التي ننوي بناءها.

إننا ندعو أصدقاءنا الشباب من أوروبيي الجزائر إلى الاضطلاع بدورهم في ما يخص السعي من أجل تقارب ضروري لا مناص منه سيشكل الأساس في بناء الصرح الجزائري. يجب عليهم أن يدركوا أنهم إذا كانوا قد استطاعوا الازدهار في ظل معرفة ثقافتهم والتمتع بفوائدها، فإننا، نحن الجزائريين، حرمنا من العنصر الأساسي لشخصيتنا، وعليهم أن يجدّوا، بدورهم، في معرفة هذا العنصر.

ذلك هو الطريق الوحيد نحو خلاص بلدنا.

أما في ما يخصنا، فإن اتحادنا ليس أمراً مصطنعاً البتة. بل هو نتيجة تيار قوي لم نكتف بالاستسلام له، وإنما نريد أن نسهم فيه بجد. وإذ نمر اليوم بمرحلة حساسة من تاريخ بلادنا، فإن اتحادنا هذا سيسمح بتوضيح الأمور لا سيما بالنسبة إلى جيلنا الذي يتساءل عن مستقبله. غير أننا لا نقبل أبداً أن نبني هذا المستقبل على الحقد والظلم.

# الملحق 3

## رسالة من جبهة التحرير الوطني
## إلى الفرنسيين (ماي 1956)

على الرغم من التحديات والرهانات المتتالية التي يواجهها السيدان مولي Mollet ولاكوست Lacoste، وعلى الرغم من التأييد والانتصارات الحاسمة التي ما فتئت تحصل، على ما يبدو، للعقل والروح الواقعية في أوساط الرأي العام الفرنسي، فإن حرب الجزائر متواصلة على أشدها. إننا اليوم على عتبة ما لا يمكن تفسيره وعلى وشك وقوع انفجارات لا تبقي ولا تذر.

لذلك، فإن الّذين تتم محاربتهم باسمكم وتراق دماء أهلكم وأقاربكم وتذرف دموعهم في سبيل ذلك، يريد اليوم ناطقون بلسانهم، أي بلسان شعب يعي أنه يُقهر بفعل كذبة رحتم ضحيتها، مخاطبتكم جهراً من أجل وضع حد لهذه الفضيحة التي يأباها القلب والعقل.

### كذبة رهيبة

إن ما هو أفظع في هذه المأساة الدامية ليتمثل، من دون شك،

في ذلك الجو من العبث وعدم الشعور بالمسؤولية الناجم عنها. ترى، لماذا هذه المجزرة؟ كيف أمكن الوصول إلى ما وصلنا إليه؟ ما هي القيم الحقيقية والعميقة المستهدفة في هذا الجو؟ كيف يمكن تفسير ذلك الجهل وذلك القصور الذي يطبع أغلبية الرأي العام الفرنسي في فهم المغامرة الجزائرية إلى درجة تصديق دعاية في غاية الإحكام استطاعت أن تقدم الانتفاضة الحالية على أنّها مجرد «دوي رعد في سماء صافية»، وكحادث مفاجىء، غير منطقي في تاريخ «العمالات الثلاث» هذه، وكظاهرة عابرة لا تجد لها جذوراً في الواقع.

عليكم ألا تصدقوا هذه الكذبة. إنه لمن المضحك اليوم نكران وقوف الشعب الجزائري بأكمله وراء انتفاضة التحرير.

### مَن قطع الحوار؟

إن الجزائر، سواء في وعي جماهيرها أو نخبها، لم ترض أبداً بالسياسة المفروضة عليها من طرف الحكومات الفرنسية المتتالية منذ بداية الاحتلال. لقد وجدت مطالبها تعبيراً لها في تنظيمات سياسية ما لبثت الإدارة أن أقدمت على حلها الواحد تلو الآخر حتى وإن ظلت الأصوات تتجدد من دون انقطاع بأشكال مختلفة للتعبير عن التطلعات العميقة لشعب بأكمله نحو الكرامة والحرية.

إن تاريخ الحوار الديمقراطي الذي حاول الشعب الجزائري إقامته مع فرنسا في إطار المؤسسات التي فرضتها هذه الأخيرة ذاتها لم يكن إلا سلسلة متواصلة من الرفض المهين والقمع السافر. ولن تستطيعوا أن تقدّروا ذلك الشعور الناشئ في قلوب الجزائريين منذ 1948 بفعل التزوير المنظَّم للانتخابات. إنه شعور بكرامة مهانة، وإن

تلك الحرية الكاذبة كانت، في كثير من جوانبها، أشد قسوة من فقدان الحرية ذاته.

## ظاهرة تاريخية

ستظل أبواب الثورة تفتح تباعاً عندما لا تُحترم إرادة شعب. ألم يلجأ الشعب الجزائري إلى حمل السلاح إلا بعد أن استنفد كافة الوسائل الأخرى في التعبير عن تطلعاته؟ لقد أدرك أن كل ثقة منه لم تعد إلا لعباً بمصيره. لقد كان اندلاع الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954، تحت راية جبهة التحرير الوطني، آخر وسيلة لفرض الحوار وإسماع الصوت في أوساط الرأي العام العالمي. ومهما يكن من أمر، فإن الثورة الجزائرية تندرج في سياق الحركة العالمية من أجل تحرر كافة الأمم الواعية بشخصيتها وبانعدام الكرامة دون الاستقلال.

## الوجه الحقيقي للمقاومة الجزائرية

كلا! إن المقاومة الجزائرية التي استطاعت أن تهزم ما يقرب من نصف مليون عسكري لجيش عصري لا يمكن أن تكون من صنع بضعة «قطاع طرق» لا يتمتعون بأية مصداقية شعبية غير الترهيب كما ادعى البعض. كما أنها لا يمكن أن تكون على تلك الصورة الفظيعة التي تجعل منها تَعَصُّبًا دينياً خاصاً بالمسلمين مشفوعاً برغبة وحشية في القوة وبحلم جزائر تريد أن تتخلص من سيطرة الغرب لتذوب في إمبراطورية عربية مترامية الأطراف تسعى لابتلاع غيرها من الأمم.

كلا! الثورة الجزائرية ليست حرباً دينية، وإنما هي عمل تحرّري؛ إنها ليست وليدة حقد، وإنما هي كفاح ضد نظام قهر. لكن

هناك حرص على ألا تعلموا ذلك مثلما هناك حرص، نجح فيه أصحابه نوعاً ما، على أن تنسوا أن الاغتيالات ضد المدنيين الأوروبيين - التي عرفت المقاومة الجزائرية كيف تتفاداها منذ الفاتح من نوفمبر 1954 وإلى غاية 20 أوت 1955 - لم تبدأ إلا بعد عمليات التمشيط الدامية التي راح ضحيتها آلاف المدنيين من الجزائريين. حقيقة، للحرب منطقها، لكن ينبغي أن نعترف أن الزيادة في عدد الاغتيالات هنا إنما كان نتيجة مباشرة لوحشية ما يسمى بـ«التهدئة».

### ما يراد منكم جهله

إذا كانت هناك اغتيالات فلأنه كان هناك نساء وأطفال وشيوخ، سقطوا برصاص وقنابل الجيش الفرنسي وكان هناك قرى حرقت عن آخرها، وكان ينبغي أن تسمعوا بتقتيل العديد من الأبرياء كل يوم، لكنهم يقدّمون لكم هؤلاء الضحايا على أنهم «متمردون». أنتم الذين تبقون محتفظين، في خشوع، بذكرى ضحايا أورادور - سور - غلان Ouradour-sur-Glane عليكم أن تعلموا أن الشعب الجزائري شهد ألف «أورادور».

أنتم في حاجة إلى معرفة هذه الحقائق ونشرها، كما عليكم ألا تغتروا بأكاذيب جميع الصحف تقريباً وتبحثوا عما تخفيه ألفاظ مثل «النظام» و«التهدئة».

عليكم أن تواجهوا الوضع في الجزائر وألا تستسلموا للابتزاز باسم الحس الوطني. فهل، حقيقة، من أجل صالح وطنهم وسمعته يحارب الشباب الفرنسي ويموتون في الجزائر أم من أجل الاحتفاظ

بالامتيازات الرهيبة التي يتمتع بها أمثال بورجو، وبلاشيت، ومن معهم؟.

هل سيرضى الشعب الفرنسي بالتضحيات الجسام التي تتطلبها حرب جائرة، حرب علاوة على ذلك، من أجل قضية خاسرة من الآن.

## الحل العسكري مستحيل

نحن نعلم أننّا لن ننهزم. لا لأن جيشاً قوامه نصف مليون أو مليون عسكري مثل الجيش الفرنسي، القادر على توفير هذا العدد المستمد من القوى الحية لبلاده، عاجز عن أن يقضي، بالدم والنار، على التعبير الحالي لإرادة الجزائريين، وإنما لأن الحديث عن القضية الجزائرية عن حل عسكري هو تناقض في حد ذاته. ليس هناك حل عسكري إلا لمشكل عسكري وإن إصرار شعب من عشرة ملايين نسمة على التحرر ليس مسألة ذات طابع عسكري أبداً.

جزائر مُدَمَّرة وفرنسا منزوفة ومختنقة، في وقت تطالبها أغلبية شعبها بتقويم قوي للأوضاع، ذلك هو، في الحقيقة، ما يتم الحرص على إقناعكم به يومياً شيئاً فشيئاً، باستعمال أسوإ الأكاذيب.

## سمعة فرنسا

أما في ما يخص سمعة فرنسا، فإنها لا تكمن في الانتصار بالقوة، أو على الأقل، في تلك السياسة المجنونة المعتمدة من طرف المسؤولين الفرنسيين من أجل إبادة شعب بأكمله.

بالعكس، هذه السياسة مضرة كثيراً بسمعة فرنسا. ففي نظر شعوب إفريقيا وآسيا، وكذا كافة الشعوب الحرّة والمسالمة، فإن المجازر الجماعية والمآسي المتراكمة، وتلك الدماء المراقة من دون فائدة، وباختصار جميع تلك المساعي الهادفة إلى «التهدئة» التي لا يجرؤ أصحابها على تسميتها بالاحتلال الجديد، إنما تزيد كل يوم من التشكيك في جوهر القيم الأكثر رسوخاً في القارة القديمة، وفي فرنسا على وجه التحديد.

إن سمعة فرنسا تصنعها مبادىء الحرية والمساواة والأخوة التي تعلمنا حبها كما تصنعها تلك التقاليد العريقة التي يتنكر لها اليوم المتحكمون في مصير بلدكم.

لا يمكن لسمعة فرنسا إلا أن تتعزز لو يهتدي قادتها إلى حلّ تفاوضي وسريع للقضية الجزائرية لأن تأكيد فرنسا لوفائها لمثلها الثورية والديمقراطية سيكون من شأنه أن يحفظ لها سمعتها في العالم الإسلامي، وهو مكسب قد تضيّعه نهائياً بسبب الاستمرار في اعتماد سياسة القوة المنتهجة حالياً في الجزائر.

### إخفاق الحكومة الحالية

لقد تضاعف عدد أفراد الجيش الفرنسي بالجزائر مرتين منذ أن اعتلى الرجال الحاليون سدة الحكم في بلدكم بعد انتخابكم لهم على أساس تحقيق السلم. لقد اتسعت المناطق التي يسيطر عليها جيش التحرير الوطني، كما أن حالة «اللاأمن» تزايدت والتحق آخر من يسمّون بـ«العناصر المعتدلة» من الرأي العام الجزائري بصفوف جبهة التحرير الوطني.

أية هبة للضمير الفرنسي - ليس فقط باسم المثل التقليدية للحرية وإنما أيضاً من باب الواقعية ذاتها - وأي ضغط من طرف الرأي العام، سيحملان حكومة الجبهة الجمهورية على فتح عينيها أخيراً والدخول في طريق واضح وصادق مؤد إلى حل تفاوضي؟.

## جزائر الغد

إن الثورة الجزائرية وعلى عكس ما يشاع هنا وهناك من أكاذيب، ليست موجهة ضد الشعب الفرنسي الذي تريد الجزائر، وهي تتوق بكل قواها إلى الحرية والاستقلال، أن تحتفظ بأحسن العلاقات الممكنة معه.

يمكن لبلدينا اللذين يتمتعان على قدم المساواة بالسيادة أن يستمرا في علاقات صداقة وتعاون لا سيما في المجالين الاقتصادي والثقافي.

إن الجزائر، الأمة الفتية المسالمة المهتمة، بعد استرجاع كيانها، بتوفير مختلف حاجاتها، ستضمن الممارسة الحرة للحقوق والواجبات المرتبطة بالمواطنة لجميع الأوروبيين الذين اختاروا الجنسية الجزائرية وتخلوا عن صفة الأجنبي، أما الأوروبيون الذين يفضلون الاحتفاظ بجنسياتهم فلهم ما تضمنه جميع الديمقراطيات لضيوفها.

إن الجزائر المدركة لإمكانياتها الاقتصادية، والثقافية، والسياسية ستكون ديمقراطية تحتضن تنوع الأعراق، والأديان، والآراء.

## الطبيعة المغاربية

بطبيعة الحال، لا يمكن للجزائر إلا أن تحافظ على علاقات صداقة مع الدولتين المغاربيتين الأخريين مثل ما هو الحال مع بلدان المشرق العربي الشقيقة للشعب الجزائري من حيث التقاليد العربية الإسلامية.

إنّ الأمة الفرنسية وبدل التخوّف من هذا التوجّه، يجب أن تدرك الدور الذي يمكن أن تؤديه، بفضل بلدان إفريقيا الشمالية، في هذا العالم النامي بقوة بالانضمام، قبل فوات الأوان، إلى سياسة الصداقة والتعاون الحر. هذا هو المجال الذي تتجلى فيه شرارة الاتصال وينجلي فيه كل غموض بين حضارتين. وإنّه لقدر المغرب العربي أن يكون همزة وصل بين ثقافتين وبين عالمين.

ومن أجل ذلك، ينبغي أن يوضع حد لهذه المجزرة المجنونة قبل أن تتسع الهوة وتحدث القطيعة النهائية. إن حرب الجزائر، وعلاوة على الدم الذي يراق كل يوم، إنماهي تعبير عن عالَميْن يأبيان الحوار المفعم بالأمل.

إنّ واجبكم، أيها الفرنسيون، هو أن تكونوا إلى جانب جميع الوطنيين، وكافة الشعوب المحبة للحرية، وأن تمنعوا استمرار المجزرة تفادياً للقطيعة.

**20 ماي 1956**

# الملحق رقم 4

## رسالة مفتوحة إلى ألبير كامو

### فرين، 26 أوت 1959

إن من الظروف ما يتطلّب من البشر مجابهة سريعة حازمة، بموجب من الذود عن شرفهم، وإلا فيا للخيبة وضيعة الآمال. وإن هذه المواقف المشرّفة وتلك الانتفاضات المحمودة للإنسانيّة إنما يتقّمصها في الغالب فطاحل الفكر، ممّن يرفعون عقيرتهم كلّما ازدريت الحرّيات وانتهكت الحقوق، وكذلك توالت صرخات الأحرار تجاه الجرائم التي تخلّلت هذه الأحقاب الأخيرة في جوّ صاخب من الوحشية والضوضاء، وهي الجرائم التي ما انفكّت معالمها شاخصة بمواطن صبت عليها اللّعنات آونة وحظيت طوراً بهالات الشهداء، شأن غرنيكا، وأوشويتز، وهيروشيما، وبودابيست، والسويس. . .

أما في أيامنا هذه فيتمثّل التحدّي للضمير الإنسانيّ في المشكل الاستعماري، وما يترتّب عنه من فظائع؛ وليس من شكّ في أن الحرب الجزائرية هي أكثر حلقات المأساة دماء مهراقة وآلاما. لا سيما باعتبار شناعة الطرق المتّبعة من طرف الجيش ورجال الشرطة من الفرنسيين. بيد أنّ هذه الطرق التي أثارت استنكار العالم بأسره لم يكن لها بفرنسا سوى البطيء جدّاً من ردود الفعل.

ولمّا ظهر منذ عام ونيّف كتاب «التعذيب» كان في ظهوره مفاجأة أليمة لعدد من الفرنسيين الذين ما كان يخطر لهم ببال أن التعذيب أمسى بالجزائر سنّة متبعة «في استنطاق المتهمين»، وأنها بصدد التسرّب خلسة إلى فرنسا، هذا بصرف النظر طبعاً عن العدد الجمّ ممن لا يزالون متغاضين عن أمرها.

وقد ثارت عندئذٍ ثائرة أساطين الأدب الفرنسي، من أمثال مارتين دوغار ومالرو وموررياك، وتعالت أصواتهم بالاستنكار لتلك الظاهرة. وقد تبيّن لهم أنها قد تنال من حسن سمعة بلادهم، على أنهم لم يحيدوا في ذلك عن سنّة الأمجاد من أسلافهم الذين أبت لهم شيمهم البقاء بمعزل عن المعركة فلم يترددوا في النزول إلى حلبة السياسة لنصرة المستضعفين والمقهورين والنضال في سبيل العدالة والحريّة. ولا سبيل في هذا الصدد أن نتناسى تشهير فولتير بمظلمة كالاس وتنديد هوغو بجرائم من سمّاه «نابليون الصغير»، ولا ما كان من مناصرة لوتي «تركيا المحتضرة»، وتعرّض زولا نفسه للشتائم والضرب في «قضية دريفوس».

على أن أصوات الاحتجاج المتضافرة التي ارتفعت. إثر نشر كتاب «التعذيب»، ثم إثر ما كان من مصادرته ـ كان يعوزها صوت لم يكن بأقله شأناً ـ وذلك هو صوتكم أنتم يا ألبير كامو.

ولم يخلِ ذاك الصمت من طرفكم أن أثار دهش محبّيكم والمعجبين بآثاركم، وقد كان كلّ منهم يتساءل: ما بال كامو «الجزائري»؟ ثم ما لبث السؤال أن تحوّل إلى انتظار مشوب بالحيرة حين برز أخيراً كتاب «الآكلة».

بيد أننا نحن الجزائريين لم يطل بنا التخمين بهذا الشأن إذ كنا

نعلم من زمن أنك سوف تلزم الصمت هذه المرّة أيضاً.

لقد كنا منذ عشر سنوات خلت على مقاعد الثانوية. ونحن ثلّة من الفتيان الجزائريين قد تشبّعوا بآثاركم. ولئن لم تكونوا برائدنا في حلبة التفكير فلقد كنتم قدوتنا، على الأقل في أسلوب التعبير.

وكان يزيد أسلوبكم روعة في أنفسنا ما كنّا نعتز به من انتسابكم إلينا. وكان يزيدنا فخراً أن قد تسنّى لابن من أبناء الجزائر مثلكم أن يبلغ بمفرده إلى قمة المجد.

وكنا نقول في أنفسنا: إنها للمرة الأولى التي يتفطن فيها كاتب جزائري من غير المسلمين إلى أن بلاده ما كانت لتنحصر في الضياء الساطع، وسحر الألوان الزاهية، وفي السراب المتألق بالصحراء، وخفايا الأحياء العتيقة، ومباهج الأسواق التقليدية الخلابة، وباختصار في كل ما أضحى مادة للأدب المستلهم من البلاد النائية مما سئمته أذواقنا وأضحى موضع كراهيتنا ـ ولكن الجزائر هي أيضاً مجموعة من البشر باستطاعتها أن تشعر وأن تفكر وتعمل، وكنا نردد كلمتكم المأثورة في الصدع بمذهبكم: «إنه ليسعني على الأقل، أن أقول إنها (أي الجزائر) لوطني الحق، وإنني حيثما كنت من الأرض، فإنني لأعرف إخواني من أبنائها بما يتملكني عند رؤيتهم من التهلّل لمرأى الأصدقاء. أجل إنني لا أفصل بين ما أحبه في مدن الجزائر وبين حبي لمن سكنها من البشر»[1].

وكنتم، قبل ذلك بزمن، بذلتم الجهد في إدراك الواقع الإنساني على وجهه بدلاً من الهيام بالطبيعة ومفاتنها، ففي سنة 1939 نشرت

---

(1) الصيف. ص 102.

لكم جريدة «الجزائر الجمهورية»، سلسلة من الفصول وصفتم فيها البؤس الضارب رواقه ببلاد القبائل، ولم تخشوا أن تعبروا بشأن الحكم الاستعماري عن رأيكم المناهض كل المناهضة للطروحات الاندماجية الرسمية.

وقد قلتم مما قلتم يومئذٍ: «لئن وجد الغزو الاستعماري يوماً ما مبرراً له، فلن يكون إلا بقدر بذل مساعدته لمن احتل أرضهم على الحفاظ بذاتيتهم، ولئن كان ثمة واجب علينا أن نؤديه بهذا البلد، فهو أن نتيح لأمة تسكنه هي من أشرف الأمم وأكرمها سجية أن تظل مخلصة لذاتيتها ومصائرها[1].

ثم إنكم بعد بضع سنوات، وعلى إثر حوادث ماي 1945 المفزعة، وليتم وجهكم في غير ما تردد شطر الرأي العام الفرنسي في صحيفة «كومبا» وعمدتم إلى الكشف له عن بعض حقيقة «أحباب البيان والحرية»، الذين كانوا آنذاك يترأسون الحركة الوطنية الجزائرية، واعترفتم يومئذٍ بأن «السياسة الفرنسية هي دوماً متأخرة بمقدار عشرين سنة عن الظروف الراهنة»[2]، كما تكهنتم برد الفعل المتوقع، ولا ريب، من طرف الشعب الجزائري بسبب الإهانات المتوالية المنهالة عليه، خاصة تجاه الانتخابات الصورية الكاذبة التي ما لبثت أن بلغت القمة من المهزلة على عهد الوالي العام نيجلن سنة 1948 وقد كتبتم تقولون بهذا الشأن: «لكأنما قد زال عن هذا الشعب إيمانه بالديمقراطية منذ أن قدمت له منها شبه الصورة الممسوخة المزرية بها، فهو يأمل البلوغ عن طريقة غيرها إلى هدفه الذي ما حاد

(1) حاليات 3، ص 90.
(2) حاليات 3، ص 110.

عنه قط، وهو النهوض بحالته»[1].

ولعمري إنك أصبت كبد الحقيقة، ولربما أمعنت في إصابتك، ولقد كان يخاطبنا بنفس اللهجة، منذ عشر سنوات خلت، أبناء جيلكم من قادتنا السياسيين، فكانوا يومئذٍ يصارحوننا بما يغمرهم من المرارة والحسرة لخيبة مساعيهم الحثيثة المتواصلة لكي يعترف لنا بكرامتنا الفردية والشعبية معاً، فلقد كان يعترضهم ويقوم في وُجُوهِهِم من الجانب المقابل (جانب الحكم الغاشم) جدار من صمت ورياء: فما فتئ الحوار مرفوضاً، والوعود منكوثة، والحريات مخنوقة، والصحافة مغلولة، والانتخابات مزيفة، والمناضلون عرضة للتشريد...

وعلى الرغم من ضرب المثل بنا في الجلد لم يعد باستطاعتنا أن نصبر على هذه الألاعيب المتتابعة بلا حصر، ولا أن نثابر على حمل عبئنا المرهق، على غرار سيزيف الأسطوري، وهو ما حدا بنا إلى السير نحو هدفنا دون جعله موضوعاً للنقاش، إنما كانت الوسائل إليه هي موضع الأخذ والرد.

وكذلك كنتم أدرى الناس بخصاصة الشعب الجزائري وما بلغ إليه من بؤس مادي ومعنوي، وشاهدتم عن كثب ما بلغ إليه الازدراء بمطامحه وما كان يلقاه دوماً من تهاون بشأنه ونكث للمواعيد المقطوعة له.

لذلك ما كنا بالمشطين ونحن المضطهدون وأبناء المضطهدين، إذ لم يبق عندنا من ريب في أن كامو (وهو من عرفنا في التغني

---

(1) حاليات 3، ص 113.

بالعدالة والحرية) لن يتخلف عن ضم صوته لأصواتنا والإدلاء بشهاداته لصالح قضيتنا، فيما إذا نحن أشهرنا الأسلحة لاسترجاع حرية بلدنا وإقرار العدالة فيه، وبالتالي أفلم تساندوا في الواقع موقفنا سلفاً إذ كتبتم تقولون: «إنه ليس من رأيي أن يجاب عن تسديد الضربات بالدعوات الصالحة، بل أعتقد أنه لا مناص من حد السيف، فقد علمتني ذلك سنين الاحتلال الأجنبي»[1].

ولم يكن لدينا من شك في أن شهادتكم لنا لن ينحصر مفعولها في تقريب شقة الخلاف بين الأوروبيين والمسلمين بالجزائر، بل ستساهم كذلك في بعث حركة عتيدة لدى الرأي العام الفرنسي من أجل حل شامل لمشكلة الاستعمار.

لقد عُرِفْتُمْ «بكامو الجزائري»، ولم يكن في اقتران الكلمتين أيما نشاز يخدش أسماعنا ويرهق حساسيتنا، ولا أيما تناقض تأباه مداركنا، وما كان يخطر على بالنا، ونحن نتمثلك على تلك الصورة المحببة إلى قلوبنا، بأنكم قد تعرضون صفحاً عن آمال الجزائر ولا تحركون ساكناً لآلامها.

لقد مرت عشر من السنين، ولقد كانت خيبتنا على قدر آمالنا المعقودة عليكم، يا للّه، لكم جدت في غضونها من حوادث، ولكم سالت من مياه، أستغفر اللّه، بل من دماء ودموع على أديم هذه الأرض الجزائرية التي كم ألهمتكم روائع من الآداب.

وفي غرة نوفمبر 1954، اندلعت الثورة الجزائرية، لا «شبه رعد في جو صاح» بل نتيجة محتمة لمائة وعشرين سنة من نظام

---

(1) حاليات 5، ص 183.

بغيض، وكانت النهاية المنتظرة لسلسلة متواصلة الحلقات من الإهانات النازلة بالشعب الجزائري والتي كنتم تتبعتم أطوارها عن كثب زمن مباشرتكم التحرير في صحيفتي «الجزائر الجمهورية»، و«كومبا».

وإن ما كنا نرقبه منكم ليس أن تؤيدونا على طول الخط، ولا أن تمجدوا مجاهدينا، ولا أن تناصرونا «بقضكم وقضيضكم»، على حد تعبير سان جوست، وإنما أن تدلوا بشهادتكم صدعاً بالحق، والحقيقة هي أن الجزائريين لم يشهروا أسلحتهم لمجرد اللهو والمتعة، وهو ما يقتنع به لك دارس لتاريخ حركتهم الوطنية، ولكنهم بعد أن طال بهم السير، وأفضى بهم التطواف إلى «منعرج» مرهق أشبه ما يكون بالمنعرج الذي وصفتموه في مراسلتكم إلى صديقكم الألماني[1]، تأكد لديهم أن الحرب أمست الوسيلة الوحيدة (بعد إخفاق كل ما عداها) للإعلان عن وجودهم في وجه فرنسا ووجه العالم قاطبة، والعودة إلى حظيرة التاريخ من هذا الباب.

لكنكم تجاه حدث خطير من هذا الصنف، آثرتم ملازمة الصمت، حتى إذا ما خرجتم عن صمتكم بعد ثمانية أشهر، ما كان منكم إلا أن خيبتم آمالنا إلى أقصى حد وفوق كل ما نتصور.

ولعمري إن مثار دهشتنا من السوانح التي برزت لكم يومئذٍ بصحيفة «الإكسبريس» لم يكن أصالة تلك الآراء والحجج المبسوطة خلالها (فقد كنا نجدها بحذافيرها في عدد من الصحف اليمينية الفرنسية، وإن كانت أقل اتساماً فيها برياء الجزويتيين). إنما كان يذهلنا خاصة أن تكون هذه السوانح حاملة لإمضائكم.

---

(1) رسائل إلى صديق ألماني، ص 27.

والحقيقة أن ما لم تهضموه قط لهو وجود أمة جزائرية تكافح من أجل بناء مصيرها بمحض اختيارها، وإنكم من فرط تشبثكم بنظرتكم البالية المنافية لسير التاريخ، ما فتئتم تعمدون إلى التفرقة بين «العرب» و«الفرنسيين» وتتحدّثون عن قيام «ثورة عربية»[1].

وهذه الحوادث قد فندت رأيكم ودحضت حجتكم، إذ أبرزت لنا ثورة جزائرية يخوضها مسيحيون ويهود إلى جانب إخوانهم المسلمين في الأدغال والمعسكرات، وفي المعتقلات والمدن، وكلهم يعملون من أجل استقلال بلادهم، وهم على يقين من أن ذلك لن يكون سوى مرحلة في مسيرتهم لتشييد جزائر الغد الديمقراطية المزدهرة.

على أن أكثر ما يسترعي انتباهنا في مقالاتكم بـ«الإكسبريس» إنما هو انتصابكم فيها بمزيد من الغيرة للدفاع عن أوروبيي الجزائر، مع التظاهر إلى ذلك بتسويتكم بين «العرب» و«الفرنسيين» في المعاملة، والوقوف موقفاً وسطاً بين منكوبي النظام الاستعماري وبين محظوظيه الممتازين، فلقد قلتم: «إن 80% من فرنسيي الجزائر ليسوا بالمعمرين وإنما هم من الأجراء أو التجار... ومع ذلك فهذه الفئة المتواضعة هي في مقدمة ضحايا الحالة الراهنة... فلقد ولدوا بتلك الديار، وسوف يلفظون فيها أنفاسهم، وإنما بغيتهم أن لا يقضوا نحبهم في غمرة من الإرهاب والتهديد»[2]. وإنها في الحقيقة لصورة مصطنعة ساذجة قد رسمت لمحض استدرار الشفقة، ولا تمت بأية صلة وثيقة إلى الواقع الملموس، ونحن بعد هذا، ما زعمنا قط أن

---

(1) حاليات 3، ص 154.

(2) حاليات 1، ص 141.

أوروبيي الجزائر كلهم من الإقطاعيين، لكننا إن نحن نزلنا إلى أسفل درجة من السلم الاجتماعي، وجدنا أحقر الأجراء الأوروبين مرتبة ينعمون في عيشهم «بمستوى يرتفع ارتفاعاً واضحاً عن مستوى العرب من أمثالهم»[1] وهو ما سلمتم به آخر الأمر.

وبالتالي، فقد أحسنتم النضال عن قضية الأوروبين، لولا أن سمحتم لأنفسكم بتربثتهم من كل الآثام، فقد كتبتم تقولون: «من ذا الذي عمل منذ ثلاثين سنة على قبر سائر المشاريع الإصلاحية، اللّهُمَّ إلا برلماناً منتخباً من طرف فرنسا؟، ومن الذي كان دأبه الصمم عن ضجيج البؤساء من العرب؟ ومن الذي ارتضى أن تتم عمليات القمع سنة 1945 دون أن تثور لها ثائرة، إن لم تكن الصحافة الفرنسية في أغلبيتها الساحقة؟ وأخيراً ألم تكن فرنسا نفسها هي التي انتظرت بضمير قذر أن تنزف الجزائر دماً حتى تشعر أخيراً بأنها موجودة؟»[2].

إن كل هذا، ويا للأسف، لصحيح، ولكنها نظرة لكم جدّ قصيرة وجدّ سطحية لواقع الأشياء، لكأنكم لم يبلغكم شيء عن تلكم القوى الخفية الجبارة التي تدير دفة البرلمان الفرنسي وتمول طائفة من الصحافة الفرنسية، وتضغط بكلكلها على سياسة فرنسا، ثم أما ترون أن من ساهم في القمع فهو الحري بالإدانة كالذي ألجم فاها عن ذكره، هذا إن لم يكن أجدر بأن يؤنب، وكذلك من انتهز بؤس العرب لنيل حظه من القوت والمتعة، أفليس هو أجدر بالمؤاخذة ممن اكتفى بغض الطرف عنه؟.

---

(1) حاليات 3، ص 140.

(2) حاليات 3، ص 141.

وهكذا فما كان يبدو أنكم تحيونه من مأساة يحيط بها اللبّس، وما كان من مواقفكم المصطنعة المثيرة والمشيرة إلى تنازع فرنسا والجزائر، كل ذلك إذن ما كان سوى مخادعة وذرا للرماد في العيون، وها هي الثورة الآن اضطرتكم إلى رفع اللبس، وإماطة القناع، وإلى الكشف عن وجهكم الحقيقي، وإنه لوجه فرنسي من مستوطني الجزائر، أي أولئك الذين احتكموا إلى انعكاساتهم العصبية أكثر من احتكامهم إلى عقولهم، وكان عامل الفزع رائدهم في ردهم للفعل، وإنه ليخيل إلينا أنكم أردتم إثبات عدم انتمائكم إلى طائفة من المثقفين سبق أن شهر بهم سوستيل ممن يعتزون بأدمغتهم، ولا يعنون حق العناية بجماجمهم»[1].

لقد تهالكتم على تلك الآلة الضخمة للاستعمار، فالتهمت دواليبها المشتبكة أصبعكم وأمسيتم في قبضتها، ومن يومئذٍ لم تتمالكوا من أن تستعملوا الرطانة السوستيلية. فلا حديث لكم إلا عن الجزائر الفرنسية»[2]. المهددة من طرف «تواطؤ غريب تألبت علينا مدريد وبوادبيست والقاهرة»[3].

وبينما أنتم الذادون عن حوزة الأقلية الأوروبية أصبحتم أنتم المتنقصون والمزدرون للحركة الوطنية العربية التي تقولون عنها «إنها قد أعرضت جانباً عن سد الضروريات المادية الهائلة لجماهير ما تنفك متضخمة يوماً بعد يوم، وظلت تحلم بوحدة إسلامية ربما كانت أيسر

(1) سوستيل: «المأساة الجزائرية وتدهور فرنسا». ص 1.
(2) حاليات 3، ص 146 ـ 147.
(3) حاليات 3، ص 146.

تصوراً وأبرز ملامح في مخيلة رجال الحكم بالقاهرة منها في واقع التاريخ»[1].

حقاً إنه لممّا يؤسف له أن يلجأ رجل بمنزلتكم من الفضل إلى هذا الصنف من حجج سخيفة غثة، وأنتم من أيقنتم في ضميركم أن ثورتنا الجزائرية مجسمة للصميم من مطامح الشعب.

وأنها من صنع أبنائه، وإلا فكيف صمدت طيلة خمس سنوات ذلك الصمود البطولي في وجه جيش عصري موفور العدة تجاوز تعداده زهاء نصف المليون جنديّ.

هذا ومن غريب أمركم أنكم إذ تعلنون ملء شدقيكم حبكم لـ«إخوانكم» العرب فأنتم في الواقع تتباهون بازدراء كل ما مت بصلة للعرب والإسلام والشرق، ولئن كانت الجزائر في زعمكم هي «وطنكم الحقيقي». فأنتم أجهل الناس بأمجادها الغابرة، وقد بلغ بكم التهور في هذا الصدد إلى أنكم تحدثتم عن مدن جزائرية «لا ماضي لها».

ولو أنكم ألممتم ولو إلمامة سطحية بتاريخ المغرب العربي لَعَلِمتم أن الأمة الجزائرية ليست مجرّد ظاهرة وأن رسالتها الفطرية، وإن اتسمت بسمة البحر المتوسط، فهي إلى ذلك إفريقية وعربية.

وقد أطللتم على الرأي العام سنة 1956، وعلى صفحات جريدة «الإكسبريس» أيضاً، بفكرة مهادنة بين السكان من المدنيين بالجزائر، وإذ منيت مبادرتكم بالفشل اعتزمتم اللجوء إلى برجكم

---

(1) حاليات 3، ص 150.

العاجي، لكنكم أمسكتم عن إيضاح موقفكم ولم تحدثونا عمن صرخوا في وجهكم يوم أن أخذتم الكلمة في الجزائر العاصمة.

فلربما أحدثت الضجة المتصاعدة نحوكم من أفواه الجماهير بكلمة «كامو إلى المشنقة»، ربما أحدثت تلك الضجة النكراء في نفسكم عين الأثر الذي عملته البندورة (الطماطم) في نفس غي مولي حين رشق بها من طرف مستمعيه.

وفعلاً، فحين أمسكتم القلم ثانية بعد سنتين لإيضاح موقفكم ذلك، ما كان منكم إلا أن حررتم مرافعة قاسية بإدانة الثورة الجزائرية. كذلك في مقالين لكم ينمّان عن سوء النية، لم تنبسوا ببنت شفة عن الجزائر الشهيدة التي أمست مناط الإعجاب ببطولتها المتضاعفة على قدر المحن والأرزاء، وهكذا لم تتحرروا، بعد أربع سنوات من الحرب، من تجاهل تضحية أمة معذبة ونكرانها لذاتها، ولم تقيموا وزناً لرجالها الصناديد، ونسائها الصامدات تجاه النار والحديد والجوع، فالثورة الجزائرية، في مذهبكم هي عين الإرهاب، ولا دأب للمقاتلين في «الأدغال المعادية لنا»[1] سوى «الفتك بالأبرياء»[2] والتذبيح والتمثيل بالقتلى»[3].

ولكن ليت شعري كيف تعرضتم للإرهاب وأسهبتم بصدده، وتجاهلتم ما سبق طيلة زهاء السنة من الكفاح المسلح الذي ظل منحصراً في الجبال؟ ولماذا هذا التأكيد منكم بشأن الإرهاب،

---

(1) حاليات 3، ص 15.
(2) حاليات 3، ص 17.
(3) حاليات 3، ص 18.

ومروركم بسرعة البرق الخاطف على ما سموه «التهدئة»، وإن كان أشبه بالنظام السائد بفرصوفيا، مما ضرب به المثل، فأصبح كناية يضفون بها الستر أو بالأحرى يميطونه عن أفظع سياسة لا إنسانية للتقتيل، وهي السياسة التي لولاها لما خلق الإرهاب القائم في وجهها.

وإنكم لتدينون الإرهاب خشية أن تصيب ويلاته أهلكم[1]، وكثيراً ما تحدثتم عن أمكم بلهجة مؤثرة، فهل بلغ إلى علمكم أن بعضنا قد فجعوا في أسرتهم عن بكرة أبيها إثر أعمال «التطهير» التي يقوم بها الجيش الفرنسي، وأن آخرين قد فضحت أمهاتهم (أجل، أمهاتهم، يا كامو) أشنع فضيحة على أيدي الجنود الفرنسيين؟.

بيد أنكم أبيتم أن تنظروا حولكم وأن تطلعوا على الحقيقة، وكأنما استعصى عليكم أن تدركوا وقوعكم بدوركم في قبضة التضليل والتلاعب الذي شهرتم به في كتابكم «الإنسان المتمرد»، وهو «أن تزين الجريمة بأثواب الطهارة وتتخذها شعاراتها».

ويبدو أنه لا امتعاض لكم مطلقاً من عالم في قبضة الكابوس، ودنيا مروعة على غرار ما تخيله أورويل، يضفى فيها على الحرب لقب «التهدئة» وتسمى فيها أعمال التخريب والنهب، «حماية للسكان»، وتدعى فيها المحتشدات «مراكز تجمع»، والاغتيالات «انتحارات».

وكأنما عميت أبصاركم إزاء كل هذه المناكر، فتفضلتم بإسداء النصح إلينا وحضنا (ويا للمهزلة) أن نتخذ من غاندي أسوة حسنة لنا[2]، ولقد كان الأجدر بكم لو توجهتم من قبل بموعظتكم إلى

---

(1) حاليات 3، ص 13. وما بعدها.
(2) حاليات 3، ص 17.

رهطكم وأبناء جلدتكم، فلقد كانوا أولى الناس بها.

أما نحن فلئن أعجبنا مزيد الإعجاب بغاندي ودعوته إلى نبذ العنف وما فتئنا نحيط ذكراه الخالدة بإجلالنا، فلن ننسى هذه الكلمة المأثورة عنه أيضاً: «أعتقد في الواقع أنه إن لم يكن مفر من الاختيار بين الجبن والعنف فلن أتردد في أن أشير بثانيهما»[1].

على أنكم ما اكتفيتم بالوعظ وبث الأخلاق الفاضلة، فأنتم على تظاهركم بالبقاء فوق المعركة وبإدانتكم للقمع والإرهاب معاً قد اقترحتم علينا حلاً سياسياً للقضية الجزائرية، هو ويا للعجب نفس ما تقدم به... لوريول، وقلتم عنه «إنه الجامع بين الميزات الحسنة لكل من الإدماج والفيدرالية»[2].

وإنه لمن سخرية الأقدار أن يصبح الحامل لجائزة نوبل ومن ساهم في تحرير «الجزائر الجمهورية»، ظهيراً ومسانداً لواضع النظريات المتخذة شعاراً من طرف غلاة الرجعيين ومجلة «كارفور».

لا مراءَ إذن في أنكم من ألد المعارضين لحصول «وطنكم» على استقلاله، فقد ناهضتم ما سميتموه بـ«سياسة التخلي والعجز» لأنها في زعمكم ملقية بالشعب العربي في مزيد من البؤس والفاقة»، ونحن لا يسعنا إلا شكركم على عطفكم هذا المتسم بطابع الرأفة الأبوية المصطنعة، مما قد أبداه نحونا إتيان بورن وكثيرون من ذوي العواطف الطيبة، وكفانا أن نجيبكم بكلمة ريمون آرون (الذي أثبت اتسام آرائكم بنزعة الرياء ودحض حججكم المزيفة) إذ يقول: «إنه لا يبدو

---

(1) استشهد بها نهرو في كتابه «حياتي وأيامي في السجن» ص 3.

(2) حاليات 3، ص 208.

في نظرنا من باب الحل المثالي لقضية انتشال الجزائر من بؤسها أن يوجه إليها بجيش يربو عن 400.000 من الجنود»[1].

وقلتم إلى ذلك إن استقلال الجزائر تعوزه الشرعية، حيث «لم يصادق عليه الرأي العام الفرنسي»[2]، وعلى افتراض صحة مزعمكم هذا، مما لم يقم بعد دليل يؤيده، فإنه لمن العجب على أقل تعبير أن يستهتر الديمقراطي الصميم ألبير كامو على هذا النحو السافر بإرادة الشعب الجزائري الصريحة.

وقد ذهبتم أخيراً إلى أن استقلال الجزائر معناه «تجريد 1.200.000 أوروبي من حقوقهم»[3]، فليت شعري كيف أهملتم دوماً الاستشهاد بأقوال الشق المعارض لكم في هذا الصدد.

وأنتم المتبجحون بـ«نزاهتكم الفكرية»؟ ولو أنكم أخذتم أنفسكم بقراءة البيان الأساسي لجبهة التحرير الوطني لوجدتم فيه «أن الثورة لا ترمي إلى الإلقاء في اليم بالجزائريين الأوروبي الأصل، وإنما هدفها القضاء على النير الاستعماري، وأنها لست بحرب أهلية ولا حرب دينية، وإنما غايتها الظفر بالاستقلال الوطني لإرساخ قواعد جمهورية ديمقراطية واجتماعية كفيلة بتحقيق المساواة التامة الخالصة من شوائب التفرقة بين كافة أبناء وطن موحد»[4]، وباختصار فإن ثورتنا على حد تعبيركم في «الإنسان المتمرد»، إن هي جحدت وجود الأوروبيين كأسياد فهي تثبت لهم الوجود بصفتهم، «أفراد لهم كيان ذاتي».

---

(1) ريمون آرون «المأساة الجزائرية» ص 49.

(2) حاليات 3، ص 129.

(3) حاليات 3، ص 26.

(4) مما استشهد به شارل هنري فافرود في كتابه عن «الثورة الجزائرية».

أما أنتم فلئن احتملتم وجودنا إلى جانبكم سنة 1954، باعتبارنا شبه أرقاء وبشراً من سقط المتاع (مما كان يتيح لكم تحبير الخطب الرنانة بشأن بؤسنا وخصاصتنا) فاليوم تتنكرون لنا وتنكرون وجودنا بسبب ثورتنا وشقنا عصا الطاعة في وجهكم، وهكذا فمن يوم أن رفضنا إقامتنا على العسف والقهر وأبينا إلا أن تنتهي «فضيحة القرن العشرين» حلت بنا الكارثة وصبت علينا نقمات كامو.

* * * * *

هذه حرب الجزائر ما تنفك محتدمة في موكب من الفظائع والآثام المستنكرة، فمن فاجعة القمع إلى مهزلة التآخي، إلى أضحوكة الانتخابات الكاذبة، كل ذلك وأنتم، فيما يبدو منصرفون بجل مهجتكم إلى عملكم المسرحي وليس في ذلك من عجب.

وأنتم ما فتئتم المولعين بالفن والجمال، وممن راقهم التباهي ببُنُوَّتِهِم الروحية لليونان، لكنكم إلى شغفكم بالجمال قد آليتم على أنفسكم أن تكونوا أوفياء لقضية المستضعفين الممتهنين، فقد كتبتم قائلين: «إن هنالك الجمال، وثمة المستضعفين، وبودي لو أدوم على عهدي نحو الأول ونحو الآخرين»[1]. فأي صنف من المستضعفين عنيت بكلمتك هذه؟ إنهم ولا شك، أبطال روايات دستويفسكي...

أجل إنكم ما تزالون رافعين عقيرتكم بالذنب عن معاصريكم الممتهنين في كرامتهم إذا ما كانوا من أبناء المجر أو إسبانيا، ألا فلتعملوا «إذن إنْ كنتم تذكرون ربوع نشأتكم الأولى» أن إذلال البشر هنالك شنشنة مألوفة وسنة مطردة، ولئن كانت الشتائم فيما مضى منثالة

(1) «الصيف»، ص 160.

علينا في الشارع وفي المكتب وفي عربة الترام وفي العمل، فنحن اليوم يسلطون علينا في منازلنا وفي غياهب السجون، وفي أحيائنا الريفية وفي المحتشدات، يسلطون علينا محنة «جيجين» وما دعي بـ«غسل الأدمغة» وما إلى ذلك من ضروب التنكيل الشنعاء، حتى الرهائن المتساقطة تحت الرصاص في الساحات العمومية لم تسلم من شرها...

فماذا أسديتم، يا كامو، لوطنكم المستضعف على هذه الصورة؟ لقد ذاع صيتكم في هذا الشأن بمواقفكم المتسمة بالصمت والتخلف وملازمة الحذر، وما دريتم أن من الحذر ما يكون أفدح لنا من أية مغامرة، وأن من الصمت ما ترن أصداؤه في الأذن أروع من أقذع شتيمة...

لا شك في أنكم رفعتم احتجاجاً صارماً، ولسبب وجيه، على الزج بصديقكم ميزونسول في السجن[1].

فهل نستخلص من هذا أنكم في اطمئنان من ضميركم لتعذيب جميلة بوحيرد وهنري علاق، ومؤلفي «الآكلة» والجم الغفير من أضرابهم، أو كنتم مرتاحين لاغتيال «إخوانكم» ابن مهيدي وبومنجل وأودين والتبسي وعيسات وكثيرين غير هؤلاء؟.

لقد حاولتم يوماً أن تضعوا تعريفاً لحقيقة الجزائريين، فعزوتم ما اتصفوا به من قوة في البأس وشدة في الشكيمة إلى «تغلب القلب والعاطفة عندهم على عوامل اللباقة والحذق»[2].

---

(1) في مقالين نشرا بجريدة «لومند» ماي، جوان 1954.

(2) «الصيف» ص 95.

أما أنتم، يا كامو، فإن كل من عرفوكم يشهدون لكم بأن عنصر اللباقة الذهنية والحذق أوفر لديكم من مادة المشاعر والأحاسيس القلبية (وهو ما نقف عليه في غير ما مشقة عند مطالعتنا لـ«رسائلكم إلى صديق ألماني»، وذلك هو موطن الضعف في شخصكم.

ألا إن المستضعفين بالأمس، والثائرين اليوم، والعادلين غداً لهم أولئك الذين كنت تسميهم «إخوانك». ولئن استضعفوا حقاً، فلقد أحرزوا أوفر نصيب من ذلك «الإحساس بالشرف»، الذي سبق لكم أن أَشَدْتُمْ به[1]، قبل أن تقبعوا في عزلتكم التي توفر لكم أسباب الرفاهية، وهم إن ثاروا اليوم فلسوف يصبحون في غد قريب رجالاً أحراراً بفضل معاقلهم وأدغالهم، ثم هم بالتالي العادلون الذين سوف ينهضون فوق الأنقاض والخراب ليبنوا الجزائر الجديدة بروح أشبعتْ تواضعاً واتقدت حماساً وإيماناً وسيعملون جهدهم على تطهيرها إلى الأبد من رجس إذلال الإنسان لأخيه الإنسان.

وهم يدعون إلى الإسهام في عملهم هذا الملتهب حماساً كافة أبناء الجزائر، بمن فيهم أنتم يا كامو، على أنني أصارحكم بأنهم في هذه المرة لن تساورهم في شأنكم خوادع الظنون وكواذب الأحلام.

أما أولئك الذي كانوا منذ عشر سنوات خلت، وهم على مقعد مدرستهم، ينسجون لكم الأكاليل من الإطراء والتمجيد فهم ما فتئوا إلى اليوم يكبرون في شخصكم براعة الصياغة لغرر الألفاظ، وجودة الإلقاء لفرائد البيان، وبعبارة أوجز ما فتئوا يُجِلّون فيكم رجل المسرح، أي الذي تخفق المساعي كلها في البحث عن أية مطابقة بين قوله وعمله.

---

(1) حاليات 1، ص 57.

Six. — LE MONDE. — 5 août 1961.

# L'ÉVOLUTION

# Libres opinions

## Pour un prisonnier

Par CLAUDE ROY

LE malheur des temps est si grand qu'on ne sait par quel bout le prendre. Il y a tant d'hommes, et partout, enfermés dans des prisons injustes qu'à la fin on n'a presque plus de voix pour demander qu'elles s'ouvrent. Il y a tant de morts qu'on n'a presque plus de larmes pour les pleurer, ni d'indignation pour déplorer la bêtise qui les fit mourir.

Celui dont je voudrais parler malgré tout, on jugera peut-être qu'il n'est pas tellement malheureux. Il est seulement en prison, et il pourrait être mort. Il est seulement malade, et il pourrait être torturé. Alors pourquoi s'inquiéter de lui ? Pourquoi parler en sa faveur ? Il y a tant de morts qui demandent qu'on ne les oublie pas trop vite, tant de persécutés plus pitoyables encore que celui-là.

Je voudrais parler néanmoins d'Ahmed Taleb, parce qu'il est mon ami, parce qu'il est en détresse. Et parce que son cas me semble d'une absurdité typique, significative — et palpable.

Il est mon ami sans que je l'aie jamais rencontré. Il y a quatre ans et demi qu'il est en prison, que son adresse est : « Ahmed Taleb, prévenu politique, infirmerie, prison de Fresnes. » Taleb était venu en France faire ses études. Il a passé maintenant presque autant de temps à Fresnes qu'à la faculté de médecine. Il m'a écrit un jour, après avoir lu un de mes livres, une lettre très simple et très belle. « Je fais partie de ces jeunes Algériens, me disait-il, qui, sur les bancs du lycée ou de la faculté, se sont fait une certaine idée de votre pays... Si je vous écris aujourd'hui, ajoutait-il, c'est surtout pour vous affirmer ma conviction que dans la France actuelle, il est encore des hommes qui incarnent cette idée. » J'ai répondu à Taleb, et nous nous sommes liés sans nous être vus une seule fois.

Ahmed Taleb est en prison sans qu'on ait jamais songé à le juger, prévenu sans avoir jamais comparu devant un tribunal. Depuis mars 1957 il se trouve dans ce *no man's land* du captif qui ne parvient à obtenir ni un non-lieu ni des juges. Responsable étudiant de la Fédération de France du F.L.N., Ahmed Taleb n'est accusé d'aucune participation directe ou indirecte à un quelconque acte de violence. Il n'a « atteint à la sûreté extérieure de l'État » que parce qu'il s'était fait « une certaine idée de la France », et (corrélativement) une certaine idée de l'avenir de son pays, parce que la France de la liberté lui semblait incompatible avec une Algérie sans liberté et sans indépendance.

Après quatre ans et demi de prison, Ahmed Taleb est aujourd'hui gravement malade. D'une grave, délicate et peu fréquente affection, la maladie de Recklinghausen, qui se manifeste par une anémie croissante, des tumeurs et nodules sous-cutanés sur le trajet des nerfs. Les médecins de Fresnes ont constaté que son « *état général est notablement aggravé par l'état carcéral prolongé* ». Ses défenseurs ont demandé qu'il soit mis en liberté pour que tout puisse être mis en œuvre afin de le sauver. Ils ont apporté devant la chambre d'accusation de la cour de Paris les preuves indiscutables de la gravité de son état, de l'impossibilité où on est de le soigner à Fresnes, le témoignage d'un neuro-psychiatre qui offre de l'héberger chez lui et de le traiter. Le représentant du ministère public a exprimé un avis favorable à la mise en liberté de Taleb. Mais la « certaine idée de la France » qu'a pu se former Ahmed Taleb, que quatre ans et demi de prison, ni le malheur même de l'Algérie, n'avaient pu peut-être entièrement démentir, a subi un coup supplémentaire : la chambre d'accusation a refusé la mise en liberté du malade. Il n'y a pas de juges en France pour déclarer que Taleb est coupable d'un crime ou d'un délit. Mais il y en a pour déclarer qu'il doit néanmoins rester en prison, même s'il doit en mourir.

# الملحق 5

## من أجل سجين

**Le Monde, 05 août 1961**

**بقلم كلود روا** Claude Roy

إن مآسي الزمن هي من الكثرة ما يجعلنا في حيرة من أمرنا بماذا نبدأ. هناك العديد من الرجال، وفي كل مكان، يرزحون في غياهب سجون جائرة يظل المرء يصيح لفتح أبوابها إلى أن يبحّ. إن عدد الموتى من الضخامة ما جعل الدموع تجف ولا يكاد هؤلاء الموتى يجدون من يبكيهم أو يستنكر تلك البلادة المؤدية إلى موتهم.

لعل الرجل الذي أريد الحديث عنه في هذ المقام يعتبر محظوظاً على الرغم من كل شيء ما دام حياً يرزق وإن كان مسجوناً لأنه كان من الممكن أن يلقى حتفه! إنه مريض فقط وكان من الممكن أن يتعرض للتعذيب! فلماذا، إذاً، يحتار المرء بشأنه؟ ولعل هناك من الموتى من يدعونا إلى عدم نسيانه بسرعة، ومن المقهورين حالتهم أكثر مثاراً للشفقة من هذا الرجل.

ومع ذلك، أريد أن أتحدث عن أحمد طالب لأنه صديق لي ولأنه الآن في حالة شدة، ثم لأن حالته تبدو لي متسمة بطابع العبث

وتحمل دلالة خاصة وتكتسي طابع الهدوء.

إنه صديق لي من دون أن ألقاه ولو مرة واحدة. فهو مسجون منذ أربعة أعوام ونصف وعنوانه هو: «أحمد طالب، معتقل سياسي، العيادة، سجن فران». لقد وفد طالب إلى فرنسا للدراسة، وقد قضى بالسجن إلى حد الآن تقريباً نفس المدة التي قضاها بكلية الطلب. ذات يوم، وبعد مطالعته لكتبي، وصلتني منه رسالة في غاية البساطة والجمال يقول فيها: «أنا من بين هؤلاء الشباب الجزائريين، على مقاعد الدراسة بالثانوية أو الكلية، ممن تكونت لهم فكرة ما عن بلدكم... وإذ أراسلكم اليوم فإنما لأنني أريد تأكيد قناعتي لكم أن فرنسا الحالية لا زال فيها رجال يجسدون هذه الفكرة». وقد أجبت طالب ونشأت بيننا صداقة من دون أن نلتقي ولو مرة واحدة كما ذكرت.

إن أحمد طالب في السجن من دون أن يتم التفكير أبداً في محاكمته ويظل رهن الحبس الاحتياطي. ومنذ مارس 1957، يوجد السجين في وضع غريب: فلا أُفرج عنه ولا مثُل أمام قضاة. وبوصفه مسؤولاً طلابياً بفدرالية جبهة التحرير الوطني بفرنسا، أحمد طالب غير متهم بأية مشاركة مباشرة أو غير مباشرة في أية عملية عنف. كما أنه لم يتسبب في أي «مساس بالأمن الخارجي للدولة» سوى أنه حامل لـ«فكرة ما عن فرنسا»، وَيِتَلاَزُم لفكرة ما عن مستقبل بلده، ذلك أن فرنسا الحرية بدت له غير متفقة مع جزائر من دون حرية ومن دون استقلال.

بعد أربع سنوات ونصف قضاها بالسجن، يعاني أحمد طالب اليوم مرضاً عضالاً. إنه مرض خطير ونادر، يُعرف بمرض Recklinghausen،

يتمثل في فقر دم متفاقم وبأورام وعقد تحت جلدية حيث تمر الأعصاب. لقد لاحظ أطباء فران أن «حالته الصحية العامة تدهورت نتيجة حالة الحبس المتواصل». وقد طالب محاموه بالإفراج عنه كي يتسنى القيام بكل ما من شأنه إنقاذه، مقدمين، أمام غرفة الاتهام للمجلس القضائي لباريس، الأدلة الدامغة المثبتة لخطورة حالته ولاستحالة علاجه بفران، إضافة إلى شهادة لطبيب أعصاب عرض إيواءه في بيته ومعالجته. هذا، وقد عبر ممثل النيابة العامة عن موافقته على الإفراج عن السجين، غير أن «الفكرة» التي أمكن لأحمد طالب أن يحملها عن فرنسا، فكرة لم تستطع الأربع سنوات ونصف من السجن ولا مآسي الجزائر أن تفندها تماماً، قد تعرضت لضربة أخرى: رفض غرفة الاتهام الإفراج عن المريض. لا يوجد اليوم، بفرنسا، أي قاض قادر على التصريح أن طالب مُدان بجريمة ما أو جنحة، لكن هناك من هو قادر على التصريح بضرورة بقائه في السجن حتى وإن توفي فيه.

كلود روا Claude Roy

LE MONDE — 29 août 1964 — Page 5

# BLÈMES ALGÉRIENS

## Libres opinions

### POUR UN PRISONNIER — DE NOUVEAU

Par CLAUDE ROY

UN matin de janvier 1959, je trouvai dans mon courrier une lettre qui m'était adressée de Fresnes par un étudiant en médecine. Ahmed Taleb était en prison depuis plus de deux ans et demi, et il devait encore y rester près de deux ans. C'était un des milliers d'Algériens que les gouvernements d'alors gardaient dans les prisons françaises pour les persuader de rester Français. Cette conception de « l'Union française », l'union des geôliers et des captifs, n'a pas donné, je crois, d'excellents résultats. Ahmed Taleb m'écrivit alors : « Je fais partie de ces jeunes Algériens qui, sur les bancs du lycée ou de la faculté, se sont fait une certaine idée de votre pays. Idée à laquelle les faits infligèrent un démenti quotidien. » Et, reprenant les termes d'un texte que je venais de publier, Ahmed Taleb ajoutait : « *Laissez-moi vous dire seulement que nous avons recouru à la raison des armes parce qu'il ne suffit pas d'avoir raison contre l'injustice, la bêtise et la haine : il faut en avoir raison... Je sais gré à ceux qui ont renforcé en moi une certaine image de la France. Il m'est arrivé sans doute de prononcer à ce sujet des paroles dures. Mais, croyez-moi, si j'ai appris une chose en prison, c'est mon inaptitude à la haine.* »

Je répondis à Ahmed Taleb, et, sans que je l'aie jamais rencontré, ce correspondant inconnu devint peu à peu un ami très proche. Quand j'appris que sa santé, ébranlée par plusieurs grèves de la faim successives, donnait de graves inquiétudes, je demandai au *Monde* l'hospitalité de ses colonnes et, dans un article intitulé *Pour un prisonnier*, j'exposai ici même le cas symbolique d'Ahmed Taleb — parce qu'il était Algérien, parce qu'il voulait la liberté de son peuple, parce qu'il était prisonnier, malade, courageux — et parce qu'il était mon ami. Ahmed Taleb fut mis en liberté provisoire quelques jours plus tard et son pays en liberté définitive quelques semaines après.

Je ne suis pas de ceux qui ont souhaité l'indépendance algérienne de façon conditionnelle : à *condition* que les Algériens, une fois indépendants, réaliseraient tous les rêves de la gauche française, à *condition* qu'ils réalisent le socialisme idéal, la démocratie idéale, la révolution idéale, à condition qu'une fois indépendants ils soient absolument parfaits, exemplaires et modèles. Je ne trouve pas très sage le « paternalisme » de certains hommes de gauche français qui ressemblent, en face de l'Algérie indépendante, à ces parents qui voudraient que leurs enfants accomplissent ce qu'ils n'ont pas su accomplir, donnent de bonnes ou de mauvaises notes au président Ben Bella et qui, parce qu'ils ont soutenu le droit des Algériens à être des Algériens à part entière, se croient le droit, eux Français, d'intervenir avec passion dans des problèmes et des querelles qu'ils connaissent mal. Si je me sens contraint de dire ici, une nouvelle fois, qu'il me semble fâcheux non seulement qu'Ahmed Taleb soit de nouveau en prison, dans les prisons de la République algérienne cette fois-ci, mais encore — si mes renseignements sont exacts, et je crains fort qu'ils ne le soient — qu'on l'y soumette à de mauvais traitements, ce n'est pas pour faire du cas d'Ahmed Taleb une arme de guerre contre le nouveau régime algérien, encore moins pour donner le plaisir à ceux qui ont combattu l'indépendance de l'Algérie de pouvoir dire : « Nous l'avions bien dit. » Si ce sont eux qui ont enseigné à la police algérienne d'aujourd'hui les méthodes de l'interrogatoire « poussé », des coups et de l'électrogène, il n'y a pas de quoi se vanter, ni se réjouir qu'une certaine « idée de la France », celle des prisons, des bastonnades et de la torture, survive un peu trop longtemps en Algérie à la présence de la France officielle. Quels que soient les problèmes politiques et sociaux qu'ont à résoudre nos amis algériens, il me semble qu'ils ont davantage besoin de médecins que de prisonniers mal en point. Si mon ami le docteur Ahmed Taleb est devenu un traître à sa patrie, qu'on le prouve, qu'on le juge, qu'on le condamne. Mais je ne crois pas que le socialisme algérien ait quoi que ce soit à gagner à permettre à ses citoyens de comparer les prisons de M. Robert Lacoste à celles du président Ben Bella, les méthodes de l'injustice française aux méthodes de l'injustice algérienne, ni à contraindre ses amis français d'écrire tous les deux ou trois ans, pour les mêmes captifs, dans les mêmes prisons, mais avec d'autres geôliers, un article intitulé *Pour un prisonnier*.

A GENÈVE

# الملحق 6

## من أجل سجين . . مرة أخرى!

**Le Monde, 29 août 1964**

بقلم كلود روا Claude Roy

ذات صباح من شهر جانفي 1959، عثرت ضمن بريدي على رسالة وصلتني من فران بعث بها طالب بكلية الطب. كان أحمد طالب، آنذاك، مسجوناً منذ أزيد من سنتين ونصف وكان عليه أن يمكث هناك زهاء سنتين أخريين. لقد كان واحداً من آلاف الجزائريين ممن زجت بهم الحكومات الفرنسية في ذلك الزمان في السجون لإقناعهم بالبقاء فرنسيين. إن هذا التصور لـ«الاتحاد الفرنسي»، أي اتحاد السجّان والمسجون لم يؤد، كما أرى، إلى نتائج باهرة. لقد أرسل أحمد طالب إلي خطاباً يقول فيه: «أنا من بين هؤلاء الجزائريين الشباب ممن تكونت لهم على مقاعد الثانوية أو الكلية فكرة ما عن بلدكم. إنها فكرة ما لبثت الوقائع اليومية أن كذّبتها تكذيباً قاطعاً. وفي إشارته إلى مقال كنت قد كتبته قبل رسالته بقليل، يضيف أحمد طالب قائلاً: «اسمحوا لي، فقط، أن أقول لكم إننا لم نلجأ إلى السلاح إلا بعد ما أدركنا أنه غير كاف أن تكون محقاً في محاربة الظلم،

والحماقة، والكراهية ولكن يجب أن تهزمها. . . إنني لمدين لكل من عزز لدي صورة معينة عن فرنسا. ولعله حدث لي أن أدليت بعبارات قاسية في هذا الشأن، لكن، صدقوني، إن قلت لكم إن كان هناك شيء تعلمته في السجن، فهو عدم قابليتي للكراهية».

أجبت أحمد طالب. ومن دون أن ألتقيه ولو مرة واحدة، صار هذا المراسل المجهول، مع مرور الأيام، صديقاً قريباً مني جداً. وعندما علمت أن صحته ـ التي نالت منها كثيراً الإضرابات المتتالية عن الطعام ـ أضحت مصدر قلق، طلبت من جريدة Le Monde التكرم عليه بفتح أعمدتها لي فكتبت مقالاً بعنوان «من أجل سجين» عرضت فيه للحالة الرمزية لأحمد طالب لأنه كان جزائرياً وكان يريد الحرية لشعبه، ولأنه كان سجيناً، مريضاً، وشجاعاً، ولأنه كان صديقي. لقد تم الإفراج عن أحمد طالب بضعة أيام من بعد، كما نالت بلاده استقلالها النهائي أسابيع بعد ذلك.

لست ممن تمنوا استقلال الجزائر بشروط: شرط أن يحقق الجزائريون، بعد استقلالهم، كل أحلام اليسار الفرنسي، شرط أن يحققوا الاشتراكية المثالية، الديمقراطية المثالية، الثورة المثالية، شرط أن يكونوا، بعد استقلالهم، على أكمل صورة وأن يكونوا مثالاً وقدوة لغيرهم. إني لأرى أنه من غير الحكمة أن يعتمد المرء تلك النزعة «الأبوية» التي تطبع سلوك بعض رجالات اليسار الفرنسي الذين يظهرون، في تعاملهم مع الجزائر المستقلة، وكأنهم آباء يريدون من أبنائهم أن يحققوا ما لم يستطيعوا هم تحقيقه، فتجدهم يمنحون علامات للرئيس بن بلة. ولأنهم أيدوا حق الجزائريين في أن يكونوا جزائريين كاملي الحقوق، يظنون أنهم مؤهلون، وهم فرنسيون،

للتدخل بقوة في مشاكل ونزاعات لا يعرفون عنها إلا القليل. وإذ أشعر بالحاجة إلى أن أقول هنا، ومرة أخرى، إنني مستاء، ليس فقط لعودة أحمد طالب إلى السجون من جديد، سجون الجمهورية الجزائرية هذه المرة، وإنما أيضاً - إذا كانت معلوماتي صحيحة وأخشى أنها كذلك - لسوء المعاملة التي يلقاها في هذه السجون. وغايتي في ذلك ليس اتّخاذ حالة أحمد طالب سلاحاً حربياً ضد النظام الجزائري الجديد، ناهيك عن إشفاء غل من حارب استقلال الجزائر وتمكينه من القول: «لقد قلناها لكم!». فإذا كان هؤلاء هم من علّم الشرطة الجزائرية طرق الاستنطاق «المعمّق» واستعمال الشحن الكهربائية اليوم، فليس هناك ما يدعو إلى السرور والغبطة أن نجد تلك «الفكرة عن فرنسا»، فرنسا السجون والضرب والتعذيب، تتواصل، فوق اللزوم، في الجزائر بعد رحيل فرنسا الرسمية. ومهما تكن المشاكل السياسية والاجتماعية التي تنتظر حلاً لها من طرف أصدقائنا الجزائريين، يبدو لي أن هؤلاء في حاجة إلى أطباء أكثر مما هم في حاجة إلى مساجين في معاناة. وإذا كان صديقي الدكتور أحمد طالب قد صار خائناً لوطنه فليتم إثبات ذلك، فليحاكَم ويُحكم عليه. في ما يخصني، لا أرى أية مصلحة للاشتراكية الجزائرية في جعل مواطنيها يقارنون سجون روبار لاكوست بسجون الرئيس بن بلة، ولا المظالم الفرنسية بالمظالم الجزائرية، ولا في حمل أصدقائها الفرنسيين، كل سنتين أو ثلاث، على الكتابة بشأن نفس المساجين، لكن بسجّانين آخرين هذه المرة، لمقال بعنوان «من أجل سجين».

كلود روا Claude Roy

# الفهرس

دار الغرب الإسلامي
تونس
لصاحبها الحبيب اللمسي
6 نهج الدالية بالفي - تونس – فاكس: 0021671396545 – خلوي: 216-96-346567
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 677 - R.P. 1035 TUNIS

الرقم: 514/ 1000/ 3/ 2011

التنضيد: دار صادر ـ بيروت ـ لبنان

الطباعة: دار صادر ـ بيروت ـ لبنان

# MÉMOIRES D'UN ALGÉRIEN

Tome I

## RÊVES ET ÉPREUVES
(1932-1965)

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS